

اَدَبِ نَايِج

اَدَبُ وَقَاتِلِج

تصانيف المؤلف الأخيرة

La Genèse de l'Esprit National Égyptien — ١
par al. Sabry.

كتاب بالفرنسية يقع في ٢٨٨ صفحة من القطع
الكبير، ثمنه ٤٠ قرشا .

٢ — تاريخ مصر الحديث، من محمد علي الى اليوم :

يستند الى مذكرات الشيخ محمد عبده وأهم الوثائق الرسمية وغير الرسمية .
نفسدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب وستصدر طبعة جديدة خاصة
لجمهور تستعمل على إضافات كثيرة وفصل جديد في ثورة سنة ١٩١٩

٣ — أدب وتاريخ :

الثنى ١٥ قرشا .

تحت الطبع

٤ — القرن الثامن عشر، والثورة الفرنسية، ونابليون :

كتاب يستند الى أحدث أساليب البحث العلمى فى تاريخ ذلك العصر
الكبير الذى قامت على مبادئه العمرانية والسياسية مدنية أوروبا الحديثة .
يقع فى نحو ٣٥٠ صحيفة (خلافا للصور الكثيرة) ،
الثنى ٢٠ قرشا .

*
*
*

جميع هذه الكتب مطبوعة على ورق جيد بمطبعة دار الكتب
المصرية وتطلب من المكاتب الشهيرة .

أركان التاريخ

تأليف

محمد صبري

الحائز لدرجة الدكتوراه في الآداب مع الشرف من المبررات
أسناد التاريخ الحديث بدارالعلوم

(حقوق الطبع محفوظة للأولف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٧

كل نسخة غير مختومة بختم المؤلف وغير موقع عليها
بامضائه بالخبر فوق الختم تعتبر مسروقة ما
الختم والامضاء

الكتاب الأول

محمود سامي البارودي

صفحة	
٧	تصدير
١١	مقدمة — رسالة من أحمد شوقي بك
١٣	الفصل الأول — تمهيد
١٨	الفصل الثاني — البارودي في صباه
٣٣	الفصل الثالث — صناعته الشعرية
٣٩	الفصل الرابع — الثورة العربية
٥٥	الفصل الخامس — المنفى
٦٩	الفصل السادس — آخر أيامه
٧٩	الفصل السابع — مختارات

الكتاب الثاني

اسماعيل باشا صبرى

١١١	الفصل الأول — صبرى في صباه
١١٩	الفصل الثاني — سلامة الذوق
١٢٥	الفصل الثالث — شعر الكهولة
١٥٦	الفصل الرابع — مختارات

الكتاب الثالث

تاريخ الحركة الاستقلالية في ايطاليا

١٨٣	مقدمة — رسالة من خليل بك مطران
	الباب الأول — عصر النهضة والثورات (١٨١٥ — ١٨٤٨):

صفحة

١٩٢	الفصل الأول — إيطاليا لغاية مؤتمر فيينا
٢٠٣	الفصل الثاني — الحركات الثورية
٢١٣	الفصل الثالث — مازيني
٢٢٤	الفصل الرابع — المعتدلون

الباب الثاني — عصر الحروب والإصلاحات (١٨٤٩ — ١٨٧٠):

٢٤١	الفصل الأول — القوى الرئيسية في الحركة
٢٤٦	الفصل الثاني — كافور

الكتاب الرابع

الفصول

٢٦٩	١ — دقائق الساعة
٢٧٢	٢ — موليير
٢٨٠	٣ — مصر حيرى
٢٨٥	٤ — الذكريات
٢٨٨	٥ — اسماعيل صبرى
٢٩٣	٦ — يوم شم النسيم
		٧ — خطرات في الطريق
٢٩٦	(١) الآلام
٣٠١	(٢) بلاغة العرب
٣٠٦	٨ — القديم والجديد
٣١١	٩ — مهزلة فى ماتم
٣١٦	١٠ — البنون والحياة الدنيا
٣٣٤	١١ — المصرى غريب فى بلاده
٣٣٩	١٢ — وفاة كازانوفا

تصدير

هذه كتب وفصول ظهرت في أزمنة مختلفة فضممت شتاتها
في سفر واحد أقدمه اليوم للقراء، تتطوى كلها على غرض واحد،
وهي صورة من نفس كاتبها، مصرية في سميتها ونزعتها .

ولا ريب أننا لم نبلغ بعد في عالم الفكر ما بلغناه في عالم الخيال،
وأن آدابنا القومية لا تزال في نشأتها الأولى ، وما آداب الأمم
إلا سنادها .

كان أدباء الألمان ، ومؤرخوهم ، وفلاسفتهم في بروسيا
في القرن الثامن عشر يشيدون بذكر العظيمة القومية ، ويتعهدون
الشعور الوطني في كتاباتهم ، فلما حاول نابليون إخضاعهم في أوائل
القرن التاسع عشر انقلبت الفكرة الكامنة في النفوس ، الفكرة الحية
المنتجة وليدة آدابهم القومية ، الى قوة خارجية منظمة انتفضت
بجلاء فأخرجت الأجنبي من الديار، وأحاطت استقلال بروسيا
وعظيمة ألمانيا بسياج متين .

ان الآداب القومية الصحيحة ، من تاريخ وبيان وفلسفة،
يجب أن تكون رسول الفكرة الوطنية الى النفوس ، بشرط أن

لا تبذل في السياسة، وأن تصون نفسها عن الامتحان وخدمة
 الأغراض، وأن تروى فيها شهوات العلى، وأن يتنفس المظلوم
 في أفيائها، وأن تكون له مصدر قوة والهام، تردّه الى العزم اذا
 أصابه ضعف أو خور، وتعصمه باليقين اذا جنح الى اليأس
 والاستسلام، وتعهده اذا عز المعين، وتحدوه في الطريق المأمون
 الى غاية المراد البعيد .

وأكبر أمل لصاحب هذا الكتاب أن ينتفع به المتأدبون وأن
 يكون سحرا صغيرا في بناء أدبنا القومي .

الكتاب الأول

محمود سامي البارودي

مقدمة

رسالة من أمير الشعراء

الى المؤلف

سيدي الأستاذ صبرى

أحب بك مهديا ، وأكرم بكتابك هدية ، ولا برحت توألينا
بالطرف من أدبك ، وتوافينا بالتحف من كتبك ، وجعل الله هذه
الآثار وأمثالها من نتائج القرائح فى مصر نماء وبركة ، فى رأس مال
الأمة ، من حضارة مستقبلية ، ودولة مؤملة ، ومكان بين الممالك
ومنزلة ، فما رأس أموال الأمم إلا وسائل الأدب السليم ، وذرائع
العلم الصحيح ، وكل أدب سليم فهو أدب كل زمان ، وكل علم
صحيح فهو علم كل أوان . سألتنى عن رأيى فى رسالتك بالحيلى فان
كان له من القيمة ما زعمت فهو رأى الغواص فى الجمانة ، والبستانى
فى الريحانة ، والتجبر فى معتقة الحانة ، ترجمة كلها حسن وأحسن
ما فيها المترجم ، وتحلية كلها روعة وأروع ما فيها المحلى . منكوب
كريم اجتمع لشهوات الدهر فيه ما تفرق فى البرامكة من جاه

يطويه ، ونعيم يدويه ، وولد يرديه ، ونور يطفيه ، وحسب وضاح
 يخفيه ، وحكم بالأمس نافذ يحكم فيه . جاورته بجلوان الشهور الطوال
 يشد بيتينا طنبا ، وينتظم دارينا جدارا ، فإذا الجار كريم ، وإذا
 الشاعر عظيم ، ماسمعه مرة عرض شعره على جلسائه ، ولا رأيته
 إلا سقيما من الحياء كلما عرض شعره عليه . وهكذا كان
 رحمه الله إذا جرى ذكر الحوادث العرابية في مجلسه توارى
 بالاطراق حتى يمسك المتكلم . سأله مرة صبرى باشا : هل له
 مذكرات عن الثورة ؟ فقال لا ، قال : وما منعك ؟ قال علمي بأن
 الغضب في طباعى وخوفى من أن يملكنى عند بعض الذكريات
 فيبغى القلم على الرجال . فقال حامد بك خلوصى وكان ممن ضم
 المجلس ، صدقت ، ألسنت القائل (ونغضب في شروى نقيير فنشتد)
 فتبسم رحمه الله ثم قال : ولا يغضبني مثل حديث الثورة فلنخض
 في غيره . وعلى ذكر الثورة أقول للأستاذ انه كان له غنى عن الإشارة
 الى مواقف المرحوم البارودى في الحوادث العرابية فان فى ذلك
 من مسابقة التاريخ ما فيه ، ومن سابق التاريخ لم يأمن أن يضل
 الأعقاب ، ويحزف مواضع التبعات من الرقاب .

المخلص

٢ يولييه سنة ١٩٢٣

شوقي

الفصل الأول

تمهيد

البارودى يمثل طور الانتقال أحسن تمثيل بشخصيته البارزة فى الشعر، فهو صلة متينة بين شعر العرب القديم والشعر العصرى، وهو محيى دولة الشعر بعد العدم، فوجب أن يعنى به المصريون لأنه زعيم النهضة الشعرية الأدبية التى هى مظهر سام من مظاهر النهضة العامة التى نهضتها البلاد فى القرن التاسع عشر.

ولكننا قبل أن نقلب الطرف فى شعر البارودى ونترجم عن الأثر الذى يتركه فى النفس سنقول كلمة إجمالية نحدد بها المراد بالشعر العصرى.

لو تفهمنا بالدقة على حدة معنى كلتا الكلمتين «الشعر العصرى» لتجنبنا سبلا كثيرة ضل فيها اللب والفهم وأخطأ فى سلوكها شعراء كثيرون. الشعر شعور «يشعر» به الفرد فى «عصره» والآن نفصل.

الشعر الذي يصدر عن شعور صادق هو الشعر حقيقة ، هو الشعر المطبوع المنسجم الذي تنعكس في مرآته صورة من حياة الرجل يتجلى فيها طابع خاص ، وكلما كبرت شخصية الشاعر ازدادت اتصالا بعصره ، وقد يمتزج الاثنان امتزاج الروح بالجسد ، ويصبح طابع الشخصية ممثلا للشاعر وعصره معا .

فلا أجل أن يكون الشاعر شاعرا عصريا يجب أن يكون شعره شعرا وأن يكون عصريا ، واني أضرب مثلا .

يذكر القراء أن شاعرنا حافظ ابراهيم وصف القاطرة في قصيدة له ميمية في « رعاية الأطفال » فلم يوفق في هذه القصيدة كما وفق في كثير من شعره خصوصا في قصيدته اللامية التي قالها في نفس الموضوع ، تلك القصيدة التي تجلت فيها شاعرية حافظ والتي يقول فيها .
وكان ناحل جسمها في ثوبها خلف الحروق يطل من غربال

ووصف الشاعر الفرنسي « الفرد دي فيني » القاطرة في أول عهدها في قصيدة « بيت الراعي » فلم يوفق والسبب واحد ، ذلك أن الأقل كان شاعر بؤس ورقة وألم خالق في فضاء لم يألفه وقل أن يألفه الشعر فسقط ، وكان الثاني شاعرا فيلسوفا تذوب نفسه أسمى على المجتمع البشري الذي أطال التأمل فيه فهبط بخاة من سماوة الفكر العالي وأخذ يتخوض في ماء وحل .

ذلك بأن الشعر العصري ليس معناه وصف المخترعات العصرية من قاطرات وطائرات وما شاكلها — وإن كان ذلك لا يمنعه من التعرض لها — فهذا في الحقيقة تطفل من الشعر على العلم وطرق أبواب ما أغناه عن الوقوف بها طويلا :

قال البارودي :

طبعته في لوح الفؤاد مخياتي	بزجاجة العينين فهو مصور
وسرت بجسمي كهرباء حسنه	فمن العروق به سلوك تخبر
لولا التنفس لاعتلت بي زفرة	فيخالني طيارة من يبصر

أنظر الى هذه الأبيات الثلاثة التي اضطررنا الى ذكرها الآن لأنها جامعة، تجدد البارودي أشار في البيت الأول الى آلة التصوير أو « الفتوغرافيا »، وفي الثاني الى الكهرباء والسلوك، وفي الثالث الى الطيارة .

خلط الشاعر بين الشعر والعلم ، بين الخيال السامي والماديات ، بين ماء السماء الصافي وماء المستنقع الآجن ، فظهر شعره في تلك الصورة التي يابها الذوق السليم .

هذه الأبيات ليست من الشعر العصري في شيء لأنها ليست من الشعر، وإنى أمقت ذكر المخترعات على هذه الصورة كما أمقت

الصنعة والتكلف والبديع والجناس وكل ما يحول الشعور عن مجراه الطبيعي فلا يلبث أن يتشتت ويحف .

وليس من الشعر العصري في شيء أن يولع بعض شعرائنا المعاصرين ببكاء الأطلال والدمن كما كان يفعل العرب لأنه لا أثر للأطلال والدمن في العصر الحاضر ولا يمكن أن ينم بكاؤها عن شعور صادق .

على أن في ذلك مظهرا من مظاهر التقليد ، والتقليد ممقوت لأن معناه فقدان شخصية الفرد وشخصية العصر ، وهو دليل ضعف ، والحياة قسوة .

والنفس تمل التقليد لأنه عدو الحديد ولكل جديد لذة ، وكلما تعددت المذاهب واختلفت باختلاف العصور كان ذلك دليل نهضة وحياة ، والحياة حركة .

ومن أراد أن يتحقق من ذلك فليقارن بين مذهب العرب ومذهب المولدين ومذهب الأندلسيين ، أو فليقارن بين مذهب الشعراء الفرنسيين في القرن السابع عشر (Ecole Classique) ومذاهبهم العديدة في القرن التاسع عشر ، ثم ليقارن بعد ذلك بين مذهب الشعراء الفرنسيين أو الإنجليز في الوقت الحالى وبين مذهب شعرائنا اليوم اذا كان لنا مذهب جديد معين .

لا أريد بذلك الخط من مكانة الشعر العصري فلست أنكر
مثلا عبقرية شوقي التي تتجلى كالصبح ، ولكن من منا لا يأسى
كلما رأى شاعرا قد وقف جزءا كبيرا من شعره على المديح وسلك
في ذلك مذهب القدماء .

على أن من حسنات شوقي أنه هجر البكاء على الطلول والمغاني
وبكى على آثار مصر وشاد بذكراها في قصائد عديدة من عيون
قصائده فأصبح "شاعر الآثار" وكان بذلك مصرى النزعة عصريا ،
وكان يعبر عن شعور صادق ووطنية عالية ، وكان في الوقت نفسه
خير ترجمان للنهضة المصرية الحديثة التي تعمل على إحياء مجد
السلف .

ولكننى لا أقصد التكلم عن «عصرية» شوقي أو مطران
أو صبرى أو غيرهم وإنما أردت أن أضرب مثلا ، وأضيف الى
ما تقدم أن الشاعر العصري حقيقة هو الذى يضطر الناقد الى
ترتيب قصائده عند الحكم عليها ، لا بحسب الأبواب من مديح ونفر
وهجاء كما يفعلون ، بل بحسب تاريخها فهذا هو المقياس الصحيح
الذى يدلنا على مبلغ ارتباط الشعر بحياة الرجل وعصره .

وتلك هي الطريقة التي سنجري عليها في درس البارودي
والبحث عن آثار القديم التي تختلط أحيانا بشعره اختلاط الرغام
بالذهب في معدنه، وسنبين كيف تمكن البارودي من نظم بعض
قصائد من الشعر النقي الحر كسبائك الذهب المصفى .

ولا ريب أن هذا الشاعر سيكون لنا مثلاً كبيراً نثبت به تلك
الحقيقة التي جهلها الأكثرون وهي أحسن الشعر أصدقاه .

الفصل الثنائي

عصر الصبا

صدر من ديوان البارودي جزان يحتويان على معظم شعره ،
وهما مصدران بمقدمة في حياة الرجل لا تتقع غلة لاسيما اذا تذكرنا
أن حياة هذا الشاعر كانت كبيرة مملوءة بالحوادث والعبر التي
نظمتها يد المقدر صحيفة في تاريخ مصر ، وأن حياته وشعره
يؤلف بينهما نسب صادق فمن أراد حقاً أن يتمتع بذلك الشعر
العذب فليرجع الى الأصل وهو الحياة وليقتطف تلك العناقيد من
كرومها وحسبنا أن نصوّرها من عال في لوحة مصغرة .

وسنتكلم في هذا الفصل عن صباه حتى يقارب الأربعين
في آخر حكم اسماعيل ، ثم نتكلم عنه في أطوار حياته الأخرى ،
إبان الثورة العرابية ، في منفاه وفي مصر .

نشأ البارودي في بيت مجد مؤثّل ، هو ابن حسن بك حسني
الذي كان من أمراء المدفعية ثم صار مديراً لدنقله وبربر على عهد

المرحوم محمد علي باشا ، ابن عبد الله بك الجركسي ينتهي نسبه الى
المقام السيفي نوزوز الأتابكي أخى برسيای قرا المحمدي .

والترك والجركس هم آخر طبقة من الغرباء وفدوا الى مصر
واتخذوها وطنًا وتوالدوا فيها فأصبحوا «مولدين» ، روى صاحب
الهلal أن البارودي كان شديد الحرص على معرفة نسبه وأنه بذل
نحو ٣٠٠٠ جنيه في سبيل البحث عنه في أنحاء القطر ومراجعة
النصوص وغير ذلك .

ولد صاحب الترجمة بسرأي باب الخلق لثلاث بقين من رجب
سنة ١٢٥٥ هجرية ، وفي سنة ١٢٦٢ توفي والده بناحية دنقله وكان
عمره اذ ذاك سبع سنين وفي ذلك يقول لما ناهز العشرين :

لا فارس اليوم يحمي السرح بالوادی
طاح الردي بشهاب الحرب والنادی
مات الذي ترهب الأقران صولته
ويتقى بأسه الضرغامه العادی
مضى وخلفني في سنّ سابعة
لا يهرب الخصم إبراقی وإرعادی
فان أكن عشت فردا بين آصرتي
فها أنا اليوم فرد بين أندادی

هذا الشعر كما تراه متين محكم النسيج نظمه في سن صغيرة ، فما سر هذه القوة التي تجلت قبل الأوان في عصر مقفر من الشعر الجيد ؟ أهو في تربيته القومية أم في طبعه واستعداده ؟

شرع محمود سامي في سن الثامنة يتلقى مبادئ العلم على أساتذة كانت تحضر في منزله ، ودخل في سنة ١٢٦٧ ، أى في سن الثانية عشرة ، مدارس الحربية وتخرج منها برتبة باشجاوئيش سنة ١٢٧١ في أوائل تولية سعيد باشا ، وكان عمره اذ ذاك ست عشرة سنة ويقال أنه كان يتعاطى صناعة الشعر في أثناء دراسته .

أما تربيته الأدبية فإليك ما قاله عنه الشيخ حسين المرصفي في "الوسيلة الأدبية" وكان من أعرف الناس به : « محمود سامي البارودي لم يقرأ كتابا في فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سنّ التعقل وجد من طبعه ميلا الى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع بعض من له دراسة وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ وهو بحضرته حتى تصوّر في برهة يسيرة هيآت التراكيب العربية فصار يقرأ ولا يكاد يابحن ... ، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناظدا شريفها من خسيسها ، ثم جاء من صناعة الشعر اللائق بالأمراء » .

لم يكن عصره يساعد على تكوين ملكة البلاغة لأن حامل لواء
الشعر اذ ذاك محمود صفوت الساعاتي الذي أعقب الدرويش ،
حدثني المرحوم حفني بك ناصف مرة أن أجود قصيدة نظمت
في عهد محمد علي هي القصيدة التي مطاعها :

يا آل طه عليكم حلتى حسبت

إن الضعيف على الأجواد محول

والتي ما زال الى اليوم بعض سكان الريف يحفظونها ، وكان
الليثي والنجاري والابيارى والنديم ورفاعة وأبو النصر وغيرهم من
معاصري الساعاتي مولعين بالبديع محتزين مثل البهاء زهير وابن
خفاجة وغيرهما من المتأخرين الذين ليسوا من حلبة هذا الميدان .

أما فيما يتعلق بالوراثة فقد قال البارودي :

أنا في الشعر عريق لم أرثه عن كلاله

كان ابراهيم خالي فيه مشهور المقاله

وسما جدي علي يطلب النجم فناله

لا أظن أن خال البارودي كان شاعرا يمتاز عن أهل عصره
ولكن لعل البارودي وجد فيه مشجعا على قول الشعر كما وجد
في المعالي التي يفخر بها ، وفي معاهد العز والشباب التي درج فيها .

ولكن كل هذا لا يكفي لأن يبرز شاعر غض الاله اب على
معاصريه ثم يحرق حبله على غاربه حتى يلحق بفحول المتقدمين
قبل أن يطوى برد الشباب .

اذن كان سر قوة هذا الشاعر في طبعه ، وكانت في قرارة
نفسه عين كامنة ما لبثت أن وجدت منفذا ضئيلا فتفجرت بالسحر
الحلال ولم تنضب ، روى الأستاذ خليل مطران في فصل رائع :
«لقد تسامحت يوما بدالة الود فسألته أية حال من أحوال حياتك
كنت فيها أميل الى الشعر وأكثر اشتغالا به فاجابني ان خطرات
الشعر صحتني في أيامي كلها ولم تفارقني إلا في أقلها» .

على أن من يقرأ شعر البارودي يرى ماء الطبع يتفرق فيه ،
قال هو عن نفسه في كلمة افتتح بها في ديوانه : « ولقد كنت
في ريعان الفتوة واندفاع القرية بتيار القوة ألهج به لهج الحمام
بهديله ، وأنس به أنس العديل بعديله ، لا تذرعا الى وجه أنتويه ،
ولا تطلعا الى غنم أحتويه ، وإنما هي أغراض حركتني وإباء جمح بي
وغرام سال على قلبي فلم أتمالك ان أهبت فحركت به جرسى ،
أو هتفت فسرّيت به عن نفسي » ثم روى بيتين قالهما في هذا المعنى :
تكلمت كالمساضين قبلي بما جرت

به عادة الانسان أن يتكلما

فلا يعتمدني بالاساءة غافل
فلا بد لابن الأيك أن يتزعم

أجل ، غنى البارودي بالشعر كما يغنى الطائر من غير صنعة
ولا تكلف ، وحركت الأغراض فؤاده في بحر الحياة فأطربنا
بأغانيه ، حتى جاء آخر العمر وأظلمت الدنيا في عينيه بعد فقد
الشباب وفقد الديار .

ولقد خص شاعرنا بالذكر غرضين من الأغراض التي حركته
في شبابه فقال «إباء جمح بي وغرام سال على قلبي» ، أما غرامه
فلا ندرى من أمره شيئاً ، على أن شعره في الغرام قليل ولا أعرف
له إلا قصيدة فذة واحدة في هذا الموضوع ، من خير ما غنى به
شاعر على غصن الغزل المياد :

هل من فتى ينشد قلبي معي	بين خدور العين بالاجرع
كان معي ثم دعاه الهوى	فمر بالحي ولم يرجع
فهل اذا ناديته باسمه	يفيق من سكرته أو يعي

والقصيدة كلها من أرق الشعر وهي تصاحف في سماء الأدب
العصرى قصيدة صبرى باشا التي مطلعها :

يالواء الحسن أحزاب الهوى أيقظوا الفتنة في ظل اللواء

ويغلب على ظني أن البارودي قال قصيدته هذه في آخر حياته لأن عليها مسحة الشعر الذي أنضجه الألم ، ولعله هتف بها في منفاه ، وفي البيتين الأخيرين منها بعض الدلالة :

فهل الى الأشواق من غاية أم هل الى الأوطان من مرجع
لا تأس يا قلب على ما مضى لا بد للحننة من مقطع

ومهما كان من الأمر فاني أعتقد أن البارودي كانت في نفسه مغالبة بين عاطفتي الحب والاباء فتغلب الاباء وسمح به . ولقد كان الاباء عاملا كبيرا في حياته ، وفي شعره ، دفعه في الحياة الى سلوك الطريق الوعر المملوء شوكا ليصل الى العز من خلاله ويبلغ به أبعد غاية ، ثم الى التجلد والصبر عند الشدائد ، ودفعه في شعره الى الفخر وترك المديح الذي « يتطلع الى غم » وهو رجل ذو مطامع طموح الى العلياء ، وكأنما نطق الكاظمي بلسانه حين قال :

ما سلونا آرام نجد ولكن شغلتنا العلا عن الآرام

اذا دققنا النظر في مصادر هذا الاباء وجدناها ثلاثة : أولها أصل البارودي وحسبه ، ثانيها النعرة العربية التي ورثها الشاعر عن العرب الذين درس شعرهم وأصبح يجاريهم ، ثالثها كبرياء حامل السيف ، لا سيما أن البارودي كان جنديا كبيرا صعد في درج الترقى

في أيام سعيد واسماعيل وخاض الوقائع ، وكانت له مواقف في حرب
كريد وحرب الروس مع الدولة وصفها وصف مصور .

أما وقد ذكرنا العز الذي خالط إباءه والذي ينفوخ شعره برياه
فلا يغيب عنا أن البارودي لا تكاد تخلوله قصيدة من ذكر
”روضة المقياس“ أو ”روضة النيل“ والجزيرة، والشجر، وغناء
الأطيار ، وقد وصف حديقة جزيرة كريد وحديقة جزيرة سيلان ،
وإننا لا يخجلنا شك في أن البارودي كان في أيام صباه يؤم
كثيرا روضة المقياس والجزيرة ، فانطبعت صورتها في فؤاده
الحساس ، وصار كلما أوحى إليه فؤاده قول الشعر ظهرت هذه
الصورة في ألوان شتى .

وبالجملة فإن طبيعة البارودي في شبابه حركته لقول الشعر
والتمييز بين أساليب القدماء الذين كان يحفظ من شعرهم كل ما كان
جزلا رصينا ، ثم وجدت تلك الطبيعة في الحياة ما يساعده على تغذيتها
في أطوارها المختلفة فخرج شعره في صباه متينا رقيق الحواشي .
وقد ثبت لنا أن القصائد التي جرى بها القدماء أمثال
أبي نؤاس والشريف الرضي والناطقة الذبياني وأبي فراس والطغرائي ،
والتي هي من أجود شعره ، هي من شعر الشباب ولكننا لم نهتد الى
هذه النقطة من الديوان المطبوع الذي جنى عليه شارحه . بل

من الوسيلة الأدبية، فإن الشيخ حسين المرصفي اختار هذه القصائد وذكرها في كتابه، وهو وإن لم يكن ذكر تاريخها إلا أننا عرفنا أن تاريخ ظهور الطبعة الأولى من كتابه كان سنة ١٢٩٦ (لا ١٢٩٢ كما ذكر خطأ في أول الكتاب) فتكون جملة القصائد التي نشرت فيه ظهرت قبل أن يبلغ البارودي أربعين عاماً . وسند ذكر شيئاً من هذه القصائد التي تنهذى كالغرائس في أبهى حلّى، ولكننا نقرر من الآن أن البارودي كان فيها مجارياً لا مقلداً فساقها حضرية بدوية التركيب، ومهما حشد فيها من ألفاظ وتشبيهات قديمة فإن آثار التقليد سطحية، وليت شعري متى كان الصانع المقلد يصل بالشعر إلى المرتبة العليا التي وصل إليها البارودي

أنظر إليه مثلاً كيف وصف حرب جزيرة كريد حين خرجوا من طاعة الدولة سنة ١٢٨٢ (١٨٦٥ م) في قصيدة "أخذ الكرى بمعاقد الأجنان" التي يقول فيها :

وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا

يتكلمون بالسن النيران

صوّر البارودي في هذه القصيدة موقفاً له في تلك الحرب تصوره دقيقاً كأنه من ريشة مصور، ومما يزيدنا عجباً أنه نظمها في ميعة الصبا إذ كانت سنة وقتئذ ٢٧ عاماً .

وقال في موقف آخر :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا
ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وزين للناس الفرار من الردى
وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا
سقينها بكأس لا يفيق لها شرب
صبرت لها حتى تجلت سماؤها
وانى صبور انى ألم بى الخطب

ولما أعلنت روسيا الدولة العليا بالحرب سنة ١٢٩٤ (١٨٧٧)
ذهب مع الجيش الذى أرسلته الحكومة المصرية لمساعدتها ومما
قاله فى هذه الحرب :

أدور بعينى لا أرى غير أمة
من الروس بالبلقان يخططها العد
جواث على هام الجبال لغارة
يطير بها ضوء الصباح اذا بيدوا
اذا نحن سرنا صرّح الشر باسمه
وصاح القنا بالموت وأستقتل الجند

ترى من ذلك أن البارودى وصف الحرب عن خبرة وصفا
يتأثر منه القارئ كأن احساسهما مشترك .

ومما قاله فى بعض القصائد الأخرى التى أشرنا إليها ، وذاع
على كل لسان ، وصفه للخمر فى القصيدة التى يحارى بها أبا نواس :

فطاف بها شمسية طيبة لها عند أبواب الرجال ثؤور
إذا ما شربناها أقمنا مكاننا وظلت بنا الأرض الفضاء تدور
ومنها فى وصف الجمائم :

نواعم لا يعرفن يؤس معيشة ولا دائرات الدهر كيف تدور
خوارج من أيك دواخل غيره زهاهن ظل سابغ وغدير
إذا غارلتها الشمس رقت كأنما على صفحتها سندس وحرير

أرأيت وصفا أدق من هذه الأبيات يشف عن قوة الملاحظة
وحسن التخيل ؟

ومنها فى الفخر :

وأصبحت محسود الجلال كأننى

على كل نفس فى الزمان أمير

إذا صلت كف الدهر من غلوائه

وان قلت غصت بالقلوب صدور

ومن قوله أيضا فى الفخر فى القصيدة التى يجارى بها
الشريف الرضى :

ومن تكن العليا همّة نفسه
فكل الذى يلقاه فيها محبب
إذا أنا لم أعط المكارم حقها
فلا عزنى خال ولا ضمنى أب
ومن قوله فى قصيدته التى يجارى بها أبا فراس :

وانى امرؤ لولا العوائق أذعنت
لساطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم
لها فى حواشى كل داجية بجر
إذا آستل منهم سيد غرب سيفه
تفرعت الأفلاك والتفت الدهر

كل هذا الشعر قاله البارودى فى صباه، وكل هذا الشعر يترنم
به أهل العصر فهو إذن من الشعر العصرى الحزّ، وهو كما ترى مشرق
الديباجة عليه نظرة ونعيم يدل على اقبال الدنيا، ولكن لا يفتك أن
الأيام دول وأن أواخر أيام اسماعيل التى كانت فى الوقت نفسه

أواخر أيام شباب شاعرنا الذى رضع من ثدى عزه وسلطانه قد
تكدرت بعد صفو وأصاها ازعاج بعد أمن .

جاء فى الديوان ما نصه :

« قال يذم سيرة الحكام ويحرض الناس على طلب العدل
فى الأحكام وذلك فى عهد اسماعيل باشا خديوى مصر » ، جاء
فى هذه القصيدة :

قامت به من رجال السوء طائفة
أدهى على النفس من بؤس على شكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه
بغضا ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت
قواعد الملك حتى ظل فى خلل
ومنها :

فبادروا الأمر قبل الفوت واتترعوا
شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضا
لكل منترع سهما ومختل

حتى تعود سماء الأمن ضاحية
ويرفل العدل في ضاف من الحلل

هذه القصيدة فيما أعتقد مبدأ الشعر السياسي في العصر الحديث
وهي صريحة في وجه الظلم الصارخ، واستنهاض للهمم، وحث على
العمل، وتذكير بمجد دارس، وهي وداع للشباب وبلهنية العيش،
وإيدان بالدخول في حياة قلق واضطراب، وجد بعد لها .

على أن فيها معنى آخر، وهو أن الشاعر قد وفق بين الشعر
والعمل، بين الحلم والحقيقة فكان طائر النهضة الذي غرد في السحر،
وكان ساعد النهضة العامل وإن لم توفقه المقادير .

وسنرى كيف بدأت تتغير روح البارودي في شعره مع تغير
الحوادث التي كان شعره مرآة لها .

الفصل الثالث

صناعته الشعرية

أبنا في مقال سابق كيف تأتى للبارودى أن يصوغ فى صباه قصائد بذبها المتقدمين وكانت حلوة فى جيد العصر ولكن هناك نقطة لا نرى بدا من الإشارة إليها ، وهى أن شارح ديوان البارودى لم يحن على شعره بشرحه الطويل الغث فحسب ، بل تعدى ذلك الى عدم العناية بنشر الشعر فى صورته الأصلية فمسخ بعض القصائد الرائعة التى جارى بها البارودى فحول المتقدمين ، وكان من السهل على الشارح أن يتنبه الى هذا الخطأ الذى وقع فيه عفووا لو أنه تفهم شعر البارودى واهتمامه بحسن السبك أو أنه أمعن النظر فى القصائد التى نشرها له صاحب الوسيلة .

ومن العجيب حقا أن ينشر المرفعى للبارودى وهو حى فى ريعان الشباب نصا لقصائده أصح بكثير من النص الذى نشر بعد وفاته ، على أننا من جهة أخرى قد أسعدنا الحظ بالوقوع على نصين مختلفين لقصائد أو أبيات معدودة لا نشك أن الثانى منهما

الذى ظهر فى ديوانه هو فى الحقيقة النص الأول الذى أصلحه البارودى وصقله بعد إعمال الروية فيه ونقده نقد الصير فى الحاذق .

من المقارنة بين هذين النصين يتبين لنا بعض جمال هذه الصنعة الشعرية وسرها ، ولقد صدق الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى قوله فى المقتطف سنة ١٩٠٥ « لم يكن شاعرنا كامل التصرف فى فنون المعانى وإن كان أشعر من جميع معاصريه بلا مراء غير أنه أتم ذلك النقص بما أتقن من جمال الصنعة وبديع الرواء ، أما نمط البارودى فى النظم فهو غاية ما دارت له الألسنة ، عذوبة تكاد ترشف ، وجزالة تلعب بالنفس ، وسلاسة يستريح فى ظلها القلب . وكان يقدم أبا تمام على المتنبي لأن شعر أبى تمام أبجل وصنعتة أوضح وأتم » .

جاء فى القصيدة التى يجارى بها أبا فراس :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم ملول من الأيام شيمته الغدر

وقد روى صاحب الوسيلة البيت على الصورة الآتية :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم أخوفتكات بالكرام اسمه الدهر

فانظر الى الفرق بين الصياغتين وتأمل كيف كان البيت فى أول

الأمر كالطائر الذى كسر أحد جناحيه فتعسر عليه النهوض حتى

جاء الشاعر وبذل الشطر الثاني بشطر آخر يتلاءم مع الأول معنى ومبنى، فإن قوله "ملول من الأيام" بعد "ثم بدد شملهم" من أضعف التراكيب وأخسها بخلاف "أخو فتكات بالكرام" فإن هذا التركيب جمع بين الجزالة والرقعة اللتين بلغتا منتهاهما في آخر البيت حين فسر شاعرنا الحكاية بقوله : "اسمه الدهر" .

أضف الى ذلك إن حزن الشاعر يتجلى في الشطر الأخير على أولئك "النفر الغر" الذين بدد الزمان شملهم، وهذا أتم للمعنى وأوفى وأكثر اتصالاً بما جاء بعد ذلك :

فلم يبق منهم غير آثار نعمة تضوع برياءها الأحاديث والذكر
وقد تنطق الآثار وهي صوامت ويثني برياء على الوابل الزهر
ولعل أكبر قصيدة بدلت معالمها وشوّهت هي قصيدته التي جارى بها أبا تواس، فإن الفرق بين الروایتين كبير جداً فنحث المتأدبين على الموازنة بينهما لما في ذلك من فائدة، وإننا لا نشك أن رواية الوسيلة أصح وأبلغ من رواية الديوان ولا نأسف إلا على شطر واحد ذكر في الثانية وسقط من الأولى مع البيت كله وهو:
ونبهنا وقع الندى في خميلة لها من نجوم الأخوان ثغور
فإن الشطر الأول غاية في الحسن والانسجام، قال صديقي الكاشف حين أنشدته إياه : «هذا شعر»، وهو ظرف من

الجوهر الرقيق يشف عن ذلك النفس العالى ، وفيه ما يسميه الافرنج
بالنغم التقليدى (Harmonie imitative) وهو دقة التعبير عن
المعاني بتراكيب وألفاظ وأوزان تجدها نغما خاصا يحكى تلك المعاني
ويدل عليها . اقرأ ثانياة الشطر الذى سبق ذكره :
ونبهنا . وقع الندى . فى خميلة

ترأ أن الوقوف بعد لفظي "نبهنا" و "الندى" يجعلك تحس
وقع الندى وهو يهبط على الخميصة من عل . ومن الأبيات التى
بدلت فى هذه القصيدة قول البارودي :

عقدنا جناحي لينا بنهارنا وطرنا مع اللذات حيث تطير
فقد جاء فى الديوان :

عقلنا به ماندمن كل صهوة وطرنا مع اللذات حيث تطير

فالشطر الذى رواه المرفعى كما ترى ضعيف متكلف فى حين
أن الشطر رواية الديوان من أجود التراكيب وأجملها ، ومعنى البيت
أن الشاعر كان يتمتع بليل جمع فنون اللهو ، وهذا دليل على السرور
الكامل الذى ينسى الانسان مر الليالى حتى ينهيه وقع الندى
أو هاتف بالسحر وهولاه منعم ، ومما يزيد من ملاحظة ذلك التصوير
المقابلة بين الشطرين ، فان الشاعر ذكر فى الشطر الأول أنه
يعقل ما ندم من كل صهوة ثم وصف نفسه بالطائر الحر الذى يطير

في فضاء الذات حيث تطير، فأنت ترى من جمال المقابلة بين
الضدين ما ترقص له النفس طربا .

وجاء في هذه القصيدة وصف الحمام رواية الديوان :
إذا ضاحكتها الشمس رفت كأنما على صفحتها سندس وحرير

فقد ورد في الوسيلة "غازاتها" بدلا من "ضاحكتها" والأولى
في هذا المقام أدق وأحلى ، وهي كلمة بكر جاء بها وحى الشعر ،
أما كلمة المضاحكة فهي عامة شائعة خالية من الصنعة الشعرية
التي امتاز بها البارودي .

كان شاعرنا يفتش عن الألفاظ الشعرية ، ورب كلمة
مليحة تعدل بيتا بل قصيدة بل ديوانا ، مثل ذلك كلمة "حواشي"
في هذا البيت :

من النفر الغر الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية بخر

ولعل البارودي أغار على الشريف الرضى الذي قال :

نهار بلائلاء السيوف مفضض وجو بحراء الأنايب مذهب
ترى اليوم محمرا الحواشي كأنما على الجو غرب من دم يتصبب

لم تخرج لفظة الحواشي في بيت الشريف عن كونها لفظة جيدة.
من حيث اللغة الشعرية ولكن معناها ضيق محدود ، في حين أنها

في بيت البارودي جيدة من حيث الصنعة الشعرية العالية ومعناها
واسع غير محدود، وكلما تأملت فيها حملتك على جناحها في فضاء
الفكر والخيال .

وقد أغار البارودي سهوا على شطر كامل لأعرابي كان سائحا
فبلغه أن امرأته تزوجت فقال من أبيات :
أتاني بظهر الغيب أن قد تزوجت فظلت بي الأرض الفضاء تدور
ووصف شاعرنا الخمر فقال :

إذا ما شربناها أقننا مكاننا وظلت بنا الأرض الفضاء تدور
ولكن البارودي أحسن الأخذ وصار أحق بالمعنى من صاحبه .
هذه أمثلة علنا نكون اهتدينا بها الى بعض أسرار تلك الصناعة ،
وفي اعتقادي أن البارودي جمع في أسلوبيه بين الرقة والمتانة ، والدقة
والجزالة ، والبداوة والحضارة ، بفناء شعره مصقول الديباجة كالمرمر
المسنون يمت بنسب الى البحتري ، وكلاهما لا يشق له غبار .

الفصل الرابع

الثورة العرابية

انتقل البارودى من صباه الى كهولته تحت لواء الثورة حتى
أسلمته الى منفاه وهجم هجوع الليث بعد أن كانت له على أعدائه
دولة وصولة .

ولسنا نريد اليوم أن تفصل حوادث الثورة العرابية وأسبابها
وننتائجها فهذا بحث تاريخى مستقل نرجئه الى حين ، ونكتفى الآن
بقول كلمة إجمالية عن الثورة وشرح الدور الذى لعبه البارودى فيها .
أجمع أكثر المؤرخين على القول بأن الثورة العرابية كانت ثورة
وطنية مصرية ترجع أسبابها الى الظلم الذى أخفى على البلاد فى أيام
اسماعيل ، والى تدخل إنجلترا وفرنسا فى فروع الادارة المصرية تمهيدا
للاحتلال الشئى الذى تفردت به إنجلترا فيما بعد تحت ستار الثورة
التي كانت تعمل فى الحقيقة على إزالة أسبابه واجتثاث أصوله .

بدأ أحرار المصريين فى أواخر حكم اسماعيل وأوائل حكم
توفيق يطلبون صراحة العدل والدستور لخلاص البلاد مما هى فيه ،

وانضم البارودي من أول الأمر الى زعماء الحركة وكان من مشجعيها سرا . روى المرحوم عرابي باشا في مذكراته أنه في سنة ١٨٧٩ على أثر حادثة المالية التي دبرها اسماعيل وأراد أن يلصق تبعثها بمحمد بك النادى ، وعلى الروبى ، وأحمد عرابي دعاهم رئيس التشريعات عبد القادر باشا حامى فتفاهموا معه ثم دعاهم محمود باشا البارودي وكان وقتئذ مأمور الضبطية فصارحوه القول ، وهنا قال عرابي بالنص عن محمود سامي : « وآنست فيه تأففا من الظلم وميلا الى العدل والدستور » .

أجل ، كانت هذه النفس الأبية تكره الظلم وتأبى الصبر على الهوان ، ولقد أشرنا فى مقال سابق الى القصيدة التى شكّا فيها ظلم الحكام . ولما صعد الأمير محمد توفيق الى العرش هناك بقصيدة قال فيها :

أمران ما اجتماعا لقائد أمة إلا جنى بهما ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم شورى وجند للعقد بمرصود

أراد « بالجمع » مجلس النواب و « بالجند » الجيش — وهذا واضح — فانظر الى شجاعة الشاعر وإخلاصه لوطنه كيف دفعاه فى ذلك الزمن غير المأمون الى المجاهرة بتلك الحقيقة الكبرى وسط التهئة والمديح ، والبارودي هو خير من نلخص أغراض العرابيين

فى بيت من الشعر ، وهل هناك دواء أنجع من مجلس يحكم البلاد
وجيش يحميها؟ وهل هناك وسيلتان أخريان لتحقيق ثورة الاصلاح
التي كانت البلاد بحاجة اليها؟

عين الخديو توفيق فى أوائل حكمه محمود سامى وزيرا
للأوقاف المصرية فسعى جهده فى إصلاحها ، ويقال انه كان فى ذلك
الوقت يشجع الحزب الوطنى سرا مع أن القوى العاملة لهذا الحزب
كانت فى الجيش حيث استحكم العداء بين المصريين والعنصر التركى
الشركسى الذى ينتمى اليه البارودى ، وهذا يدل على حب العدل
الذى بنى عليه لا سيما وأنه من عائلة قديمة فى الديار المصرية .

ولما حدثت المظاهرة العسكرية الأولى ضمت عثمان رفقي
الشركسى ناظر الجهادية وطلب عرابى من الخديو توفيق عزله
أجابه الخديو الى طلبه وأحال هذه النظارة الى محمود سامى الذى
أصبح ناظر الجهادية والأوقاف معا .

روى محمود باشا فهمى المهندس فى كتاب "البحر الزانح" أن
عرابى وعلى فهمى وعبد العال « اعتبروا إجابة طلبهم مكيدة بهم
من الحكومة لتسكين جاشهم ثم تحتال عليهم وتغتالهم وما كانوا
يعتقدون فيما يعظهم به محمود سامى من الأقوال وتمهيد الأحوال

واضطرب حالهم وشرعوا في عقد مجالس سرية واحتفالات
وجمعيات ليلية .

اعتقد أن محمود فهمي لم يقل في هذا الموطن إلا حقا . ويجب
علينا من الآن أن نبين الصفة البارزة في خلق البارودي وهي
الاعتدال ، وإن كان المعتدل قد يتطرف أو يتهور في بعض أزمان
الثورة ، وأريد بالاعتدال هذا الخلق الهادي الذي يجمع بين الرزاة
والروية والحنكة . ولقد جمع البارودي بين الاعتدال والذكاء ، وكان
أنبه العربيين فاشترك في الحركة ولم يبرز حلمه . ولم يلعب فيها دور
شاعر وإنما قال فيها الشعر منفردا قول باك على فنن في غسق الدجى
بعد أن غرد في فجر النهضة تغريدة أو تغريدتين . ولم يلعب دور
زعيم يخطب في الجماهير ، وإنما كان رجل وزارة وسياسة يرقب
الحوادث من كئيب ويعمل على سياستها حتى إذا رآها جمحت
بالبلاد مولية انزوى في ضيعته وكان أقلهم تبعة .

اجتهد البارودي في إصلاح « الجهادية » المختلة فطلب
إلى رئيس الوزارة رياض باشا زيادة مرتبات الضباط والعساكر
وتعديل النظم والقوانين العسكرية ، وقع الخديوى توفيق
على هذا الطلب في ١٢ أبريل سنة ١٨٨١ ففرح الناس وأقام محمود

سامى احتفالا دعا اليه النظار والمفتشين وكان يوما عظيما خطب فيه رياض ومحمود سامى وأحمد عرابى وأثنوا على الخديوى .

وفى ٢٥ يولييه من هذه السنة بينما كان الخديوى مصيفا في الاسكندرية صدمت عربة أحد التجار جنديا فقتل لساعته فحمله رفقاؤه الى سراى رأس التين وطلبوا الى الخديوى النظر في أمره فهاجمه ذلك وأمر بعقد مجلس حربى حكم عليهم بالأشغال الشاقة أو بالنفى الى السودان فشكا عبد العال حلمى أميرالائى السودانية من قسوة الحكم وعرض محمود سامى تلك الشكوى على الخديوى فشق ذلك عليه واعتقد أن محمود سامى كان يعمل باتفاق مع العرابين فدعا فى الحال النظار من القاهرة الى الاسكندرية وقدم البارودى استعفاءه وعين مكانه داود يكن ابن عم الخديوى .

والراجح أن الذى دفع محمود سامى الى عرض هذه الشكوى هو اعتقاده عدالتها ولكن يظهر أن ذوى الأغراض ألقوا من الدسائس فى حقه عند الخديوى ، أشار الى ذلك بقوله :

نقموا على حميتى فتألبوا	حزبا على وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم فلما صادفوا	سمعا يميل الى الملام توسعوا
لا عيب فى سوى حمية ماجد	والسيف يغلبه المضاء فيقطع

ويقال إن هذا مبدأ العداوة بين الخديوى ومحمود سامي
ومبدأ التحالف بين عرابي ومحمود سامي .

ثم عاد النظر الى القاهرة وانتظمت الأمور في الظاهر ،
وعاد اليها الخديوى في شهر سبتمبر وسرعان ما أصدر داود يكن
أمرًا الى آلاى القلعة بالتوجه الى الاسكندرية وآلاى الاسكندرية
بالحضور الى العاصمة فتوجس عرابي خيفة وفهم أن المقصود
تفريق كائنتهم هو وأعوانه . روى محمود فهمى بالنص : « لما
استعفى محمود سامي من نظارة الجهادية وتوجه الى منزله في القاهرة
توجه اليه أحمد عرابي سرا في الليل وتعاهد معه على مساعدته
ومعاضدته ، هذا قول عرابي لى وإلا فأنا ما كنت أعرف هذا ،
ولما استوثق عرابي من معاضدة محمود سامي له ، عاد الى منزله
وتوجه في صباح ثانى يوم الى العباسية وأتى اليه طلبة عصمت
يبحث له ما وقع فيه نفاطب في الحال عرابي الآلايات في كونهم
يستعدون للحضور في ميدان عابدين » .

هذه الرواية من الأهمية بمكان لأن هذه الفترة أول عصر
الثورة ولا بد أن يكون عرابي قد استوثق أولا من تأييد محمود
سامي وبعض كبار الوطنيين له قبل كتابته الى الخديوى والى نظارة
الجهادية يخبرهم « ان الجيش سيحضر الى سراى عابدين بخصوص

طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد» فان هذه الطلبات أصبحت قومية لا محدودة كما كان الأمر من قبل، لذلك لقيت تأييدا من الشعب وبدأت الثورة التي ترمى الى الاصلاح العام .

اجتمعت الآلايات في عابدين، كما هو معلوم، في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وطلب عرابي باسم الجيش الذي هو قوة الأمة التنفيذية « إسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش » فتردد الحديوي ثم عين شريفا رئيس الوزارة مكان رياض الذي كان مكروها، ولم يقبل شريف إلا بعد أن تعهد له رؤساء الحزب العسكري باطاعة أوامره وقدم له عمدة البلاد ضمانا، ولما دعى محمود سامي لتقلد وزارة الجهادية أجاب « بأنه عقد النية على أن لا يتقلد خدمة من خدمات الحكومة ما دام لرجال العسكرية سلطان يعالو سلطان القانون » ولكنه قبل بعد إلحاح .

وقد اطلعنا على أوراق للرحوم الشيخ محمد عبده يعجب فيها من خطة شريف « الذي كان من مدبري الحركة » ولا شك أن القارئ يعجب أيضا من خطة محمود سامي المتناقضة في الظاهر، وأغلب ظني أن هذين الوزيرين، لاسيما محمود سامي، من المعتدلين الذين يعملون لمصالحة بلادهم ولكنهم يخشون دائما أن تغل يدهم سكرة العسكر أو أن تخرج الثورة من دائرتها السلمية القانونية في ظروف

دقيقة للغاية فيجد الخصم وسيلة للقضاء على نجاحها المبدئي خصوصا وأن المطالب الأساسية كانت أجبرت أو كادت ، وباستغلالها في الدائرة القانونية يمكن الاحتيال والوصول الى أبعد غاية : كان ماناف بطل البندقية وحاميها في الثورة الايطالية من أكبر أنصار هذه الفكرة .

وهذا هو السبب الذي من أجله ألح شريف ومحمود سامي على عرابي في السفر بالايه الى رأس الوادي في مديرية الشرقية وعلى عبد العال حلمي الى دمياط . ومن حسنات عرابي أنه أبي ان ينتقل قبل أن يصدر أمر بتشكيل مجلس النواب ، وكان الاحتفال بتوديعه فاتحة المظاهرات والاتصال بين عرابي والجمهور ، واشترك الجمهور في الثورة اشتراكا فعليا .

ولكن عرابي بعد استقراره في رأس الوادي شرع يحول في أنحاء المديرية ويخطب فيها فدعاه محمود سامي وجعله وكيلا لنظارة الجهادية .

وفي ٢٢ سبتمبر وافق الخديوي على القوانين العسكرية وفي ٤ أكتوبر اعتمد لائحة مجلس النواب الذي تم انتخاب أعضائه في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ وكان مؤلفا من اثنين وثمانين عضوا تحت رئاسة سلطان باشا ، وكان من الممكن

أن تسير الأمور بانتظام لو لم يكن أعداؤنا بمرصد يدسون بين هذا وذاك ، ويحرضون هذا على ذاك ، ويحركون المطامع والشهوات حتى وجدوا بفضل داء الشخصيات الذي ينغل في جسم الأمة فرجة توصلوا بها الى كبذ البلاد فطعنوها في الصميم .

وما وافق الحديوى توفيق من مبدأ الحركة الى منتهائها على جميع الاجراءات والمطالب إلا مكرها . كان للسراى حزب ، وكان العرابيون منقسمين الى متطرفين أمثال عرابى وطلبة وعبد العال وعبد الله نديم ، ومعتدلين أمثال عبد السلام المويلحى ومحمود سامى ، وشريف وغيرهم ، لذلك كان الخصم آمنا مطمئنا لم يزعجه انعقاد مجلس النواب لعلمه أن فرص الخلاف كثيرة وأنه سيعرف كيف يخلقها ويستفيد منها ويحول بين المصريين وبين التمتع بمجلس النواب الذى هو عمود الثورة السلمية المنظمة .

أرسلت إنجلترا وفرنسا فى ٧ يناير سنة ١٨٨٢ مذكرة ثنائية الى الحديوى تقولان فيها «أنهما موطنانه ومثبثانه على الأريكة الخديوية» ف وقعت هذه المذكرة فى القاهرة ، كما قال السير مولى ، كالقنبلة ، وكان الغرض منها خلق الفتن وتهيئة جو صالح للتدخل . وكان شريف باشا قدّم فى ٢ يناير سنة ١٨٨٢ الى مجلس النواب اللائحة الأساسية الجديدة التى أعدها له ، وبعد فحصها وقع

الخلاف بين النواب والنظار بشأن المواد المتعلقة بالميزانية وكان سلطان باشا وبعض النواب يؤيدون شريف فتدخل ويكلا فرنسا وانجلترا معارضين في حق مجلس النواب في تقرير الميزانية فكان تدخلهما مثيرا للشكوك داعيا لاستحكام الخلاف ، وانتهى الأمر باستعفاء شريف باشا وتأليف وزارة برياسة محمود سامي البارودي ، وتعيين أحمد عرابي وزيرا للجهادية فسر الحزب الوطني بهذا الانتصار ووردت التهنئات من كل صوب ، واعتبرت هذه أقل وزارة وطنية مصرية ينتمى رئيسها الى حزب الثورة .

ملك محمود سامي وقتئذ أعناق المطالب وكان مملكا على عرش القلوب ، وكان في بيته كوكب سعد ولكن الدهر ما لبث أن أطاع في جوانبه للنحس نحسا . على أن شاعرنا وهو البصير الهادئ الذكاء لم يكن ممن يلهيه سكر الانتصار عن الحقائق الراهنة ، واليك الدليل :

في يوم الأربعاء ٨ فبراير ذهب محمود سامي الى مجلس النواب ومعه اللائحة بعد أن وافق عليها مجلس النظار فقبول بالشكر والتبجيل ، ثم وقف محمود سامي خطيبا في المجلس فقال :

«أيها السادة النواب إنني سعيد الطالع بحضورى بينكم حاملا الى حضراتكم القانون الأساسى

«إلا أننى أعلم كما تعلمون أن مجرّد وضع القانون على أصول الحرية وقواعد العدالة لا يكفى فى وصولنا الى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم بل لا بد أن ينضم الى ذلك خلوص النية من كل واحد منكم فى المحافظة على حدود هذا القانون ودقة النظر فى الوقوف عندها بحيث تكون جميع الأعمال والأفكار منحصرة فى دوائرها . وقد قال عقلاء السياسيين ان الوصول الى هذا النوع من الكمال أعنى حصر جزئيات الأعمال ووكلياتها فى دائرة القانون إنما ينال بعد العناء وطول التجارب ولكننى لا أعد هذا صعبا عليكم .

«وفى أملى أنكم ستحققون ما يظنّ أحياء البلد فيكم عنده ما يتبدئون فى الأعمال المهمة التى تهيأتم الآن لمباشرتها بأن تستعملوا صادق النظر للوقوف على ما فيه خير بلادكم وتوجهوا الى ذلك ماضى الهمم حتى لا يضيع الزمن الطويل فى الحصول على فائدة قليلة وهذا لا يكون إلا بتخليص الأفكار وتمحيص الطوايا من شوائب النزعات الشخصية بأن نجعل الأعمال وقفا على المصالح العمومية التى نفعها فى الحقيقة عائد عليكم وعلى أبنائكم .

«إن التفات النظر الى الخصوصيات يبعث فى القلوب محاسنات ومناظرات تحمل على الخلاف الدائم وأنكم تعلمون أن الذين رقوا الى ذروة العز وأوج الشرف لم ينالوا ذلك إلا باخلاصهم

في طلب النفع العام فاعترف العالم بفضلهم وأجلتهم القلوب وأحلتهم
أعلى المنازل فثبتوا في مكانهم ما داموا بحلية الاخلاص . »

ثم ختم قائلا : « وأنحرما نتواصى به أن لا نجعل للتعصب
المشربي دخلا في الأعمال الوطنية التي كلفتكم البلاد أن تقوموا
بأدائها وأن تكون الوطنية الحقيقية هي الباعث القوي على كل فكر
والغاية القصوى من كل قول وعمل » .

هذه خطبة أخلق بها أن تكتب بماء الذهب فهي صحيحة
إخلاص في ساعة الخطر تشف عن جوى باطن وداء دخيل .

وسرعان ما سعت إنجلترا وفرنسا في خلق الارتباك وتعميد
الأمر للقضاء على الثورة والاستيلاء على مصر .

بلغ عرابي أن طائفة من ضباط الشركس يعملون على الكيد
له فعقد مجلسا حربيا وقرّر نفيهم الى الأقطار السودانية فعارض
الحديوي وتصلب عرابي وكان هذا مبدأ دخول الثورة السلمية
في طريق العنف والارتباك والاضطراب التي لعبت إنجلترا تحت
ستارها دورا كبيرا ختمته بمأساة الاسكندرية : وسعت إنجلترا
الخلاف بين الحديوي والعرايين فدعا الحديوي قنصلي إنجلترا
وفرنسا وقال لهما ان حياة الأوربيين في خطر فانزعج القنصلان وذهبا

الى رئيس الوزارة محمود سامى وناظر الحربية أحمد عرابى فأكدوا
لها أن لا خوف من ذلك .

فى هذه الساعة انفلت « عيار » الثورة وجمحت الحوادث
عجلى ، وكثرت المجالس الليلية والاجتماعات وظن الناس الظنون .
وبينما كان بعضهم يعمل على رقع الخرق قبل أن يتسع وردت
أنباء مجئ الأساطيل الى المياه المصرية ، وإرسال الدولتين بلاغا
آخر بالاتحاد مع سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، تطلبان فيه
إسقاط الوزارة وإخراج عرابى من القطر المصرى فلم تقبله الوزارة
وقبله الخديوى الذى كان جل اعتماده على انجلترا ، وبناء عليه
استعفت الوزارة ، وكان ذلك فى ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢

يظهر أن محمود سامى أحس وقتئذ الخطر الذى يهدد البلاد
وعجزه عن تقويم الأمور فعاد الى ضيعته وبقى فيها حتى دعاه عرابى
الى قيادة فرقة الصالحية فى الحرب التى أرغمت انجلترا البلاد عليها .
ولا ريب أن البارودى رجع الى مزارعه مترع القلب بالأسى ،
فلم رأى خلاء ومنظرا هتف بالشعر ليسرى عن نفسه . ولعله
نظم فى هذه الفترة القصيدة التى تقتطف منها ما يأتى :

كنا نود انقلابا نستريح به

حتى اذا تم ساءتنا مصائر

فالقلب مضطرب فيما يحاوله
 والعقل مختبل مما يحاذره
 ان دام هذا أضاع الرشد كافله
 فيما أرى وأطاع النغي زاجره
 تنكرت مصر بعد العرف واضطربت
 قسواعد الملك حتى ريع طائره
 فأهمل الأرض جرى الظلم حارثها
 واسترجع المال خوف العدم تاجره
 واستحكم الهول حتى ما يبيت قتي
 في جوشن الليل إلا وهو ساهره
 انى أرى أنفسا ضاقت بما حملت
 وسوف يشهر حد السيف شاهره
 شهران أو بعض شهران هي احتدمت
 وفي الحديد ما تغنى فواقره
 فان أصبت فعن رأى ملكك به
 علم الغيوب ورأى المرء ناظره
 كان الرومان يسمون الشاعر (Vates) وهو الذى يملك بالرأى
 علم الغيوب ، وقد يتفق ذلك كثيرا للشعراء لما امتازوا به من

فطنة والهام ، وهذا ما حدث للبارودى فانه كان ينصح مواطنيه بالعمل على اجتناب الحرب وان كان يعلم علم اليقين ان البلاد مدفوعة اليها وانه لاينفع الحذر، وقد أجاد البارودى فى البيت الثانى تصوير هذه الحالة النفسية كما أجاد تصوير نفسيته حين جاءه وهو فى سيلان خبر العفو عنه فقال :

أحس فى قلبى ديب المنى والمخ الشبهة فى خاطرى

هذان البيتان من أدق الشعر، وهما خير ما تخطر من غمام واحد.

ثم انظر من أى بحر يغترف حين يقول بعد انتهاء الحرب وان

كان الديوان خلوا من أية اشارة الى موضوع الأبيات :

نصحت فكذبتم فلما أتى الردى عمدتم لتصديقى وقد قضى الأمر

فلم يبق فى ايديكم غير حسرة ولم يبق منى غير ما عافه الصدر

بجاء الذى كنتم تخافون شره وزال الذى لم يبق من بعده شعر

هذا شعر ينضح بمرارة العيش التى يقاسمها مغترب فى منفاه

بعد أن قضى الأمر وضاعت الديار، ومن يكاسة البارودى وصدق

وطنيته أنه لم يطعن الثورة فى ظهورها بعد فشلها كما فعل الكثيرون،

ولم يأس على المال ومتاع الدنيا وظل كريم العنصر :

لم أقترف زلة تقضى على بما

أصبحت فيه فماذا الويل والحرب

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني
 ذنب أدان به ظالما واغترب
 فلا يظن بي الحساد مندمة
 فأنني صابر في الله محتسب
 أثريت مجدا فلم أعبأ بما سلبت
 أيدي الحوادث مني فهو مكتسب
 لا يخفض البؤس نفسا وهي عالية
 ولا يشيد بذكر الحامل النشب
 ألت تحس كأن هذا الشعر من قول المتنبي أو أبي العلاء
 وأن روح الشاعر «تطورت» في كهولته، ثم انظر الى الحكمة في شعر
 صباه وقد كانت بنت الذكاء والتحصيل، وانظر اليها الآن وقد
 شيب الدهر فوديتها وصارت بنت التجارب والألم .
 فانت ترى من كل ما تقدم أن البارودي لعب في الثورة العرابية
 دورا كبيرا تصحبه الحكمة والاعتدال في معظم أطوارها، وترك
 حبلها على غاربها حين أحس ريحا عاتية تسوق البلاد الى الحرب،
 ثم رجع الى الصف فكم توقعه المقادير، وذهب الى منفاه الذي
 جمع الأسى واقتدح زناد فكره فقال شعرا كثيرا أعاد به الى البلاد
 عصر الأدب الأزهر .

الفصل الخامس

المنفى

أرأيت مخضرا من الروض كان مسرحا للشباب ترف عليه
الغضارة والنضارة، وكان ساكنوه يقامرون الدهر فوق ذلك
البساط الأخضر، والدهر يلهمهم بعاجل الربح عن آجل الخسران،
حتى قمرهم بغداة، ودالت دولة السرور، وهبت النكباء، وغاض
ماء النعيم، وطوى البساط، وخرج كل منهم خاشعا وسليبا .

كان محمود سامى من أولئك النفر الذين تبسطوا على لذات
الشباب زمانا بين الجزيرة والروضة، وذاقوا حلاوة المجد وهم فى ضحوة
العمر، ثم دفعهم الطامح فقدّموا الراحة والرفه والثروة والجاه مهرا
للحرية والعلواء .

أجل، فقد محمود سامى كل شىء إلا الشرف والكبرياء،
ومكث فى منفاه سبعة عشر عاما كاملة أفنى فيها كهولته بين تباريح
وعبرات ولوعة وحنين .

نكب فى الثورة حين ختله الدهر وألقى ورقة رابحة اجتاحت
المال والبلاد فكانت كهولته كلها ليلة داجية، وكان كبلبل

الظالماء يردف تغريدا بتغريدا ، ويقول شعرا هو أنس المحزون ، وعزراء
الشكلى ، وسلوة العاشق ، شعرا يلهم الصبر على المكاره ، والجلد على
الشدائد ، والأمل فى الله . وهو القائل :

فإن أكن جردت من ثروتى ففضل ربى حلية العاقل

ولقد كانت الأيام التى ختمت بها الثورة وسبقت منقاه مأساة
تتصدع منها كبدا الحار مملوءة بالذكريات المحزنات التى تهيج فى سماء
الفكر كأنها أغربة سحيم .

وحسبك أن تذكر أن بعض المصريين رحبوا جهلا أو انخداعا
« بدخول الفاتحين » ، وأن حب الانتقام دفع بعض الكبراء الى
ارسال الخدم الشرکس وغيرهم ليهينوا ويزعجوا زعماء الثورة فى سجونهم
صباح مساء ، ولعل البارودى أشار الى ذلك فى قوله وهو بمنقاه :

وما أنا بالمغلوب دون مرامه ولكنه قد يخذل المرء جهده
أبى الدهر إلا أن يسود وضيعه ويملك أعناق المطالب وغده
تداعت لدرك الثأر فىنا ثعاله ونامت على طول الوتيرة أسده

وكان حکم على رؤساء الثورة بالاعدام فقيض الله لهم بلنت الذى
أرسل برودلى ونابير للدفاع عنهم فاستبدل بالحكم فى ٣ ديسمبر
سنة ١٨٨٢ النفى المؤبد .

ولا أخاله إلا مشيرا الى ذلك بهذين البيتين المنفردين اللذين
يقومان مقام لوحة مصورة :

ألا قل لقوم شامتين تربصوا تهزم شر بالمنية كارث
أرى سترخطب قد ترفع وانبرت تلوح لهم منه وجوه الحوادث

وفي ٢٨ ديسمبر رحل قاصدا سيلان ، ومعه صحبه ، فدخلوا
ميناءها كولومبو في ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ ، وهناك أقاموا بعد أن
ساخت من العمر خمسة وأربعين عاما ، وقد وصف شاعرنا الفراق
بقصيدة أحلى من تعريسة الفجر ، قال :

محا البين ما أبقيت عيون المها مني
فشبت ولم أقض اللبانة من سنى
عناء وياس واشتياق وغربة
ألا شد ما ألقاه فى الدهر من غبن
فان أك فارقت الديار فلى بها
فؤاد أضلته عيون المها عنى
بعثت به يوم النوى إثر لحظة
فاوقعه المقدار فى شرك الحسن
فهمل من فنى فى الدهر يجمع بيننا
فليس كلانا عن أخيه بمستغن

ولما وقفنا للوداع وأسبلت
 مدامعنا فوق الترائب كالملز
 أهبت بصبري أن يعود فعزني
 وناديت حلمي أن يثوب فلم يغن
 وما هي إلا خطرة ثم أقلعت
 بنا عن شطوط الحى أجنحة السفن
 فكم مهجة من زفرة الوجد في لظى
 وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن
 وما كنت جربت النوى قبل هذه
 فلما دهنتي كدت أقضى من الحزن
 ولكني راجعت حلمي وردني
 الى الحزم رأى لا يحوم على أفن
 ولولا بنيات وشيب عواطل
 لما قرعت نفسي على فائت سنى

هذا شعر يمتزج بالروح رقة ، وعندى أن أجود قصائد
 البارودي ثلاث : هذه القصيدة التي أخلق بها أن تسمى قصيدة
 ”محا البين“ كما يقولون ”قفانبك“ و ”خفف الوطء“ وقصيدته

الغزلية «هل من فتى ينشد قلبي معي» ، وقصيدته التي قالها
في الجزيرة بعد عودته من منفاه :

هل بالحى عن سرير الملك من يزع

هيات قد ذهب المتبوع والتبع

ومن العجيب أنك لا تجد في هذه القصائد معنى جديدا
ولا أثرا من آثار المبالغة والغلو، وإنما هي عرائس مجلوة وسمها الله
بسم الجمال فغنيت عن التزييق الكاذب ، إنما هي تصوير
حالات نفسية ، ووجدان ، وعواطف قد يخيّل اليك لأوّل وهلة
أنه خال من الدقة وأنه من «فرشة» المصوّر لا من ريشته . ولكن
حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق فان هذا الشعر الحى من التصوير
الصادق الذى يلعب بالنفس ويدخل على القلب بلا استئذان .

كلنا يعرف قول المرحوم اسماعيل باشا صبرى فى الفراق :

هل عند ذاك السرب أنا بعده فى الحى من آماقنا نتدفق

أطرب كما قد لهذا البيت لأن فيه معنى جديدا ، وهو من
الغلو المستعذب ، ولكننى لا أأنذقه لأنه لا يحرك عاطفتى ، ولأنه
يخاطب العقل قبل القلب .

ولقد كان فراق البارودى مظلما ، وكان منفاه مظلما اذ نعى اليه

زوجه واصدقاؤه واحدا بعد واحد ، ورأى الشقاق دب بين رؤساء

الثورة في المنفى فغادرهم عام ١٨٩٠ الى مدينة كندى في جزيرة سرنديب (سيلان)، وكان هذه الظلمة وقفت في عينيه هناك وتجمدت فانقلب حسير الطرف في أواخر سني منفاه، ثم عاد الى مصر ففقد ابنتيه ، فialها ظلمة أخذت تنزل في عينيه شيئاً فشيئاً من أول كهولته نزول الليل في الهوة العميقة حتى اتصلت بظلام القبر .

وقد ماتت حليته سنة ١٣٠٢ هـ أو سنة ١٨٨٥ م فرثاها بقصيدة من أجود شعره جاء فيها :

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي	تقوى على رد الحبيب الغادى
يادهر فيم بفعنى بحليمة	كانت خلاصة عدتى وعتادى
ان كنت لم ترحم ضناى لبعدها	أفلا رحمت من الأسى أولادى
ومن البلية أن يسام أخو الأسى	رعى التجالد وهو غير جماد
هيات بعدك أن تقر جوانحى	أسفا لبعذك أو يلين مهادى
ولمى عليك مصاحب لمسيرتى	والدمع فيك ملازم لو سادى
فاذا انتهت فأنت أول ذكرتى	واذا أويت فأنت آخر زادى

هذه القصيدة من النوع الذى يسميه الأفرنج (Poies intime)

وهو شعر الحياة المنزلية الباطنة ، وإن اشارة البارودي الى الدمع الذى سيلازم وسادته بعد فرقتها لأفضل عندى على بساطتها من ذلك الجبال وكسوف الشمس جزعا ! .

نظم البارودى أكثر شعر المنفى فى مدينة كندى حيث أقام عشرة أعوام ووجد منظرا طبيعيا من أبهى مناظر الدنيا . وصف المرحوم عرابى باشا فى مذكراته هذه المدينة ، قال : «وفى سنة ١٨٩٢ انتقلنا الى مدينة كندى عاصمة جزيرة سيلان للاقامة فيها حيث وجدنا مناخها فى زمن الربيع جميلا ، وكان قد سبقنا اليها بالاقامة محمود باشا سامى ويعقوب باشا سامى وطلبه باشا عصمت .

«ومدينة كندى كائنة فى وادى ثلاث شعب بين ثلاثة جبال ، وفيها بيت للحاكم ومحكمة نظامية فى بيت ملوك الشنجلير ، وفيها بركة عظيمة طولها ميل وعرضها من ٢٠٠ الى ٤٠٠ متر تنصب فيها مجارى السيل من رؤس الجبال ، وعليها حاجز من الشمال وقنطرة بباب لصرف المياه الزائدة عن منسوبها ، وعلى حافتها أشجار السيجو والمنيجو والدوم وجوز الهند ، وهى محل التزهة العمومية .

«وفوق الجبل خزان للمياه المنبجسة من قمته طولها نصف ميل وعرضه ١٠٠ متر وعليه سد عظيم ، وفى جانبه الجنوبى جدول فوق سطح الخزان تنصرف فيه المياه الزائدة وتمتد منه المواسير الموصلة الى أعلى نقطة من بيوت المدينة .

«وهناك متنزه عظيم يقال له جنينة برادينيا على نهر برادينيا مساحتها نحو ٦٠٠ فدان وفيها من جميع أنواع الشجر وكل شجرة مكتوب على لوحة بجانبها اسمها واسم بلادها .

وفي كندى نحو ٢٠٠٠٠ منهم ١٠٠٠٠ من المسلمين» .
ولا ريب أن سكنى البارودى في هذه المدينة التي جمعت بين جمال المنظر وجلاله في السهل والجبل قد أثرت في نفس الشاعر وجعلته يلهمج بذكر الطبيعة لطيج الحمام بهديله ، وأجد له طيب المكان وحسنه منى فتمنى مصر :

يا حبذا جرعة من ماء محنية وضجعة فوق برد الرمل بالقاع
ونسمة كشميم الخلد قد حملت ريا الأزاهر من ميث وأجراع
ياهل أرائى بذاك الحى مجتمعا بأهل ودى من قومي وأشياعى

وقال من قصيدة أخرى يتشوق :

ردّوا على الصبا من عصرى الخالى وهل يعود سواد اللمة البالى
لم يدر من بات مسرورا بلذته أنى بنار الأسى من هجره صالى
يا غاضبين علينا هل الى عدة بالوصل يوم أناغى فيه إقبالى
غبتم فأظلم يومى بعد فرقتكم وساء صنع الليالى بعد اجمال
فاليوم لا رسنى طوع القياد ولا قلبى الى زهرة الدنيا بميال
أبيت منفردا فى رأس شاهقة مثل القطامى فوق المربأ العالى

وقال من قصيدة « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » :

أدعو الى الدار بالسقيا وبي ظمأ أحق بالرى لكنى أخو كرم
منازل لهاها بين جانحتى وديعة سرها لم يتصل بفعى
إذا تنسمت منها نفحة لعبت بى الصباة لعب الريح بالعلم

لا شك أن الشاعر فى البيت الثانى يشير الى حب مكتم
فتق قلبه فى شباب عليه نضرة ونعيم كما يفتق برد الندى وردة الروض.
النضير، فسار شعره مسير النسيم فى الجنان يضوع برياها . والراجح
أن حبه لم يزد عن ذلك الحب الذى قال عنه "لامرتين" أنه نشأ
عن نظرة حزت فى كبده فشب وكبر وهى باقية فيها كالمديّة التى
يتركها عابر سبيل فى جذع الشجرة، فما كان أشدّ لوعته، وما كان
أكبر ألمه

فلا تسألنى عن هواى فانى

وربك أدرى كيف زلت بى النعل

فأهى إلا أن نظرت بفجاءة

(بحلوان) حيث أنهار وانعقد الرمل

الى نسوة مثل الجمان تناسقت

فرائده حسنا وألفه الشمل.

تكنفن تمثالا من الحسن رائعا
 يحقّ جنونا عند رؤيته العقل
 فكان الذي لولاه ما درت هائما
 أرود الفيافي لا صديق ولا خل
 قد تكون حلوان أصل حب ذلك الرجل العفيف النفس ،
 وقد يكون كل حبه في تلك النظرة أو ذكراها التي عاودته وهاجرت
 بلباله وشجنه وحنينه في سرنديب فقال :
 أبيت حزيناً في سرنديب ساهرا
 طوال الليالي والخليون هجد
 اذا خطرت من نحو (حلوان) نسمة
 نزت بين قلبي شعلة نتوقد
 وهيئات ما بعد الشبية موسم
 يطيب ولا بعد (الجزيرة) معهد
 شباب واخوان رزئت ودادهم
 وكل امرئ في الدهر يشقى ويسعد
 هذه الأبيات توازن أرقى أبيات الأغاني أو ديوان الحماسة بعلو
 النفس الشعري ، وصدق النزعة ، وصفاء الروح ، وقل أن يوفق لمثلها
 شاعر عصرى يعيش في جو المدينة الحديثة الذي يتعذر على روح

الشاعر أن تنطلق فيه حرة بريئة من كل صنعة . ومن أرق شعره
في الغزل قصيدته التي أولها :

غلب الوجد عليه فبكى وتولى الصبر عنه فشكا
والقصيدة مطلعها :

لوى جيده وانصرف فاضره لو عطف

كان الحب من العواطف التي تتجاذب نفسه ، ولا يظن أحد
أن البارودي مازال مضطربا في أماله حتى استقر في منفاه فان نفسه
من النفوس الكبيرة الوثابة التي لا يقعد بها يأس أو جزع ، والتي
يتعب في مرادها الجسم لا سيما اذا كان أسيرا :

عفاء على الدنيا اذا المرء لم يعيش بها بطلا يحى الحقيقة شدة
وانى أمرؤ لا أستكين اصوله وان شد ساقى دون مسعاى قتله
أبت لى حمل الضيم نفس أبية وقلب اذا سم الأذى شب وقده

ثم انظر كيف تفتح همته التي لا تهدأ باب الأمل المغلق حين
يقول فى نفس القصيدة :

ولا بد من يوم تلاعب بالقنا أسود الوغى فيه وتمرح جرده
قلوب الرجال المستبدة أكله وفيض الدماء المستهلة ورده
أحمل صدر المحمل فيه سريرة تعد لأمر لا يحاول رده

في هذه الأبيات صور البارودي نفسه التي لا ينال منها أسر
يعانيه ، بل ولا ضعف لحق بجسمه ولا مشيب :

اني وإن كانت الأيام قد أخذت

مني وأخني على الضعف والشمط

فقد أذود السبتي عن فريسته

وأبغى البطل الحامي فاخبط

وقد يتعجب القارئ من قوله أيضا في قصيدة :

تالله أهدأ أو تقوم قيامة فيها الدماء على الدماء تراق

ولكن العجب لا يلبث أن يزول اذا تذكرنا أن النفوس الجبار

لا تهدأ لها ثائرة إلا اذا جاءها الموت وأنام أصحابها بعنف فناموا .

وهناك عاطفة أخرى تجلت في شعر البارودي ، ولا شك أن

المنفى كان سببا في تقويتها وتثبيتها ، هي العاطفة الدينية . كان

شاعرنا في سرنديب يعلم كثيرا من المسلمين القراءة والكتابة ويعظ

ويخطب في الجوامع ، هناك نظم قصيدة ”كشف الغمة“ التي

توسل بها الى الله ليغفو عنه ويفرج كربه ، ونظم قصيدة أخرى

مدح فيها الرسول ومما قاله :

أنا الذي بت من وجدى بروضته

أحن شوقا كطير البانة الهــرج

هاجت بذكراه نفسى فاكتست ولها

وأى صب بذكر الشوق لم يهيج

ويظهر أن العاطفة الدينية تمكنت من نفسه حتى دفعته الى

التفكير فى أمر الوجود وحقيقة الكون ، ساعدها على ذلك تقلب

الدنيا على عينيه ، قال من قصيدة :

سل الفلك الدوار ان كان ينطق وكيف يحير القول أنحرس مطرق

نسائله عن شأنه وهو صامت وينخبهر ما فى نفسه وهو مطبق

فلا سره يبدو ولا نحن نرعى ولا شأنه يدنو ولا نحن نلحق

ومن بديع التصوير :

فضاء يرد العين حسمى ومسرح يقص جناح الفكر وهو محلق

ولا يفوتنا أن نقول ان من دقق النظر فى شعر البارودى وجد

فيه نزعة المصوّر الماهر . أنظر الى قوله فى الشيب :

أخلق الشيب جدتى وكسانى خلعة منه رثة الجلباب

ولوى شعر حاجبي على عي فى حتى أظل كالهـباب

وقوله :

ورب يوم طويل العمر قصره جرى السوابق والوخادة النشط

ترى به القوم صرعى لأحراك بهم كأنهم من عتيق الخمر قد سقطوا

وللفواخت في أفنانها هزج قدماج من الحنن السهل والفرط
خضر الخناجن والأطواق تحسبها أطفال ملك لها من سندس ققط

ومن أراد الكثير فليتصفح ديوانه فكله غرر وآيات وعبر .

وقد عاد البارودي من منفاه الى مصر سنة ١٩٠٠ ويقال إن
المرحوم الشيخ محمد عبده هو الذي توسط له في العفو عند الخديوى ،
وسنتكلم في الفصل الآتى عن شعره في آخر أيامه بعد أن دار الفلك
دورته وتبدلت الحال حالا .

الفصل الثاني

آخر أيامه

قضى البارودى فى مصر أربعة أعوام من سنة ١٩٠٠ لغاية سنة ١٩٠٤ أو من ٦ جمادى الأولى سنة ١٣١٨ لغاية ٦ شوال سنة ١٣٢٢ ، وكان انحداره فى آخر سنتيه من منقاه الى القبر مثل انحدار الشمس عند المغيب فى رءوس الجبال وقد أعارتها الطبيعة كل ما حوته من روعة وجلال .

ويخيل الى أن نفسه الواسعة ذات الطول والعرض كانت مملوءة بالسكون المهيّب الذى يحيط بأعلى الذرى ، وكان الشاعر يشرف منها على الماضى الممتد فلا يرى حوله من كل النواحي إلا خرائب وطلولا .

ولا يغرنك ما قاله متغزلا حين « أطل على ربوع مصر وسر
برؤية أهلها »

أبابل رأى العين أم هذه مصر

فانى أرى فيها عيونا هى السحر

نواعس أيقظن الهوى بلوا حظ
تدين لها بالفتكة البيض والسمر
فان يك موسى أبطل السحر مرة
فذلك عصر المعجزات وذا عصر
فأى فسؤاد لا يذوب صباية
ومزنة عين لا يصوب لها قطر
بنفسى وانت عزت على ربيعة
من العين في أجفان مقلتها فتر
فتاة يرف البدر تحت قناعها
ويخطط في أبرادها الغصن النضر
تريك جمان القطر في أخوانة
مفلجة الأطراف قيل لها ثغر

والقصيدة كلها على هذا النمط خالية من الروح الشعرية التي
امتاز بها البارودي ، وهي من الشعر الفاتر الذي يتخض عنه
التكلف ، وكذلك شأن القصيدة الأخرى التي قالها شاكر
الحديدو عباس على تعطفاته :

عباس يا خير الملوكة عدالة وأجل من نطق امرؤ بثنائه
أوليتني منك الرضا وجلوت لي وجهها قرأت البشر في أثنائه

وقد اشتهر البيت الأخير من هذه القصيدة :

لا غرو إن جمع المحامد يافعا وسمما بهمته على نظرائه
فالعين وهى صغيرة فى حجمها تسع الفضاء بأرضه وسمائه

على أن هذا البيت ان هو إلا أثر من آثار الصنعة العالية : فإما أن تكون الروح الشعرية نضرب معينها فى آخر العمر فلم تبق للشاعر إلا صنعته يحتال بها على صوغ القريض ويستتر بها ما لحق شاعريته من ضعف أو وهن كما تستر الحسناء آثار المشيب فى غضون الوجه تحت الألوان والطلاء ، وإما أن تكون شاعرية الرجل ما زالت فى نضرتها ولكنها عصته حين دعاها لاسمها وان البارودى قال ما قاله قياما بالواجب نحو ملك عفا عنه ثم أصدر أمره « بتمتعه بالحقوق المدنية » وبلاد رآها بعد أن عاش غربيا عنها سبعة عشر عاما .

وهذا الفرض الثانى عندى أقرب الى الصحة لأن البارودى كان شاعرا مطبوعا غذى بآداب العرب والفرس والترك ، ومثل هذا الطبع يخيل اليك أحيانا أن العمر يحففه ولكنه لا يلبث أن يتفجر بالماء الزلال .

يدل على ذلك قصيدته العينية التى ثبت لنا أن البارودى قالها فى الجزيرة بعد رجوعه من منفاه إذ كتب ناقد المنار ولعله المرحوم

الأديب السيد حسين رضا — في عدد ٧ يناير سنة ١٩٠٥ فصلا
يتبين منه أن الكاتب كان من الصقي الناس بالبارودي في آخر أيامه ،
روى الكاتب : « ومر بقصر الجزيرة بعد عودته من سيلان
فتذكر أيام اسماعيل ونظم معتبرا ومذكرا » :

هل بالحلمى عن سرير الملك من يزع
هيمات قد ذهب المتبوع والتبع
همدى (الجزيرة) فانظر هل ترى أحدا
ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة
للك منها لوفد العز مرتبم
فلا عجيب يرد القول عن نبأ
ولا سميع إذا ناديت يستمع
كانت منازل أملاك إذا صدعوا
بالأمر كادت قلوب الناس تنصدع
عاثوا بها حقبة حتى إذا نهضت
طير الحوادث من أوكارها وقعوا
لو أنهم علموا مقسدار ما فغرت
به الحوادث ما شادوا ولا رفعوا

دارت عليهم رحي الأيام فانشعبوا
 أيدي سببا وتخلت عنهم الشيع
 كانت لهم عصب يستدفعون بها
 كيد العدو فما ضرّوا ولا نفّعوا
 أين المعاقل بل أين الجحافل بل
 أين المناصل والخطية الشرع
 لاشيء يدفع كيد الدهر إن عصفت
 أحداثه أو يقي من شر ما يقع
 زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم
 ولا تعطلت الأعياد والجمع
 والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر
 وإنما صفوه بين الوري لمع
 لو كان للمرء فكر في عواقبه
 ما شأن أخلاقه حرص ولا طبع
 وكيف يدرك ما في الغيب من حدث
 من لم يزل بغرور العيش ينخدع
 دهر يغتر وآمال تسرّ وأعد
 حار تمرّ وأيام لها خدع

يسمى الفتى لأمر قد تضرّ به
وليس يعلم ما يأتي وما يدع
يا أيها السادر المزور من صلف
مهلا فانك بالأيام منخدع
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
لعل قلبك بالإيمان ينتفع
إن الحياة لشوب سوف تخلعه
وكل ثوب إذا مارت ينخلع

وقد علق كاتب المنار على القصيدة قائلا : «فهذه القصيدة
من آخر ما نظم ، وفيها من آيات النذر للغرورين بكثرة المال والدر ،
تلك قصيدة من أجود شعر البارودي ، وهي دمة وفاء على
أيام اسماعيل التي كانت أيام صباه ، وهي من الشعر الحى الذى
يستمد قوته من الذكرى ، وهي بكاء على الحال التي آلت إليها
البلاد بعد عودته إليها ورؤيته المحتل ضاربا بجرانه في نواحيها ،
ولا ريب أن الألم الصامت كان فى فؤاده كالجمر تحت الرماد فلم
يصرح عنه مقاله وأشدّ الألم ما كان مكتوما .

وتدل قصيدته فى الجزيرة على أن الرجل كان ثاقب الفكر
لاتعوقه الظواهر عن رؤية أبعد البواطن ، فلم تغره الرفاهية المادية

التي خرت بسبب العربيين بعد رجوعهم من المنفى فتوهموا أن
أغراضهم تحققت ، ولم تغرّه مظاهر العدل المنظم في الظاهر ،
فأزاح الستار عن ذلك الظلم الأجنبي المنظم في الباطن الذي
يضمّل بجانبه كل ظلم .

من ذلك نفهم كيف كان الشاعر بالأمس يبكي من اسماعيل
فأصبح يبكي عليه .

وكأنى بالشاعر أحس دنو الأجل فاستسلم للقضاء في هذه
القصيدة ، ولم تحفزه همته الى الفخر ومغالبة الأقدار ، ورثى نفسه
فيمن رثى حين قال :

زأوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع

فهذا البيت من خير ما قيل في وصف خروج الانسان من هذه
الحياة الدنيا دون أن يحس الكون بفقده مهما كان عظيما ، قال
فيكتور هوجو في هذا المعنى بيتا يشبه هذا البيت :

Je m'en irai bientôt au milieu de la fête

Sans que rien manque au monde immense et radieux,

وقد تكون هذه القصيدة في جملتها أثرا من آثار التأمل الذي
يعترى الانسان عند تقاص الأيام وتقلب الدنيا ويدفعه الى عرض

الماضي في صفحة الفكر فإذا بكى عليه كان بكاءه المتر عصاره
التجارب والألم .

كان الأستاذ خليل مطران يختلف إليه كثيرا في آخر أيامه ،
ومما قاله عنه في فصل كتبه : « إن هذا الوزير الذي اقتدح زناد
تلك الهمة وشبت بعد استقالته تلك الفتنة المستطيرة لم يكن مع
شجاعته وإقدامه اللذين بلغ بهما أقصى مبالغتهما في مواطن القتال
إلا رجل سكيمة ووداعة وحلم ، وقلمًا كان رجل أرق منه قلبا على
ذويه وأحفظ عهدا لمحبيه ، وأعلى إصابته بكريميته هي التي قلصت
من كبده وأودت بجسده . ثم إن العارف بحوادث حياته لا يكاد
يصدق أنه هو الرجل الذي كان ديدنه في سنواته الأخيرة أن يجمع
أطفاله وهم غلامان وأربع فتيات فيجعل لهم مكانا خصيصا من
البيت لتلقى العلوم واللغات بضروبها على أساتذة يحضرون في مواعيد
كأنهم في مدرسة قانونية فيرعى سيرهم كل يوم ثم يمتحنهم كل أسبوع
مرة ثم يمتحنهم آخر كل شهر ويوزع عليهم المكافآت .

« على أن هذا البر إنما كان إحدى شتائله وفضائله فإن أريد
بعض التعداد فالجودة مع الجود ، واليكياسة مع لطف الحس ،
والصفح مع المقدرة ، والإيناس مع علو النفس وشرف الطبع » .

نضيف الى ذلك أن البارودى تمكن بفضل جدّه وكده من تجديد جزء عظيم من ثروته تركه لأهله وذويه فكان طول حياته مثال الهمة العليا ، ولم يمنعه قول الشعر من قيادة الجحافل ورياسة الوزارة فى أخرج الأوقات والعمل .

وكل ما يعاب على الرجل أنه لم يوفق فى حياته السياسية كما وفق فى شعره ، ومهما كان من الأمر فقد كانت حياة هذا الرجل صحيفة كبرى من التاريخ المصرى تشهد له بحسن الطوية ، وصدق العزيمة ، وكراهية الظلم ، والاعتدال ، والروية ، والأناة .

وهو مؤسس دولة الشعر التى يحمل لواءها اليوم شوقى ومطران وحافظ وآخرون بعد أن غادرهم شيخ الشعراء بعده المرحوم صبرى باشا الذى تنعاه اليوم الى الشعر كما تنعى فنى الجود الى الجود .

ولا أعرف رجلا كاخ الردى مثلما كاخ البارودى ، وطاعن خيلا من فوارسها الدهر مثلما طاعنها ، وخاض وقائع الحياة مثلما خاضها ، وقد كان خالق الرجل عظيما ، وذكاؤه عظيما ، وشعره عظيما فكان الثلاثة فى مستوى واحد .

وفى اعتقادى أن أكثر شعره ارتباطا بحياته شعر المنفى ، شعر العواطف ، شعر الوجدان ، شعر الألم .

وليس في هذا الشعر ما يبعث على اليأس والاستسلام ، أو يولد
خورا في العزيمة ، وإنما هو درس من دروس الشجاعة والصبر والجلد ،
درس من دروس الوفاء وعلو النفس وكرم العنصر ، فأخلق به أن
يكون أنشودة الصبي في مكتبته ، والناسك في صومعته ، والزارع
في مزرعته ، والوطني في جهاده .

وقد لبي دعوة ربه في ٦ شوال سنة ١٣٣٢ (ديسمبر سنة ١٩١٤)
فبكته مصر وبكاه الشعراء الذين وقفوا يوم الأربعين لدى قبره
«ونبهوا الأصدقاء النائمة حوله في بهو السكون الخالد» . وكان ذلك
يوما مشهودا لم يسبق مثله إلا للعرى ، ومن خير ما قيل فيه بل خير
ما نختم به هذا البحث قول مطران :

وما كان سجنك إلا قرارا	وقد تعب الجسد أن يسهر
ولا النفي إلا خلاء أعدت	به زمن الأدب الأزهر
ولا الشكل إلا لتأسي أساك	وتبكي بكاء ليوث الشرى
ولا الغض عما تراه العيون	إلا وقد ساء أن ينظرا
إذا وسع الكون فكر امرئ	فلا بأس بالطرف أن يحسرا
على الشمس أن تهدي المبصرين	وليس على الشمس أن تبصرا

الفصل السابع

مختارات

ننشر في هذا الباب ما نختاره من قصائد البارودي التي أشرنا
إلى أكثرها في أثناء البحث حتى تكون عند القارئ فكرة كاملة
عن الرجل وشعره، قال رحمه الله :

هل من قى ينشد قلبي معي	بين خدور العين بالأجرع
كان معي ثم دعاه الهوى	فتر بالحي ولم يرجع
فهل إذا ناديته باسمه	يفيق من سكرته أويحي
هيهات يلقي رشدا بعد ما	أغواه لحظ الرشأ الاتلع
فيادموع القطر سيلي دما	ويابنات الأيك نوحى معي
وأنت يانسمة وادي الغضا	صرى برياك على مربعي
وأنت يا عصافورة المنحنى	بالله غنى طربا وآسجعي
وأنت ياعين إذا لم تنفي	بذمة الدمع فلا تهجعي
صباية أغرت على الأسى	ودلت السهمد على مضجعي
ويلاه من نار الهوى إنما	لولا دموعي أحرقت أضلعي

أبيت أرعى النجم في سدفه	ضل بها الصبح فلم يطلع
لا أهتدى فيها الى حيلة	تقى حياتي من يدي مصرعى
طورا أدارى لوعتي بالمني	وتارة يغلبني مدمعي
فهل الى الأشواق من غاية	أم هل الى الأوطان من مرجع
لا تأس يا قلب على ما مضى	لا بد للحننة من مقطع

وقال يصف حرب سكان جزيرة كريد حين خرجوا عن الطاعة

سنة ١٨٦٥ ويتشوق الى مصر :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان	وهنا السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب	فوق المتالع والربى بجران
لا تستبين العين في ظلماته	إلا اشتعال أسنة الممران
نسرى به ما بين جلة فتنة	تسمو غواربها على الطوفان
في كل مرباة وكل ثنية	تهدار سامرة وعزف قيان
تستن عادية ويصهل أجرد	وتصيح أجراس ويهتف عانى
قوم أبى الشيطان إلا خسرم	قتسلوا من طاعة السلطان
ملؤا الفضاء فبين لناظر	غير التماع البيض والخرسان
فالبدرا كدر والسماء سريضة	والبحر أشكل والرماح دوان
والخيل واقفة على أرسائها	لطراد يوم كريمة ورهان
وضعوا السلاح الى الصباح وأقبلوا	يتكلمون بألسن النيران

حتى اذا ما الصبح أسفر وارتمت
 فاذا الجبال أسنة واذا الوها
 فتوجست فرط الركاب ولم تكن
 فزعت فرجعت الحنين وانما
 ذكرت مواردها بمصر وأين من
 والنفس لاهية وان هي صادفت
 فسقى السماء محلة ومقامة
 حتى تعود الأرض بعد ذبولها
 بلد خلعت به عذار شيبتي
 فصعيدها أحوى النبات وسرحها
 فارقتها طبا لما هو كائن
 حمل الزمان على ما لم أجنه
 نعموا على وقد فتكت شجاعتي
 فليهنأ الدهر الغيور برحلي
 فلمن رجعت فسوف أرجع واثقا
 صادقت بعض القوم حتى خانني
 زعم النصيحة بعد أن بلغت به
 فليجر بعد كما أراد بنفسه

عيناى بين ربي وبين مجان
 د أعنة والماء أحمر قاني
 لتهاب فامتنعت على الأرسان
 تخناتها شجن من الأشجان
 ماء بمصر منازل الرومان
 خلفا بأول صاحب ومكان
 في مصر كل مرنة مرنان
 شقى النماء كثيرة الألوان
 وطرحت في يمني الغرام عناني
 ألمى الفلال وزهرها متداني
 والمرء طوع تقلب الأزمان
 ان الأمائل عرضة الحدثان
 ان الشجاعة حلية الغتيان
 عن مصر ولتهدأ صروف زماني
 بالله أعلمت الزمان مكاني
 وحفظت منه مغيبه فرماني
 غشا وجاز الحق بالبهتان
 إن الشقى مطية الشيطان

وكذا اللئيم اذا أصاب كرامة
فليعلمن أخو الجهالة قصره
فلربما رجع الخسيس من الحصى
شرف خصصت به وأخطأ حاسدي
عادي الصديق ومال بالاخوان
عنى وان سبقت به قدمان
بالدرّ عند تراجع الميزان
مسعاته فهذى به وقالانى

وقال أيضا مجاريا قصيدة "أراك عصى الدمع شيمتك الصبر":

طربت وعادتني الخيلة والسكر
كأنى مخجور سرت بلسانه
صريع هوى يلوى بى الشوق كلما
اذا مال ميزان النهار رأيتنى
يقول أناس إنه السحر ضالة
فكيف يعيب الناس أمرى وليس لى
ولو كان مما يستطاع دفاعه
ولكنه الحب الذى لو تعلقت
على أننى كاتمت صدرى حرقه
وكفكفت دمعا لو أسلت شئونه
حياء وكبرا أن يقال تربحت
ولانى أمرؤ لولا العوائق أذعنت
من النفر الغمر الذين سيوفهم
وأصبحت لا يلوى بشيمتى الزجر
معتقة مما يضمن بها التجر
تلا لأ برق أو سرت ديمة غمر
على حسرات لا يقاومها صبر
وما هى إلا نظرة دونها السحر
ولا لأمرئى فى الحب نهى ولا أمر
لألوت به البيض المباتير والسمر
شرارته بالجر لا حترق الجمر
من الوجد لا يقوى على مسها صدر
على الأرض ما شك أمرؤ أنه بحر
به صبوة أو فل من غربه الهجر
لساطانه البدو المغيرة والحضر
لها فى حواشى كل داجية بخر

اذا استل منهم سيد غرب سيفه
 لهم عمود مرفوعة ومعقل
 ونار لها في كل شرق ومغرب
 تمتد يدا نحو السماء خضمية
 وخيل يرج الخافقين صهيلها
 معودة قطع الفيا في مكانها
 أقاموا زمانا ثم بدد شملهم
 فلم يبق منهم غير آثار نعمة
 وقد تنطق الآثار وهي صوامت
 لعمر كماحي وان طال سيره
 وما هذه الأيام إلا منازل
 ولا تحسبن المرء فيها بخالد

وقال في النسيب :

غلب الوجـد عليه فبكى
 وتمنى نظرة يشفى بها
 يالها من نظرة ما قاربت
 نظرة ضم عليها هـدبه
 غرست في القلب منى حبه
 وتولى الصبر عنه فشكا
 علة الشوق فكانت مهلكا
 مهبط الحكمة حتى انتهكا
 ثم أغراها فكانت شركا
 وسقته أدمعى حتى زكا

آه من برج الهوى ان له
 كان أبقي الوجد منى رمقا
 ان طرفى غمر قلبي فمضى
 قد تولى إثر غزلان النقا
 لم يعد بعد وظنى أنه
 ويح قلبي من غريم ما طل
 ظن بى سوءا وقد ساومته
 يا غزلا لا نصبت أهدا به
 قد ملكك القلب فاستوص به
 لا تعذبه على طاعته
 غلب اليأس على حسن المنى
 فالى من أشتكى ما شفنى
 سلكت نفسى سبيلا فى الهوى
 بين جنبي من النار ذكا
 فاحتوى البين على ما تركا
 فى سبيل الشوق حتى هلكا
 ليت شعرى أى واد سلكا
 بلج فى نيل المنى فارتبكا
 كلما جدد وعدا أفكا
 قبلة فأزور حتى فركا
 بيد السحر لضمي شبكا
 إنه حق على من ملكا
 بعد ما تيمته فهو لكا
 فيك واستولى على الضحك البكا
 من غرام واليك المشتكى
 لم تدع فيه لغيرى مسلكا

طائر على غصن

ونبأة أطلقت عيني من سنة
 فقممت أسأل عيني رجع ما سمعت
 ثم اشأبت وألفت طائرا حذرا
 مستوفزا يتنزه فوق أيكته
 كانت حباله طيف زارنى سحرا
 أذنى فقالت لعلى أبلغ الخبرا
 على قضيب يدير السمع والبصرا
 تنزه القلب طال العهد فادكرا

لا يستقر له ساق على قدم	فكلما هدأت أنفاسه نفرا
يهفو به الغصن أحيانا ويرفعه	دحو الصواج في الديمومة الأكر
ما باله وهو في أمن وعافية	لا يبعث الطرف إلا خائفا حذرا
إذا علا بات في خضراء ناعمة	وإن هوى ورد الغدران أو نفرا
يا طير نفرت عنى طيف غانية	قد كان أهدى لى السراء حين سرى
حوراء كالريم ألحاظا إذا نظرت	وصورة البدر إشراقا إذا سفرا
زالت خيالها عنى وأعقبها	شوق أحال على الهم والسهر
فهل الى سنة أن أعوزت صلة	عود نال به من طيفها الوطرا



كان رحمه الله حين ذهب الى حرب الروس (١٢٩٤ هـ -
 ١٨٧٧ م) كتب لأبناء ودّه كتباً لم تصل اليهم وظن وصولها
 وتقصيرهم عن المبادرة بالاجابة ، وقد وصل الى الشيخ حسين
 المرصفي أحد كتّابيه كتبها له يوم قدومه الى مصر بعد مدة طويلة
 من كتابته ، وهذه أبياته :

يا ناعس الطرف الى كم تنام	أسهرتني فيك ونام الأنام
أوشك هذا الليل أن ينقضى	والعين لا تعرف طيب المنام
الله في عين جفاها الكرى	فيكم وقلب قد براه الغرام
قد رحم العاذل حالى فما	يرضى لذلى فى الهوى بالنام

ويلاه من ظبي الحمى إنه
 يغضب من قولي آه وهل
 لا كتبه تترى ولا رساله
 طال النوى من بعدكم وانقضت
 ارتاح ان من نسيم الصبا
 ياليتني في السلك حرف سرى
 حتى أوافي مصر في لحظة
 مولاي قد طال صرير النوى
 أنظر حولي لا أرى صاحباً
 وديداً بنا صارخاً في الدجى
 يقتبل الصبح ويمضي الدجى
 ولا كتاب من حبيب أتى
 في هضبة من أرض دبريمة
 من خلفنا البحر وتلقاءنا
 فتلك حالي لا رمتك النوى
 جرعتي بالصمد من الخمام
 قولي آه يا ابن ودي حرام
 تأتى ولا اللطيف يوافي لمسام
 بشاشة العيش وساء المقام
 والبرء لى فيه معاً والسقام
 أوريثة بين خوافي الخمام
 أقضى بها في الله حق الذمام
 فكل يوم مربى ألف عام
 إلا جماهير وخيال صيام
 ارجع وراء إنه لا أمام
 وينقضى النور ويأتى الظلام
 ولا أخو صدق يرد السلام
 ليس بها غير بغاث وهام
 سواد جيش مكفهر لهام
 فكيف أنتم بعدنا يا همام

وقال يجارى قصيدة أبي نواس في مدح الأمير محمد ابن الرشيد،
 وسندكر هنا قصيدة أبي نواس اتماماً للفائدة ثم نعقبها بقصيدة
 البارودي .

قال أبو نواس :

يا دار ما فعلت بك الأيام
عزم الزمان على الذين عهدتهم
أيام لا أغشى لأهلك منزلا
ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم
وبلغت ما بلغ أمرؤ بشبابه
وتجشمت بى هول كل تنوفة
تذر المطى وراءها فكأنها
وإذا المطى بنا بلغن محمدا
قربنا من خير من وطئ الحصا
رفع الخجاب لنا فلاح لناظر
ملك إذا علقت يداك بحبله
ملك توحد بالمكارم والعلی
ملك أغر إذا شربت بوجهه
فألمـو مشتمل ببدر خلافة
سبط البنان إذا احتبى بنجاده
ان الذى يرضى الإله بهديه
ملك إذا اعتبر الأمور مضى به
داوى به الله القلوب من العمى

لم تبق منك بشاشة تستام
بك قاطنين وللزمان عرام
إلا مراقبة على ظلام
وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
فاذا عصارة كل ذاك أثم
هو جاء فيها جرأة إقدام
صف تقدمهن وهى أمام
فظهورهن على الرجال حرام
فلها علينا حرمة وذمام
قرر تقطع دونه الأوهام
لا يعتفك البؤس والاعدام
فرد فقيد الند فيه همام
لم يهدك التبجيل والاعظام
لبس الشباب بنوره الاسلام
فرع الجماجم والسماط قيام
ملك تردى الملك وهو غلام
رأى يقل السيف وهو حسام
حتى أفقن وما بهن سقام

أصبحت يابن زبيدة ابنة جعفر أملا لعقد حباله استحكام
فسامت للأمر الذي ترجى له وتقاعست عن يومك الأيام

وقال البارودي في الوزن والروى :

ذهب الصبا وتوالت الأيام فعلى الصبا وعلى الزمان سلام
تالله أنسى ما حييت عهد ولكل عهد في الكرام ذمام
اذ نحن في عيش ترف ظلاله ولنا بمعترك الهوى آثام
تجرى علينا الكاس بين مجالس فيها السلام تعانق ولزام
في فتية فاض النعم عليهم ونماهم التبجيل والاعظام
ذهبت بهم شيم الملوك فليس في تلعبهم هذر ولا أبرام
لا ينطقون بغير آداب الهوى سمح النفوس على البلاء كرام
من كل أبلج يستضاء بنوره كالبدر حلّى صفحته غمام
سهل الخليفة لا يسوء جليسه بين المقامة واضح بسام
متواضع للقوم تحسب أنه مولى لهم في الدار وهو همام
ترنو العيون إليه في أفعاله وتسير تحت لوائه الأفوام
فاذا تكلم فالرءوس خواضع وإذا تناهض فالصفوف قيام
نلهو ونلعب بين خضر حدائق ليست بغير خيولنا تسام
حتى انتبهنا بعد أن ذهب الصبا ان اللذات والصبا أحلام
لا تحسبن العيش دام لمترف هيات ليس على الزمان دوام

تأتى الشهور وتنتهى ساعاتها
والناس فيما بين ذلك وارد
لا طائر ينجو ولا ذو مخلب
فأدراهموم النفس عنك اذا اعترت
فالعيش ليس يدوم فى ألوانه
من نحرة تذر الكبير اذا انمشى
لعب الزمان بها فغادر جسمها
حمرء دارها الحباب فصورت
لا تستقيم العين فى لمعانها
تعشوا الركاب فان تبلغ كأسمها
حبست بأ كلف لم يصل بمنائه
حتى اذا اصطفت وطار فدامها
وقدت حميتها فلولا مزجها
تسم العيون بنورها لكانها
فاصقل بها صداً الموم ولا تكن
واعلم بأن المرء ليس بنخالد
يهوى الفتى طول الحياة وانها
فاطمح بطرفك هل ترى من أمة

لمع السراب وتنقض الأعوام
أو صادر تجرى به الأيام
يبقى وعاقبة الحياة حمام
بالكأس فهى على الموم حسام
إلا اذا دارت عليه الحمام
بعد اشتعال الشيب وهو غلام
شجا تهافت دونه الأوهام
فلما تحف سماء الأجرام
وتزل عند لقاءها الأقدام
ساروا وان زال الضياء أقاموا
نور ولم يسرح عليه ظلام
وثبت فلم تثبت لها الأجسام
بالماء بعد الماء شب ضرام
برد على شرابها وسلام
غرا تطيش بلبله الآلام
والدهر فيه صحة وسقام
داء له لو يستبين عقام
خلدت وهل لابن السبيل مقام

هذه المدائن قد خانت من أهلها بعد النظام وهذه الأهرام
لا شيء يخلد غير أن خديعة في الدهر تتكل دونها الأحلام
ولقد تبينت الأمور بغيرها وأتى على النقض والابرام
فإذا السكون تحرك وإذا الخمو د تلهب وإذا السكوت كلام
وإذا الحياة ولا حياة منية تحيا بها الأجساد وهي رمام
هذا يحل وذاك يرحل كارها عنه فصلح تارة وخصام
فالنور لو بينت أمرك ظلمة والبدء لو فكرت فيه ختام



ولأبي نواس قصيدة أخرى مدح بها الخصيب بن عبد الحميد
العجمي أمير مصر من طرف الرشيد، وكان قصده من بغداد :
اجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجي لديك عسير
فإن كنت لا خالما ولا أنت زوجة فلا برحت دوني عليك ستور
وجاورت قوما لا تراور بينهم ولا وصل إلا أن يكون نشور
فما أنا بالمشغوف ضربة لازب ولا كل سلطان على قدير
وهي قصيدة طويلة وقد نظم شاعرنا قصيدة في وزنها
ورويها، قال :

تلاهيت إلا ما يحسن ضمير وداريت إلا ما ينم زفير
وهل يستطيع المرء كتمان أمره وفي الصدر منه بارح وسعير

فيا قاتل الله الهوى ما أبشده
 تلين اليه النفس وهى أبية
 نبذت له رمحي وأغمدت صارمى
 وأصبحت مغلول المخالب بعدما
 فى لسرة القوم دعوة عائد
 لطال على الليل حتى ملته
 ألا فرعى الله الصبا ما أبره
 اذ العيش أفواف ترف ظلاله
 واذ نحن فيما بين إخوان لذة
 تدور علينا الكاس بين ملاعب
 فأحاطنا بين النفوس رسائل
 عقدنا جناحي ليلنا بنهارنا
 وقلنا لساقينا أدرها فأنما
 فطاف بها شمسية طيبة
 اذا ما شربناها أقننا مكاننا
 وكم ليلة أفنيت عمر ظلامها
 شغلت بها قلبي ومتعت ناظرى
 صنعت بها صنع الكريم بأهله
 على المرء اذ يخالو به فيغير
 ويخزع منه القلب وهو صبور
 ونهنت مهري والمراد غزير
 سطوت ولى فى الخافقين زئير
 أما من سمع فيكم فيجير
 وعهدى به فيما علمت قصير
 وحيا شبابا مر وهو نصير
 علينا وسلسال الرفاء نمير
 على شميم ما إن بهن تكير
 بها اللهو خدن والشباب سمير
 وريحاننا بين الكؤوس سفير
 وطرنا مع اللذات حيث تطير
 بقاء الفقى بعد الشباب يسير
 لها عند الباب الرجال تؤور
 وظلمت بنا الأرض الفضاء تدور
 الى أن بدا للصبح فيه قدير
 ونعمت سمى والبنان طهور
 وجيرته والغادرون كثير

فما راعنا إلا حفيف حمائم
تجاوب أترابا لها في نحائل
نواعم لا يعرفن بؤس معيشة
توسد هامات لمن وسائدا
كأن على أعطافها من حبيكها
خوارج من أيك دواخل غيره
إذا غازلتها الشمس رفت كأنما
فلما رأيت الصبح قد رف جیده
خرجت أجر الذيل تيهًا وإنما
ولى شيمة تأبى الدنيا وعزيمة
إذا سرت فالأرض التي نحن فوقها
فلا عجب أن لم يصرنى منزل
همامة نفس ليس ينفي ركايبها
معودة أن لا تكف عنايبها
لها من وراء الغيب أذن سمیعة
وفيت بما ظن الكرام فراسة
وأصبحت محسود الجلال كأننى
إذا صلت كف الدهر من غلوائه
لها بين أطراف الغصون هدير
لمن بها بعد الحنين صغیر
ولا دائرات الدهر كيف تدور
من الريش فيه طائل وشكير
تمائم لم تعقد لمن سسيور
زهائن ظل سابع وغدير
على صفحتها سندس وحریر
ولم يبق من نسج الظلام ستور
يتيه القتي أن عف وهو قدیر
ترد لهام الجيش وهو يمور
مراد للمهرى والمعاقل دور
فليس لعقبان الهواء وكور
رواح على طول المدى وبكور
عن الجدد إلا أن تتم أمور
وعین ترى ما لا يراه بصیر
بأمرى ومثلى بالوفاء جدیر
على كل نفس فى الزمان أمیر
وان قلت غصت بالقلوب صدور

ملكتم مقاليد الكلام وحكمة لها كوكب نفيم الضياء منير
فلو كنت في عصر الكلام الذي انقضى لباء بفضل جروول وجرير
ولو كنت أدركت النواصي لم يقل أجارة بيتينا أبوك غيور
وما ضرتني أنى تأخرت عنهم وفضلى بين العالمين شهير
فيا ربما أخلى من السبق أول وبز الجياد السابقات أخير



وقال النابغة الذبياني واسمه زياد يصف المتجرّدة زوج النعمان
بأمره، ويقال أن النعمان مع ذلك لما سمع القصيدة غضب على
النابغة وجفاه وظن به حتى اختفى منه ثم ظهرت براءته له وعاد إلى
موضعه من منادته :

أمن آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزود
أفد الترحل غير أن ركابنا لما تزل برجالنا وكأن قد
زعم الهام بأن رحلتنا غدا وبذاك تنعاب الغراب الأسود
لا مرحبا بغد ولا أهلا به ان كان تفريق الأحبة في غد
حان الرحيل ولم تودع مهددا والصبح والامساء منها موعدي
في إثر غانية رمتك بسهمها فأصاب قلبك غير أن لم تقصد
غنيت بذلك أذهم لك جيرة منها بعطف رسالة وتودد
ولقد أصاب فؤاده من حبها عن ظهر مرنان بسهم مصرد

نظرت بمقلة شادن مترتب
 والنظم في سالك يزين نحرها
 صفراء كالسيرا أكل خلقها
 والبطن ذو عكن لطيف طيه
 مخطوطة المتنين غير مفاضة
 قامت تراءى بين سجنى كاة
 أودرة صدفية غواصها
 أودمية من مرمر مرفوعة
 سقط النصف ولم ترد إسقاطه
 بمنصب رخص كأن بنائه
 نظرت اليك بحاجة لم تقضها
 تجلو بقادمتي حمامة أبكة
 كالأمقوان غداة غب سمائه
 زعم الهمام بأن فاها بارد
 زعم الهمام ولم أذقه أنه
 زعم الهمام ولم أذقه أنه
 أخذ العذارى عقده فنظمه
 لو أنها عرضت لأشمط راهب
 أمحوى أحجم المقاتلين مقلد
 ذهب توقد كالشهاب الموقد
 كالغصن في غلوائه المتأود
 والأتب تنفجه بشدى مقعد
 ربا الروادف بضمة المتجرد
 كالشمس يوم طأوعها بالأسعد
 بهيج متى يرها يهل ويسجد
 بنيت بأجر يشاد وقرمد
 فتنأوته واتقتنا باليد
 عنم يكاد من اللطافة يعقد
 نظر السقيم الى وجوه العود
 بردا أسف لشاة بالأثمد
 جفت أعاليه وأسفله ند
 عذب مقبله شهي المورد
 عذب اذا ما ذقته قات ازدد
 يشفى برىا ريقها العطش الصدى
 من لؤلؤ متتابع متسرد
 عبد الاله ضرورة متعبد

لنا لرؤيتها وحسن حديثها
بتكلم لو تستطيع كلامه
وبفاحم رجل أثبت نبتة
واذا لمست لمست أجثم جائئا
واذا طعنت طعنت في مستهدف
واذا نزع نزع عن مستحصف
واذا يعض يشد من أعضائه
ويكاد ينزع جلد من أصلي به
لا وارد منها يحور لمصدر
ونحاله رشدا وان لم يرشد
لدنت له أروى الهضاب الصيخد
كالكرم مال على الدعام المسند
متحيزا بمكانه ملء اليد
رابى المجسة بالعجير مقرم
نزع الحزور بالرشاء المحصد
عض الكبير من الرجال الأدر
بلواغ مثل السعير الموقد
عنها ولا صدر يحور لمورد

وقد مشى البارودي على أثر النابغة وقال على روى قصيدته ،
وسلك فيها مسالك العرب فيما كانت تمتدح به من مباشرة الحروب
وارتياد المنايا وركوب الخيل وشرب الخمر ومزاولة النساء :

ظن الظنون فبات غير موسد
تلوى به الذكرات حتى إنه
طورا بهم بأن يزل بنفسه
فكأنما افترست بطائر حلمه
قالوا غدا يوم الرحيل ومن لهم
هي مهجة ذهب الهوى بشغافها
حيران يكلاً مستنير الفرقد
ليظل ملقى بين أيدي العود
سرفا وتارات يميل على اليد
مشمولة أو ساغ سم الأسود
خوف التفترق أن أعيش الى غد
معمودة إن لم تمت فكأن قد

يا أهل ذا البيت الرفيع مناره
اني فقدت العام بين بيوتكم
أو فاستقيدوني ببعض قياتكم
بل يا أخا السيف الطويل نجاده
هذي لحاظ الغيد بين شعابكم
من كل ناعمة الصبا بدوية
هيفاء ان خطرت سبت واذا رنت
يخفضن من أبصارهن تحتلا
فاذا أصبن أخا الشباب سلبه
واذا لحن أخا المشيب قلينه
فلئن غدوت دريئة لعيونها
ولقد شهدت الحرب في إبانها
نتقصف المران في حجراتها
عصفت بهاريج الردى فتدققت
مازلت أظعن بينها حتى انثنت
ولقد هبطت الغيث يلمع نوره
تجري به الآرام بين مناهل
بمضمرة أرن كان سراته

أدعوكم يا قوم دعوة مقصود
قلبي فرقدوه على لأهتدي
حتى ترد الى نفسي أو تدي
ان أنت لم تحم التزيل فأغمد
فتكت بنا خاسا بغير مهند
ريا الشباب سليمة المتجرد
سلبت فؤاد العابد المتشدد
لأنفس فعل القائنات العبد
ورمين مهجته بطرف أصيد
وسترن ضاحية المحاسن باليد
فلقد أفل زعارة المتمرد
ولبئس راعي الحي ان لم أشهد
ويعود فيها السيف مثل الأرد
بدم الفوارس كالآتي المزبد
عن مثل حاشية الرداء المجسد
في كل وضاح الأسرة أغيد
طابت مشاربها وظل أبرد
بعد الحميم سبيكة من عسجد

خلصت له اليمنى وعم ثلاثة
 فكأنما انتزع الأصيل رداءه
 زجل يردّد في اللغات صهيله
 متلفاً عن جانبيه يهزه
 فاذا ثنيت له العنان وجدته
 واذا أطعت له العنان رأيته
 يكفيك منه اذا استحسن نبأه
 صلب السنايك لا يمر بجلمد
 نعم العتاد اذا الشفاه تقلصت
 ولقد شربت الجمرين غطارف
 يتلاعبون على الكؤوس اذا جرت
 لا ينطقون بغير ما أمر الهوى
 من كل وضاح الجبين كأنه
 بل رب غانية طرقت خباءها
 قالت وقد نظرت الى فضحتي
 نخلبتها بالقول حتى رضتها
 ما زلت أمنعها المنام غواية
 روعاء تفزع من عصافير الضحى
 منه البياض الى وظيف أجرد
 سلباً وخاض من الضحى في مورد
 دفعا كزمنمة الحبي المرعد
 مرح الصبا كالشارب المتغرد
 يطو كسيد الردهة المتورّد
 يطوى المهامه فدفا في فدفا
 شدا كالهوب الالباء الموقد
 في الشدّ إلا رض فيه بجلمد
 يوم الكريمة في العجاج الأربد
 شم المعاطس كالغصون الميسد
 لعبا يروح الجأ فيه ويقتدى
 فكلامهم كالروض مصقول ندى
 قمر توسط جناح ليل أسود
 والنجم يطرف عن لواحق أومد
 فارجع لشأنك فالرجال بمرصد
 وطويتها طى الحبيرة باليسد
 حتى لقد بتنا بليلى الانقد
 ترفا وتجزع من صياح الهدهد

حتى اذا نم الصبا وتتابع زيم الكواكب كالمها المتبدد
 قالت دخلت وما أخالك بارحا إلا وقد أبقيت عار المسند
 فمسحتها حتى اطمأن فؤادها ونفيت روعتها برأى محصد
 وخرجت اخترق الصفوف من العدى متلثا والسيف يلمع في يدي
 فلنعم ذاك العيش لو لم ينقض ولنعم هذا العيش ان لم ينفد
 يرجو الفتي في الدهر طول حياته ونعيمه والمرء غير مخلد
 وقال الشريف محمد الرضى يفتخر ويمدح أسلافه من أهل

البيت :

لغير العلامى القلا والتجنب ولولا العلاما كنت فى الحب أرغب
 اذا الله لم يعذرك فيما ترومه فما الناس إلا عاذل أو مؤنب
 ملكت بحلمى فرصة ما استرقها من الدهر مفتول الذراعين أغلب
 فان تك سنى ما تطاول باعها فلى من وراء المجد قلب مدرّب
 بحسبى أنى فى الأعادى مبغض وأنى الى غر المعالى محبب
 وللحم أوقات وللجهل مثاهى ولكن أياى الى الحلم أقرب
 يصول على الجاهلون واعتلى ويعجم فى القائلون وأعرب
 يرون احتمالى غصّة ويزيدهم لوايح ضغن أننى لست أغضب
 وأعرض عن كأس النديم كأنها وميض غمام غائر المزن تحلب
 وقور فلا الألمان تأسر عزمتى ولا تمكر الصهباء بى حين أشرب

ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها ولا أنطق العوراء والقلب مغضب
تحلم عن كسر القوارص شيتي كأن معبد الدم بالمدح مطنب
لساني حصاة يقرع الجهل بالجمي اذا نال مني العاضة المتأوب
ولست براض أن تمس عزائي فضالات ما يعطى الزمان ويسلب
غرائب آداب حباتي بحفظها زماني وصرف الدهر نعم المؤدب
تريشنا الأيام ثم تهيضنا ألا نعم البادي وبئس المعقب
نهيتهك عن طبع اللثام فأنتي أرى البخل يقبى والمكارم تطلب
تعلم فان الجود في الناس فطنة تناقلها الأحرار والطبع أغلب
تضافرنى فيك الصوارم والقنا ويصحبني منك العذيق المرجب
نصحت وبعض النصيح للقوم هجنة وبعض التناجي بالعتاب تعيب
فان أنت لم تعط النصيحة حقها فرب جموح كل عنه المؤدب
سقى الله أرضا جاوز القطر ورضاها اذ المزن يسقى والا باطح تشرب
ذكرت بها عهد الشباب ففسرة أفدت وقدفات الذي كنت أطلب
ويعجبني منها النسيم اذا هفا إلا كل ماسرى عن القلب معجب
سكنتك والأيام بيض كأنها من الطيب في أثوابها لتقلب
وبرق رقيق الطيرين لحظته إذ الجؤ خوار المصابيح أكهب
نظرت وألحاظ النجوم كليلة وهيئات دون البرق شاو مغرب
فما الليل إلا فحمة مستشفقة وما البرق إلا جمرة لتلهب

أمن بعد أن جلاتها ورق الدجى سرعا وأغصان الأزيمة تجذب
وعدنا بها ممعومة بنسوعها كما صاح الأرض الغراء المعقب
كأن تراجع الحداة وراءها صفير تعاطاه اليراع المثقب
تهز ظنوني في المآرب أربة ويجنب عزمي في المطالب مطلب
وردنا بها ماء الظلام سواغبا وليل جوّ بالدرارى معشب
تنفر ذود الطير عن وكراتها وكل اذا لقيته متغرب
ونلتذ رشف الماء رنقا كأنه مع العز ثغر بارد الظالم أشنب
أذعنا لها سر الكرى من عيوننا وسر العلى بين الجوانح يحجب
حرام على المجند ابتساحى لقربه وما هنرى فيه العناء المقطب
ودهماء من ليل التمام قطعها أغنى حذاء والمراسيل تطرب
واوشئت غنتنى حمام عشية ولكننى من ماء عيني أشرب
أقول اذا خاض السميران فى الدجى أحاديث تبدو طالعات وتغرب
ألا غيانى بالحديث فأننى رأيت ألد القول ما كان يطرب
غناء اذا خاض المسامع لم يكن أمينا على جوابه المتجلب
ونشوان من نحر النعاس ذعرته وطيف الكرى فى العين يطفو ويرسب
له مقلة يستنزل النوم جفنها اليه كما استرنحى على النجم هيدب
سريت بفاج الأرض غفلا ومعلما تجدها أيدى المطايا وتلعب
وما شهوتى لوم الرفيق وانما كما يلتقى فى السير ظلف ومخلب

عجبت لغيرى كيف ساير نجبها وسيرى فيها يا ابنة القوم أعجب
 أسير وسرجى بالنجاد مقالد وأثوى ويبتى بالعوالى مطنب
 ومصقولة الأعطاف فى جنباتها مراح لأطراف الرماح وملعب
 تجر على متن الطريق عجاجة يطاردها قرن من الشمس أعضب
 نهار بلألاء السيوف مفضض وجؤ بحمراء الأنايب مذهب
 ترى اليوم محمر الحواشى كأنما على الجؤ غرب من دم يتصبب
 صدمنا بها الأعداء والليل ضارب بأرواقه جون الملاطين أخطب
 أخذنا عليهم بالصوارم والقنا وراعى نجوم الليل حيران مغرب
 يراعون أسفار الصباح وإنما وراء لثام الليل يوم عصبصب
 وكل ثقل الصدر من حلب القنا خفيف الشواوالموت عجلان مقرب
 يحم اذا ما استرعف الكر جهده كما جمع الغدران والماء ينضب
 وما الخيل إلا كالقذاح يميلها لغنم فاما فائز أو مخيب
 دعوا شرف الاحساب يا آل ظالم فلا الماء مورود ولا الترب طيب
 لئن كنتم فى آل فهر كوا بكا اذا غاض منها كوكب فاض كوكب
 فنعتى كنعت البدر ينسب بينكم جهارا وما كل الكواكب تنسب
 صحتهم خضاب الزايعيات ناصلا ومن علق الأقران ما لا يخضب
 أهذب فى مدح اللثام خواطرى فأصدق فى حسن المعانى وأكذب
 وما الممدح إلا فى النبي وآله يرام وبعض القول ما يتجنب

وأولى بمدحي من أعز بفخره ولا يشكر النعماء إلا المهذب
أرى الشعر فيهم باقيا وكأنما تحلق بالأشعار عنقاء مغرب
وقالوا عجيب عجب مثلي بنفسه وأين على الأيام مثل أبي أب
لعمرك ما أعجبت إلا بمدحهم ويحسب أني بالقصائد معجب
أعد لفخري في المقام محمدا وأدعو عليا للعلا حين أركب

قال البارودي وترجم لها بقوله : « وقال يروض القول على

روى قصيدة الشريف » :

سواي بتحنان الأغاريد يطرب وغيرى باللذات يلهو ويعجب
وما أنا ممن تأسر الخمر لبه ويملك سمعيه اليراع المثقب
ولكن أخوهم إذا ما ترجمحت به سورة نحو العلا راح يدأب
نفى النوم عن عينيه نفس أبية لها بين أطراف الأسننة مطلب
بعيد مناط الهم فالغرب مشرق إذا ما رمى عينيه والشرق مغرب
له غدوات يتبع الوحش ظلالها وتغدو على آثارها الطير تتعب
همامة نفس أصغرت كل مأرب فكلقت الأيام ما ليس يوهب
ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محب
إذا أنا لم أعط المكارم حقها فلا عزني خال ولا ضمني أب
ولا حملت درعي كمت طمرة ولا دار في كفي سنان مذبذب
خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة لدى يدا أغضى لها حين يغضب

فلست لأمر لم يكن متوقعا
 أسير على نهج يرى الناس غيره
 وإنى إذا ما الشك أظلم ليلته
 صدعت حفا في طرثيه بكوكب
 وبجر من الهيجاء خضت عجاجة
 تظل به حمر المنايا وسودها
 توسطته والخيل بالخيل تلتقى
 فما زلت حتى بين الكر موقفى
 لدن غدوة حتى أتى الليل والتقى
 كذلك دأبى فى المراس وإنى
 وفتيان لهو قد دعوت وللكرى
 الى مربع يجرى النسيم خلاله
 فلم يمض أن جاءوا ملبين دعوتى
 بنجل كآرام الصريم وراءها
 من اللاء لا يأكل زاد سوى الذى
 ترى كل محمر الجمال يق فاجر
 يكاد يفوق البرق شدا إذا انبرت
 فلنا الى واد كان تلاعه
 ولست على شىء مضى أتعجب
 لكل امرئ فيما يحاول مذهب
 وأمست به الأحلام حيرى تشعب
 من الرأى لا يخفى عليه المغيب
 ولا عاصم إلا الصفيح المشطب
 حواسر فى ألوانها نتقلب
 وبيض الظبي فى الهام تبدو وتغرب
 لدى ساعة فيها العقول تغيب
 على غيب من ساطع النقع غيب
 لأمرح فى غى التصاوى وألعب
 خباء بأهداب الجفون مطنب
 بنشر الخزامى والندى يتصبب
 سراعاً كما وفى على الماء ررب
 ضواري سلوق عاطل وملب
 يضر سنه والصيد أشهى وأعذب
 الى الوحش لا يألو ولا يتنصب
 له بنت ماء أو تعرض ثعالب
 من العصب موشى الحباءك مذهب

تراخ به الآمال بعد كلالها
 فبيننا نرود الأرض بالعين اذ رأى
 فقمنا الى خيل كأن متونها
 فلما انتهينا حيث أخبر أطلقت
 فما كان إلا لفظة الجيد ان علمت
 وقلنا لساقينا أدرها فانما
 فقام الى راقود نحر كأنه
 يمج سلافا في إزاء كأنه
 فلم نأل ان دارت بنا الأرض دورة
 الى أن تولى اليوم إلا أقله
 فرحنا نجر الذيل تيمنا لم نزل
 مسارح سكبير ومريض فأتك
 فلما رأنا صاحب الدار أشرقت
 وقال انزلوا يا باريك الله فيكمو
 وراح الى دن تكامل سنه
 فما زال حتى استل منه سبيكة
 يحوم عليها الطير من كل جانب
 فيا حسن ذلك اليوم لو كان باقيا

ويصبوا اليه ذوالجحي وهو أشيب
 ربيثنا سربا فقال الا اركبوا
 من الضمر خوط الضيمران المشذب
 بزاة وجالت في المقادير أكلب
 قدور وفار اللحم وانفض مأرب
 قصارى بنى الأيام أن يتشعبوا
 اذا استقبلته العين أسود مغضب
 اذا ما استقبلته الأنامل كوكب
 وحتى رأينا الأفق ينأى ويقرب
 وقد كادت الشمس المنيرة تغرب
 به لأنجي اللذات واللهو ملعب
 ومخدع أكواب به الخمر تسكب
 أسارىه زهوا وجاء يرحب
 فعندى لكم ما تشتهون وأطيب
 وشيب فوديه من الدهر أحقب
 من الخمر تطفو في الاناء وترسب
 ويسرى عليها الطارق المتأوب
 ويا طيب هذا الليل لو دام طيب

يودّ الفقى ما لا يكون طماعة ولم يدر أن الدهر بالناس قلب
ولو علم الانسان ما فيه نفعه لأبصر ما يأتى وما يتجنب
ولكنها الأقدار تجرى بحكمها علينا وأمر الغيب سر محجب
نظن بأننا قادرون وإننا نقاد كما قيد الحنيب ونصحب
فرحمة رب العالمين على امرئ أصاب هواه أو درى كيف يذهب



وقال فى منقاه :

ردّوا على الصبا من مصرى الخالى وهل يعود سواد اللمة البالى
ماض من العيش ما لاحت مخائله فى صفحة الفكر إلا هاج بلبالى
سالت قلوب فقرت فى مضاجعها بعد الحنين وقابى ليس بالسالى
لم يدر من بات مسرورا بلذته انى بنار الأذى من هجره صالى
يا غاضبين علينا هل الى عدة بالوصل يوم أناغى فيه إقبالى
غبتم فأظلم يومى بعد فرقكم وساء صنع الليالى بعد إجمال
قد كنت أحسبني منكم على ثقة حتى منيت بما لم يحرف فى بالى
لم أجن فى الحب ذنبا أستحق به عتبا ولكنها تحريف أقوال
ومن أطاع رواة السوء نفره عن الصديق سماع القيل والقال
أدهى المصائب غدر قبله ثقة وأقبح الظلم صدّ بعد إقبال
لا غيب فى سوى حرية ملكت أعنى عن قبول الذل بالمال

تبعث خطة آبائي فسرت بها على وتيرة آداب وآسال
فما يمر خيال الغدر في خلدي ولا تلوح سمات الشر في خالي
قلبي سليم ونفسي حرة ويدي مأمونة ولساني غير ختال
لكنني في زمان عشت مغتربا في أهله حين قلت فيه أمثالي
بلوت دهرى فما أجدت سيرته في سابق من لياليه ولا تالي
حلبت شطريه من يسر ومعسرة وذقت طعميه من خصب واحمال
فما أسفت لبؤس بعد مقدرة ولا فرحت بوفر بعد إقلال
عقافة نزهت نفسي فما علقت بلوثة من غبار الذم أذيالي
فالיום لارسني طوع القياد ولا قلبي الى زهرة الدنيا بميال
لم يبق لي أرب في الدهر أطلبه إلا صحابة حرّ صادق الحال
وأين أدرك ما أبغيه من وطر والصدق في الدهر أعيا كل محتال
لا في سرنديب لي إلا ف أجاذبه فضل الحديث ولا خل فيرعى لي
أبيت منفردا في رأس شاهقة مثل القطامي فوق المربأ العالي
إذا تلفت لم أبصر سوى صور في الدهن يرسمها نقاش آمالى
تهفو بي الريح أحيانا ويلحنني برد الظلال يبرد منه أسمال
ففى السماء غيوم ذات أروقه وفى الفضاء سيول ذات أوشال
كأن قوس الغمام الغرّ قنطرة معقودة فوق طامى الماء سيال

اذا الشعاع تراءى خلفها نشرت
 فلو ترائى وبردى بالندى لثق
 غال الردى أبويه فهو منقطع
 أزيغب الرأس لم يبد الشكير به
 كأنه ككرة ملساء من آدم
 يظل في نصب حران مرتقبا
 يكاد صوت البزاة الفمر يثدفه
 لا يستطيع انطلاقا من غيابه
 فذاك مثلى ولم أظلم ورتبا
 شوقا ونأى وتبريح ومعتبة
 أصبحت لا أستطيع الثوب أسحبه
 ولا تكاد يدى تجرى شبا قلبي
 فان يكن جف عودى بعد نضرته
 علام أجزع والأيام تشهد لى
 راجعت فهرس آثارى فما لمحت
 فكيف ينكر قومي فضل بادرى
 أنا ابن قولى وحسبى فى الفخار به
 بدائعا ذات ألوان وأشكال
 خللتنى فرخ طير بين أدغال
 فى جوف عيناء لا راع ولا وال
 ولم يصن نفسه من كيد مغتال
 خفية الدرز قد علمت بحريال
 تقع الصدى بين أسجار وأصال
 من وكره بين هابى الترب جوال
 كأنما هو معقول بمقال
 فضلاته يحوى حزن وإعوال
 يالاحبة من غدرى وإهمال
 وقد أكون وضافى الدرع سربالى
 وكان طوع بنانى كل عسال
 فالدهر مصدر إدار وإقبال
 بصدق ما كان من وسى وإغفال
 بصيرتى فيه ما يزرى بأعمالى
 وقد سرت حكى فيهم وأمثالى
 وإن غدوت كريم العم والخال

ولى من الشعر آيات مفصلة تلوح في وجنة الأيام كالخال
 ينسى لها الفاقد المحزون لوعته ويهتدى بسننها كل قوال
 فانظر لقولى تجد نفسى مصورة فى صفحتيه فقولى خط تمثالى
 ولا تغرنك فى الدنيا مشاكلة بين الأنام فليس النبع كالضال
 إن ابن آدم لولا عقله شبح مركب من عظام ذات أوصال

الكتاب الثاني

إسماعيل صبري

الفضل الأول

صبرى فى صباه

لكل أرض أطيّار تغرد لها بين أرضها وسماؤها، وجدادها
وأشجارها، ولكل جيل شعراء يحملون لواءه بين شبابه وشيبه
ويسرون بهم إلى الغايات فى أقطار الكمال .

كان البارودى يحمل اللواء فى الوقت الذى كان صبرى
فيه يتعلم الرماية . درج صبرى وشب فى أيام اسماعيل وكان يميل
بنظرته إلى الشعر والأدب وقد وجد فى بيئته وهو تلميذ ما يساعده
على تعاطى صناعة الشعر فكان من هذه الوجهة أسعد حظا من البارودى .^(١)

(١) ولد المرحوم اسماعيل باشا صبرى فى ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ وتوفى فى الساعة
نصف صباح من ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ بالغيا من العمر ٦٩ سنة وشهرا ويومين .
وكان دخوله فى المدرسة فى ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٣ هـ وخروجه من مدرسة الإدارة
بعد الابتدائى والتجهيز فى ٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ أو ١١ شوال سنة ١٢٩١
أى فى الثامنة عشر من عمره وأرسل فى ١٧ مايو من السنة عينها تلميذا بالارسلية المصرية
فأتمها فى ٢٥ ذى القعدة سنة ١٨٧٦ على شادة الكاليد باقا، الحققة من

بدأت فى ذلك العصر حركة أدبية مباركة محورها مجلة
« روضة المدارس المصرية » التى أنشئت فى ١٥ محرم
سنة ١٣٨٧ هـ . وكانت « تظهر فى الأسبوعين مرة واحدة » تحت
إدارة رفاة بك أولا ، ثم تولى شؤونها « ناظر قلم الروضة
ومطبوعات المعارف على بك فهمى نجل رفاة بك » وكان آخر
ظهورها فى سنة ١٣٩٤ هـ .

كانت هذه المجلة تصدر خصيصا للمدارس وكانت قبل
« الوقائع المصرية » الصحيفة الأدبية الوحيدة التى نُبأرى فيها
أقلام الطلبة الناشئين جنبا لجنب مع أقلام خول هذا العصر أمثال
رفاعة بك ، والشيخ حسين المرصفى أستاذ البارودى والمدرس
بدار العلوم الخديوية الذى كان ينشر فى هذه المجلة دروسا فى الأدب ،
وصالح مجدى ، وعبد الله فكرى ، ومحمد قدرى ، والشيخ حسين والى ،

== محكمة طنطا الابتدائية الأهلية فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، ورئيسا لمحكمة بنها الابتدائية
الأهلية فى سنة ١٨٨٥ ، ورئيسا لمحكمة أسكندرية الأهلية فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٦ ،
وقاضيا بمحكمة الاستئناف الأهلية بمصر فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٩١ ، ونائبا عموميا
من الحضرة الخديوية لدى المحاكم المذكورة فى ٢١ أبريل سنة ١٨٩٥ ، ومحافظا
لنجر الأسكندرية فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٦ ، ووكيلا لنظارة الحفانية فى ٣ نوفمبر
سنة ١٨٩٩ ، واستقال من الخدمة لبلوغه المرتب الكامل لوظيفته فى ٢٨ فبراير
سنة ١٩٠٧

وإسماعيل الفلكي وغيرهم فكان الشبان يجدون خير منشط لهم
في هذه المجلة التي كانت تنشر شعرهم وكانت لهم في الوقت نفسه
أستاذًا يحتذون على مثاله :

نشرت « روضة المدارس » في عامها الأول في عدد غاية
شوال سنة ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م قصيدة «تهنئة بالعيد الأكبر
لحضرة الخديوي الأعظم أدام الله علاه بقلم إسماعيل صبرى افندى»
وكان عمره وقتئذ ستة عشر عاما :

سفرت فلاح لنا هلال سعود	ونما الغرام بقلبي المعمود
وجأت على العشاق روض محاسن	فسقى الحياء شقائق التوريد
قسما بنور جبينها وبخالها	وسواد شعر وأحمرار خدود
وبقوس حاجبها وسهم لحاظها	وبخصرها وقوامها والجيد
ليطيب لى فى حبها ذلى كما	فى مدح إسماعيل لذ نشيدى
ومنها :	

سمح تراه اذا حلت بحيه أبدا يحن الى خصال الجود
يبدو صبرى الكبير من هذا البيت كما يبدو قرن الشمس من
خلل الغمام وقد بدأت تتفتق له المعانى الغريبة فيجتنبها، وتتهادى
أمامه الألفاظ العذبة فيقتنعها، وهذه لفظة «حى» ستتنقل فى شعره
من بيت الى بيت تنقل الأقمار فى منازلها .

ومنها مخاطبا «آل مصر» :

هيا اجتنوا ثمر العلى من روضه وتغياؤا فى ظله الممدود

هذا البيت يبين لنا عن منتجج خياله ناشئا، وقوله «يا آل مصر»
يذكرنا قوله «يا آل ودى عودوا ...» والقصيدة فى مجموعها تقليد
لكنه يشف عن شخصية فى طور التكون .

ونشر قصيدة أخرى فى ربيع الآخر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م)

مطلعها :

أغرستك الفراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر

ونشرت «روضة المدارس المصرية» فى يوم السبت ١٥ الحجة

سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) :

«تهنئة للحضرة الخديوية بعيد الأضحى من نظم إسماعيل افندى

صبرى من تلامذة مدرسة الإدارة والألسن» :

لا والهوى العذرى والوجد عذل عذولى فيك لا يجدى

إنى مع الصمد وطول الحفا باق على الميثاق والعهد

يا عاذلى أقصر وكن عاذرى ولا تطل لومى على سهدى

فشعره مهما تخيلته أظل أبكى فى الدجى وحدى

أفنديه من حلومليح البها تاه على الأغصان بالقـد

شوان من نحر الكرى لحظه فى قتلتى فاق على الحد

ماس دلالا ورنا قائللا بيض الظبي والسمر من جندي
وقد قلبي وانثني معجبا وقال لي كيف ترى قدي
وقال للورد أما تستحي مني اذا فتحت في خدي
تغزلي فيه ومدحي لمن رقي الى العلياء في المهدي
من مثل إسماعيل آراؤه باقية تهدي الى الرشدي

لقد عرّفتني هزرة حين وصلت الى قوله : «تاه على الأغصان
بالقد» والى هذا الشطر الآخر : «وقال للورد أما تستحي» لأن
كليهما ذكرني صبري الكبير ، وانها هزرة كالتى تعرفوا الانسان حين
يلقى رفيق صباه بعد طول بين واغتراب ويتفرس في ملامحه حتى
يعرفه لأيا بعد توهم .

ويظهر أن صبري بدأ من ذلك الوقت يحتل بفطنته وذكائه
مكانة في الأدب تسترعى الأنظار فقد نشرت «روضة المدارس»
في غرة شوال سنة ١٢٩١ هـ ١٨٧٣ م . قصيدة أشارت اليها
في الفهرس بقولها «تهنئة عيدية من نظم حضرة إسماعيل صبري
افندي أحد نجباء الارسالية المصرية المقيمة بفرنسا لتعلم العلوم
الادارية» ، ومهدت لها في الصحيفة التى نشرت فيها بقولها :
«قصيدة للفتن في فنون الأدب حضرة إسماعيل صبري افندي»
وهذا نص القسم الغزلى منها :

كلامكما ان كان مثل سهام
 اذا رمى قتل بغير لواحق
 وان رمى الى باللام سلامة
 بروحى الذى لولا اغار من الصبا
 وسقىا لدهر بالأمانى محجل
 فيازمنا ما خلته غير سكرة
 للام أقاسى ما أقاسى من الجوى
 وحتام يبدو ما أحب لناظرى
 لعمرى ذا ظلم الحسين بعينه
 أيا قلب كم تقوى لجل الذى أرى
 وكم يا فى تفنى الزمان تغزلا
 فقاى كحصن لا يلين لراى
 دعانى فدون القصد طول صدام
 أرفقكما يرضى صيال حسام
 عليه لما أنحرت عنه سلامى
 أدركنا به للانس غرة جام
 مضيك أبقى لى نهار غرام
 ومن معشر هاموا بترك هيامى
 ودون حصول القرب ألف محام
 أرى المراء لكن لا يبل أوامى
 ويا جفن كم تجفو لذيد منام
 ومدح الخديوى فوق كل كلام

ألا تحس معى أن فى هذه الأبيات أثرا من آثار الحنين الذى
 يساعد على نضوج الشاعرية وأن كثرة المران جعلت شاعرنا يصيب
 الهدف فى هذا البيت :

فيازمنا ما خلته غير سكرة
 وفى هذا البيت الآخر :

أيا قلب كم تقوى لجل الذى أرى
 ويا جفن كم تجفو لذيد منام

هذا ما وقفنا عليه من نشأة صبرى والذى يعيننا هو أنه
 كان يقول شعرا يشف عن سلامة الذوق وصفاء النزعة، وقد
 نشرت "الوقائع" في ٢٩ يونيه سنة ١٨٩١ م ١٣٠٨ هـ قصيدة
 «لإسماعيل بك صبرى رئيس محكمة الاسكندرية» يهنيء بها
 الخديوى توفيق بعيد الجلوس مطالعها :

عش للعلا مولى وذخرا	واسطع بأفق السعد بدرا
هذا جلوسك عيده	ملا الملا بثرا وبشرى
يوم بطالع يمنه	وجه الزمان غدا أغرا
ألبيسته مننا تهز	معاطف الأيام كبرا
واياب عباس كساه	جلايبا للحسن أخرى
حنت اليه تشوقا	مصر فعاد يؤم مصرا

وظهرت له حوالى هذه السنة قصيدة أخرى أذكر منها أبياتها

الأولى :

لم يدر أن ملامه أغرا كا	إذ لج في بهتانه ونها كا
ياحبذا عدل العذول لو أنه	داواك من ألم الهوى فشفا كا
قف بالديار وحى ربعا دارسا	لو يستطيع إجابة حياكا
وانثر دموعك فى ثراه صباية	عل البكاء يزيل بعض جواكا

أترى تنال من البخيلة نظرة تأسو جراحك أو تبلى صداكا
مهلا أبا العباس فى طرق العلا واستبق منها فضيلة لسواكا
هل فى السماء فضيلة لم تحوها تبغى لأجل نوالها الأفلاكا

هذا الشعر يبين عن بطلان نضوج صبرى الذى بلغ سبعة وثلاثين عاماً ولحكك تراه يقامد البحتى ويمجى فى غباره فى حين أن البارودى جود فى صباه ونضج قبل هذه السن ، وكان «أحمد أفندى شوقى أحد موظفى السكرتارية» فى ذلك العهد ينشر شعرا فى "الوقائع المصرية" يفضل هذا الشعر . لا أظن أن الأمر فى ذلك يرجع الى المحفوظ الذى يستمد منه بعض الشعراء قوة السبك فيسترون بها ضعف النفس الشعرى فى أوائل الشباب أو أواخر الكهولة ، أو يرجع الى الذوق الذى يقولون أن نضوجه يحتاج الى مران طويل ، واعتقد أن الأمر يتوقف من جهة على الاستعداد الفطرى ، ومن جهة أخرى على المؤثرات الخارجية فى الحياة ، وهذه عوامل قد يجهلها الشعراء أنفسهم أحيانا .

وينحى الى أن صبرى فى هذه الشقة من العمر كان يفتح كتاب الوجود ويتأمل فيه الطريقة البكر التى لم يفتزعها قبله شاعر ولكنه لم يهتد إليها إلا بعد أن حال لون النهار وكان مساء ، فجاء شعره كالشفق المذهب يجمع نوره فى أفق الحياة عند الغروب .

الفصل الثنائي

سلامة الذوق

يجدر بنا قبل التكلم عن شعر صبرى أن نقول إن صبرى لم يلقب « بشيخ الشعراء » إلا لأنه جمع بين مزايا ثلاث : فضل السبق في السن ، وفضل السبق في قول الشعر والتبريز فيه ، وسلامة الذوق .

وإذا كان لشعر صبرى وأغانيه أثر واضح في تهذيب الأدب العصرى لفة وشعرا فقد كانت لذوقه النقد أثر لا عيب فيه إلا اختفاؤه عن أعين الجاهل اختفاء الجدول العذب في الفاف الغاب .

نشأ صبرى وهو تلميذ شاب في وقت ارتقى فيه الذوق الأدبى وحسبنا أن نقول إن البارودى كان في ذلك العهد قد جود في الشعر وإن الشيخ حسين المرصفى أحد أئمة النهضة الأدبية في مصر كان ينشر فصولا في الأدب ما زالت منها صافيا يرده طلاب الأدب الى اليوم . ويظهر أن صبرى أحب شعر البحترى صغيرا بخفاء نظمه في صباه نقي الديباجة حسن النسق يشف عن رقة في الطبع والاحساس والذوق .

إذا أضفنا الى ذلك أنه أتم تعليمه فى أوروبا ودرس لغة
الافرنج وأدبهم وأن العناصر الأولى التى ألف منها ذوقه قبل سفره
كانت سليمة لا تشوبها شائبة أدركنا كيف امتاز صبرى على أهل
عصره بذوقه وكان عمدة الشعراء والأدباء يأتون برأيه .

كانوا جميعا يؤمنون داره، وكانت داره تذكرنا الأندية الأدبية
فى القرن السابع عشر فى فرنسا، تلك الأندية التى يرجع اليها الفضل
فى تهذيب اللغة الفرنسية وتجنب الكلمات الحوشية النافرة لأن
السيدات كن فيها الآمرات النهايات يحاسبن على كل لفظة
ويتلطفن فى الخطاب .

أليس شوقى هو القائل :

أيام أمصر فى غبارك ناشئا نهج المهارة على غبار خصاص
اتعلم الغايات كيف ترام فى مضمار فضل أو مجال قواف
ومطران :

أى صاحبي لقد قضى استاذنا البر الحبيب
فمرا قلادتنا — وكا نت زينة الدنيا — شحوب
وحافظ :

لقد كنت أغشاه فى داره وناديه فيها زهى وازدهر
وأعرض شعري على مسمع لطيف يحس نبسو الوتر

ولقد صدق الأستاذ مصطفى صادق الرافعي فيما كتبه^(١) :

«ولم يكن في مصر من يحسن ذوق البيان ويميز أقدار الألفاظ بعضها من بعض وألوان دالاتها كالبارودي وصبري وإبراهيم المويلحي والشيخ محمد عبده رحمهم الله جميعا . والبارودي يذوق بالسليقة وصبري بالعاطفة والمويلحي بالظرف والشيخ بالبصيرة النفاذة . وذلك شيء ركبته الله في طبيعة صبري ولم يحصله بالدرس أكثر مما حصله بالحس ومن أجله كان يفضل البحري على غيره» .

ومما أذكره أنني عرضت عليه مرة قصيدة كنت نظمتها في العام الهجري وشرتها جريدة المؤيد سنة ١٩١٢ فاستحسن منها هذين البيتين :

مضى العام مذموم الفعالم مشيدا بأنة محزون ودمة مشفق
فلا الغرب في ساح اليقين بمهتد ولا الشرق من رق الاسار بمعتق

ثم قال لي : «أولى بك أن تنظم خمسة عشر بيتا من هذا الطراز بدلا من أربعين» ، من ذلك يتبين حب الرجل للاتقان . وكان كثير الإعجاب بشوقي ، يقول شوقي ينظم ، وحافظ يبنى ، ومطران

(١) المقتطف في مايو سنة ١٩٢٣

يبتدع» ،ولما قال مطران قصيدته الميمية فى حرب طرابلس طرب
وكاد يحن بها جنونا وكان ينشد منها هذا البيت مرارا :

يقول للعلم الخفاق فى يده فى من الأرض ما تختار يا علم
وقابل مطران بعد ذلك فقال له : « لقد أسكرتنى ، أنك فت
الشعراء بستائة عام » .

ولقد كان صبرى يطالع قليلا كل مساء فى دواوين شعراء
الافرنج ، وكان كلما طالع قصيدة عربية أو افرنجية استكرم ثم
قطف . قرأت له ذات يوم قصيدة عينية للبحترى فأعجب أيما
إعجاب بقوله :

لو أن أنواء السحاب تطيعنى لشفى الربيع غليل تلك الأربع
ما أحسن الأيام لولا أنها يا صاحبي اذا مضت لم ترجع
ومما كان يطرب له من شعر البحترى قوله :

وقفة بالعقيق اطرح ثقلا من دموعى بوقفة فى العقيق
وقوله فى الفراق :

ولقد تأملت الفراق فلم أجد يوم الفراق على امرئ بطويل
قصرت مسافته على متزود منه لدهر صباية وعويل

وقوله في مرثية أبي سعيد :

فليهنأ الأروام بعدك إنهم

هدأوا بأطراف الدروب وناموا

امنوا وما امنوا الردى حتى انطوى

في الترب ذاك الكر والأقدام

وقوله :

وبود الحدو لو تضعف الجيد ش عليهم وتصرف الآراء

وكان يعجب بقول الآخر :

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة ردى على فؤادى مثلما كانا

لا بارك الله في الدنيا اذا افترت أسباب دنياك من أسباب دنيانا

وقول من قال :

لا يهنئ الناس ما يرعون من كلاء

وما يسوقون من أهل ومن مال

حسب السليبين نأى الأرض بينهما

هذا عليها وهذا تحتها بالى

وقول ابن خفاجة :

يقابلنا الصباح ببطن حزوى فينكرنا ويعرفنا الظلام

فياطل الشباب وكنت تندى على أفياء سرحتك السلام

وقول الآخر :

هات يابرق قل حديثك عن نجب . يد فحيا الإله عنى نجدا
قل وان كان ما تحدث زورا فلقـد تبرد الأكاذيب وجدا

وكان اسماعيل رحمة الله عليه في جميع حركاته وسكناته مثالا
عاليا للذوق يتأنق فيها من غير كلفة وتصنع كما يتأنق الربيع في الباس
الأرض حلة عروس .

ولا ريب أن الذوق من أكبر عوامل النهضة الأدبية واللغوية
والاجتماعية لاسيما في طور الانتقال ، وقد كان صبرى ذوقا لا يدانيه
في فن الذوق مدانى .

على أن ذوق صبرى الذى زاد صقلا ورونقا مع طول المران
يتجلى في شعر كهولته ، وهذا شعر خالد ذاع الكثير منه على كل
لسان ، ومن تأمل فيه رأى دقة الصنع ، وصفاء الطبع ، وسمو الخيال .

الفصل الثالث

شعر الكهولة

بدأ شعر صبرى ينضج فى كهولته وقت أن كان البارودى
فى منفاه، وكان شوقى فى صباه يجرى على الأثر «جرى المهار على
غبار خصاف»، وقد نظم شوقى سنة ١٨٩١ م قصيدة فى مدح
المغفور له توفيق باشا مطلعها :

مضى وليس به حراك لكن يخف إذا رآك
جاء فيها :

ما همت فى روض الحمى إلا وأسكنى شذاك
والقلب مخفوض الجنا ح يهيم فيه على جناك
جاراه صبرى بقصيدة مطلعها :

وجد يؤججه جفاك ولظى تسعره نواك

ولكننى لم أعر على هذه القصيدة ويقال أنها من شعره الجيد
ولعلها أول أثر من آثار النضوج الشعرى عند اسماعيل .

ومما يثبت نضوجه في هذه الآونة قصيدة أخرى نشرتها له
« الوقائع » في ٢٤ أبريل سنة ١٨٩٣ هنا بها الخديوى عباسا بعيد
الفطر، وكان وقتئذ « اسماعيل بك صبرى وكيل محكمة الاستئناف
الأهلية » ، وهذا نص القصيدة :

وبقدرك الأسمى يتيه تكبرا	بعلاك يخال الزمان تنخسرا
كالروض حياه الربيع فنورا	ومفاحر الآباء زاد جمالها
ليل الخطوب بحسن رأيك نيرا	حسب الديار ديار مصر اذ ادجى
مولى يلد بأن تمام ويسهرا	وكفى الرعية أن يقوم برعيها
وبدت بمتنيه خلالك جوهرا	للملك سيف منك أحكم صقله
ان السيوف الهند حين رأيته	شهدت سيوف الهند حين رأيته
قد رد باترها المصمم أبترا	وعدت تقدر بأن ماضى حده
سيحدث التاريخ عنها الأعصرا	عباس قد سست البلاد سياسة
دقت على الحكماء أن نتصورا	أنفذت حكمك بادها بمسائل
فلو ان رسطاليس ثم لكبرا	طربت لحكمتها الشيوخ وأذعنت
للحق نهجا كاد أن يتنكرا	زيفت قول المرجفين مبينا
فأريتنا يأجوج والاسكندرا	وبنيت سدا من ذكائك دونهم
مصر على البلدان ذبلا أخضرا ^(١)	يا صاحب النيل الذى جرت به

(١). لا أظن القارئ بحاجة الى تنبيهه الى ما فى هذا البيت من جمال التصوير .

حققت آمال البلاد وجزتها
 رامتك شبلا كي تعز عرينها
 همم اذا مدت لمفتخر يدا
 وعزيمة ميمونة لو لامست
 لله كيف ركضت في طرق العلا
 لو أن غيرك سالك هضباتها
 لكن جاشك لا يمكن منهجا
 ياليت أصلا أنت خير فروعه
 ويراك تبني المجد مثل بنائه
 وتحير الدنيا بسيرتك التي
 يابن الذين سموا لأبعد غاية
 عزز بناءهم الذي قد وطدوا
 وتول تذليل الصعاب فانها
 ان الذي جعل العزائم بعض ما
 لم يخلق الله الشهامة في امرئ
 ومغالb العقبات حتما غالب
 بشرى فشهر الصوم أقبل باسمها
 ويشيك الأجر المضاعف راحلا
 شأوا وما جزت الشباب الأنضرا
 فأبيت إلا أن تكون غضنفرا
 لا ترتضى إلا الأعز الأكبزا
 صخرا لعاد الصيخر روضا أزهرها
 فقطعتها حيث المجود قصرا
 ورأى مجاهل سبلها لتعثرا
 يفضى الى العلياء أن يتوعرا
 يوما يرد الى الحياة لينظرا
 وتذود عن حوض الجدود مظفرا
 قد سارها قدما فأكبرها الورى
 فتسمنوا القرن الشواخ والذرى
 تشكر وشيده يشدلك مفخرا
 مرهونة حتى تقول وتأمرا
 أوتيت قدر أن تعان وتنصرا
 إلا لخير قد أراد ودبرا
 إلا اذا اطرح الثبات وأقصرا
 يهدى اليك من السلام الأعطرا
 اذ كنت أفضل من يثاب وأجدرا

شهر كما زنت الامارة ناشرا فينا لواء العدل زان الأشهر
 لله در ندا كما فلقد جرت أيامه أجرا وكفك أبحرا
 بشراك بالعيد السعيد فانه قد أم بابك راضيا مستبشرا
 ورأى بناديك البهى مهابة كتبت على جنبات عرشك أسطرا
 واهنا فان لنا هناء طيبا فى أن تسربه وحظا أوفرا

هذه قصيدة بحترية صرف ، وهى من أصفى الشعر العصرى
 جوهرًا ، ومن أراد أن ينظر كيف يحاكي الفرع الأصل فليأمل
 هذه القصيدة ، وقصيدة «فرعون وقومه» ، وقصيدته التى هنا بها
 المرحوم السلطان حسين حينما أسند اليه منصب السلطنة المصرية
 وقصيدته «الى الأمير عمر باشا طوسن بمناسبة اتانته جرحى الحرب
 البلقانية» ، وقصيدته التى قالها سنة ١٩١٤ فى «حفلة تكريم
 واصف بك غالى» ، وقصيدته التى قالها فى حرب طرابلس ،
 وقصيدته التى «عزى بها السلطان حسين بفقد والدته سنة ١٩١٧» ،
 وقصيدته التى هنا بها الخديوى عباس سنة ١٩٠٨

على أن هذه القصائد ليست بحترية بأسلوبها وحده بل بالروح
 التى تشف عنها ، وهذا يدل على شدة تعلق صبرى بالبحترى ونسجه
 على منواله . وهذا البارودى قد نسج على منوال البحتري ولكنه
 لم يتعلق به تعلق صبرى بفناء شعره يحاكي شعر البحتري فى إحكام

الصناعة ، وصقل الديباجة ، ولكن تنقصه هذه الروح التي
تطل من أول شطر في قصيدة صبرى : ” بعلالك يخال الزمان
تجترا “ .

وأذكر مرة أن حافظ حدثني في الطريق عن البحترى والمتنبى
فقال : « البحترى شاعر يفتح ذراعيه في الطريق لمن يقابله ويأخذه
بالخصن ، أما المتنبى فيجب أن تقف أمامه زنهار وتضرب سلام »
وهذا أحسن تصوير للبحترى وروحه ، وكذلك كان صبرى
في حياته وشعره .



ولكن شخصية صبرى الحقيقية لتجلى في خمس أو ست
قصائد أخرى قصيرة وفي مقاطيعه التي ضرب فيها على وترين وتر
الحكمة ووتر الوجدان . وقد وصف خليل مطران الطريقة التي
يجرى عليها في نظمها ، قال : « أكثر ما ينظم فالخطرة تنخطر على
باله من مثل حادثة يشهدها ، أو خبر ذى بال يسمعه ، أو كتاب
يطالعه .

ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراته نفسه على ما تدعوه إليه
فالغالب في أمره أنه يقول الشعر متمشياً وربما قاله بحضرة صديق
وهو مائل عنه بعنقه وله بين حين وحين أنه بمثل ما تنطق لفظة

«إيه» مستطيلة • ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة الى أربعة الى ستة وقلمما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدة وهو نادر • شديد النقد لشعره كثير التعديل والتحويل فيه حتى اذا استقام على ما يريد ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه • وهكذا يمر به الآن بعد الآن فيجيش فى صدره الشعر فيرسل بيتيه اطلاق زوجى الطائر فيذهبان فى الفضاء ضارين من أشرهما بأجنحة ملتمة شادين على توقيع العروض الى أن يتواريا وينقطع نغمهما من عالم النسيان ذلك هو الشعر للشعر •

كان صبرى فى حياته يترع كثيرا الى قول الحكمة ولكنه لم يوفق فيها كما وفق فى شعره الغنائى الذى امتاز به على جميع معاصريه بلا مرأى •

ولا أعرف له فى الحكمة عدا المقاطيع إلا قصائد "الدواة" و "الساعة" و "نجم هالى" وعرشية أمين باشا فكرى : وفى هذه القصائد تنعكس الحياة وساعاتها والوجود وصوره كما تنعكس الطلول البوالى على صفحة البحيرة الصافية، واو أن الدنيا تمثالت شخصا لما خاطبها صبرى بأحسن من قول أبى تمام يخاطب عمورية :

ولا انخدود وان أدمين من نجل

أشهى الى ناظرى من خدك الترب

ذلك بأن صبرى شاعر جرب الحياة وذاق حلوها ومرها
 واشتبهت عيناه فى وجوه الأمم والرجال التى حدى فيها طويلا فعلا
 وجهه منها ذلك الشحوب البادى وارتسم عليه ظل من الكابة
 كانت تلطفه ابتسامة شفقيه ، وهل صور شاعر قبله الحياة بمثل
 قوله :

وان تجد من بينها ساعة جعبتها من غصص خالية
 فانه بها هو الحكيم الذى لم ينسه حاضره ماضيه
 وأمرح كما يمرح ذونشوة فى قلة من تحتها الهاوية
 وهل قال أحد فى الوجود وساكنيه مثل قوله وهو من
 الأبيات الجامعة :

تعب الفيلسوف فى الناس عصرا

وتولى السرائر الدين عصرا

وقوله وهو من السهل الممتنع النادر :

عبر كلها الليالى ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرا

ثم انظر كيف يخاطب نجم هالى :

هل تلقيت من لدن خاذل البا غى وحامى الضعيف يا نجم سرا
 أغدا تستوى الأنوف فلا يند نظرقوم قوما على الأرض شزرا
 أغدا كلنا تراب ولا مد لك خلاف التراب برا وبحرا

أغدا يصبح الصراع عناقا فى الميولى ويصبح العبد حرا
ان يكن كل مايقولون فاصدع بالذى قد أمرت حيث عشا

أبيات تشف عن شغل الحكيم الشاغل فى هذه الحياة، عن
ذلك المشل الأعلى للحرية والإخاء والمساواة الذى أراقت الأمم
دماءها على بابه المنكود ، ويريد شاعرنا أن يصل اليه من طريق
الموت والعالم الأبدى .

وقد تجلى هذا الشغل الشاغل فى قصيدة ” الدواة “ حيث
يقول :

واذا الظلم والظلام استعانا يوم نحس بأجهل الجاهلينا
واسمدا من الشرور مدادا فاجعليه من قسمة الظالمينا

وحيث يقول :

واذا كان فيك نقطة سوء كؤنت من خبائثة تكوينا
فاجعليها قسط الذين استباحوا فى السياسات حرمة الأضعفينا

وحيث يقول للأترالك بعد الدستور :

الحق أبلغ سلوا دون بيضته قبل السيوف سيوفا من براهين
لا تلبسوا ثوبه بين الأنام غدا ملوئا بدم القوم المساكين

ويدخل أيضا فى هذا المعنى قوله يخاطب عباس وقد صاغ

النصيحة في قالب تقرير حقيقة واقعة وهذا غاية في الأدب وحسن
السياسة :

ياليت أصلا أنت خير فروعك يوما يرد الى الحياة لينظرا
ويراك تبني المجد مثل بنائه وتدود عن حوض الحدود مظفرا
وقوله :

مستنجدا من بنى مصر الى شمم اذا رأوا ثلثة في حوضهم جبروا
ولا يفوتنا أن نقول ان فى بيت صبرى :

أغدا يصبح الصراع عنقا فى الهوى ويصبح العبد حرا
لمشهدا من أجل المشاهد التى لا يمكن عينا أن يحيط بها . ويظهر
أن شاعرنا مولع بالمشاهد الواسعة ، وهذه النزعة تتجلى فى قصيدة
”فرعون وقومه“ . من هذه المشاهد ما يتناوله الحس كقوله :

وآزرتة جماهير تسيل بها بطاح واد بماضى القوم ملا ن
ومنها ما يتناوله المعنى كقوله فى وصف الاهرام :

كأنها والعوادى فى جوانبها صرعى بناء شياطين لشیطان
وقوله فىمن شادوها :

بادوا وبادت على آثارهم دول وأدرجوا طى أخبار وأكفان .
وخلفوا بعدهم حربا مخلدة فى الكون ما بين أحجار وأزمان .

ولعل أجود شعر قاله صبرى فى الحكمة كان شعر الحياة
والموت ، قال رحمه الله يصف « راحة القبر » :

ان سميت الحياة فارجع الى الأر	ض تم آمنا من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأ	م التي خلفتك للآعاب
لا تخف فالممات ليس بباح	منك إلا ما تشكى من عذاب
كل ميت باق وان خالف العند	وان ما نص فى غضون الكتاب
وحياة المرء اغتراب فان ما	ت فقد عاد سالما للتراب

حدثنى حافظ أن هذا البيت الأخير أجود معنى قاله صبرى :
وينحيل الى أن روح أبى العلاء تطل من كل بيت من هذه
الآبيات ، أليس هو القائل :

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ

يجسم فيها والعيش مثل السهاد

ولكن أبا العلاء ينظر الى الأرض نظرة أخرى تشف عن
جوى باطن :

خفف الوطء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

ينظر اليها نظرة الشاعر الفرنسى « الفريددي فىنى » الى

الطبيعة في قوله : « انهم يسمونك أما وما أنت إلا قبر » ، ونظرة
شوق في قوله :

عقت بنيا ظاهرا وأظن باطنها أعما



عند الإفرنج نوع من الشعر يدعى (Lyrique) نسبة إلى (Lyre) وهي القيثارة ولا أدري ما الذي يمنعنا من تسميته بالشعر الغنائي فإن هذا الضرب من الشعر كان يغنى به في القرون الوسطى وهو شبيه بالأغاني في الشعر العربي .

وقد تفنن صبرى في هذا الشعر الوجداني ونظم فعلا للغناء أدوارا خاصة، منها : (الفجر لاح قوموا يا تجار النوم) .
ومن أدواره المشهورة دور للغناء قديم على نغمات العود :

مذهب بياتي

قذك أمير الأغصان	من غير مكابر
وورد خذك سلطان	على الأزاھر
دا الحب كله أشجان	يا قلب حاذر
والصدو يا الهجران	جزا المخاطر

دور

يا قلب أدنت حبيبت ورجعت تتقدم
وصيحت تشكى ما رأيت لك حد يرحم
صدقت قولى ورأيت ذل المتهم
يا ما نصحتك ونهيت لو كنت تفهم

دور

أعرض لحسنك أوراق واكتب ودون
وأبات صريع الأشواق واحسب وانحن
دا هجر وصباية وفراق يارب هون
وارحم قلوب العشاق دا شئ يحزن

وشعره الغنائى أنواع منها النوع المتقدم الذى جعل خصيصا
للغناء، ومنها ما تختلله نزعة دينية — وقد نظم لامرتين من هذا
النوع ديوانين — مثال ذلك قول شاعرنا :

الى الله

يارب أين ترى تقام جهنم
للظالمين غدا وللأشرار
لم يبق عفوك فى السموات العلى
والأرض شبرا خاليا للنار

يا رب أهانني لفضلك وا كفى
 شطط العقول وفتنة الأفكار
 ومر الوجود يشف عنك لكي أرى
 غضب اللطيف ورحمة الجبار
 يا عالم الأسرار حسبي محنة
 علمي بأنك عالم الأسرار
 أخلق برحمتك التي تسع الوري
 ألا تضيق بأعظم الأوزار

هذه الأبيات من خير ما قيل في الاستعطاف والرجاء ، وهي
 من أرقى الشعر الغنائى الذى يعلو بالعاطفة الدينية الخالصة الى السماء
 كما تعلو الصلوات لله ، وما أكثر الشبه بين قوله :

ومر الوجود يشف عنك لكي أرى
 غضب اللطيف ورحمة الجبار
 وقول لا مرتين :

Et j'ai monté devant sa face.
 et La nature m'adit passe.
 Ton sort est su blime, Il t'a vu.

«صعدت أمام وجهه الكريم ، فقالت لى الطبيعة سر فى طريقك ،
 ما أعظم شأنك ، انه رآك » .

فأنت ترى كيف التقى الشاعران فى سمو الخيال وصفائه . على
أننا اذا قلنا ان شعر صبرى الغنائى كان شبيها بالصلاة التى تذهب
صعدا نحو السماء فقد كانت الطبيعة له معبدا ، وكانت المرأة فى هذا
المعبد «تمثال جمال» :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى	أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء
فرقتهم فى الهوى ثاراتهم	فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذى	فيه للأففس رى وشفاء
لا تذودى بعضنا عن ورده	دون بعض ، واعدلى بين الظماء
أنت يم الحسن فيه ازدهمت	سفن الآمال يزجيها الرجاء
يقذف الشوق بها فى مائج	بين الجين ، عناء وشقاء
شدة تمضى وتأتى شدة	تقتفيها شدة ، هل من رجاء
ساعنى آمال أنضاء الهوى	بقبول من سجاياك رخاء
وتجلى واجعلى قوم الهوى	تحت عرش الشمس بالحكم سواء
أقبلنى نستقبل الدنيا وما	ضمته من معدات الهناء
واسفرى ، تلك حلى ما خلقت	لتوارى بلثام أو خباء
واخطرى بين الندامى يحلفوا	أن روضا راح فى النادى وجاء
وانطقى ينثر اذا حدثتنا	ناثر الدر علينا ما نشاء
وابسمى ، من كان هذا ثغره	يملا الدنيا ابتساما وازدهاء

لا تخافى شططا من أنفس تعثر الصبوة فيها بالحياء
راضت النخوة من أخلاقنا وارتضى آدابنا صدق الولاء
فلو امتدت أمانينا الى ملك ما كبرت ذاك الصفاء
أنت روحانية لا تدعى ان هذا الشكل من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب بين لئلا تتكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناحى ملك خلف تمثال مصوغ من ضياء

نشرت هذه القصيدة لأول مرة في "المجلة المصرية" في يونيه سنة ١٩٠١ ، وهذا ما قاله خليل مطران بهذه المناسبة : « كانت الغزليات قبل الآن فيها ما يمس الآداب العمومية من ذكر القدود والنهود والفم والعناق ورقة الخصر وكثافة الردف ولقد كان هذا من العام حتى في قصائد المديح للولك والأمراء وهو ما لا ترضاه الأذواق في هذه الأيام وينكره علينا أدباء الغرب . وقد سئل صاحب السعادة المفضل اسماعيل باشا صبرى نظم أبيات تنقل الى اللغة الفرنسية وتجعل في كتاب يؤلف الآن في مختار الشعر العربى قديمه وحديثه بخادت قريحته الوقادة بهذه الأبيات التى جاءت على الطريقة الصوفية من حيث سمو الخيال ونزاهة الشيمة وغرابة الوضع ولعلها أحسن ما جمع فيه بين الأسلوبين العربى والغربى . فى نظم الشعر . »

يحب صبرى المرأة لأنها تمثل الجمال وهو ينظر اليها نظرة المصور
الماهر الى دمية جميلة يجدها فى جمالها ظلالا يتزوى فيه من هجير الحياة :
ان هذا الحسن كالماء الذى فيه للأُنفس رى وشفاء

وقد يفتن الجمال المصور أو الشاعر ويسموبه الى أعلى مراقى
الخيال ، فتتمثل المرأة كأنها قطعة من النور الإلهى هبطت على الأرض
لتلقى عليها عزاء وسلاما . وهنا يقف الشاعر موقف العابد ، وتصفو
نفسه ، وتعلو كقطعة من نور تلتقى بالأخرى ثم لتلاشيان تلاشى
الموجتين على ساحل الفناء :

لا تخافى شططا من أنفس تعثر الصبوة فيها بالحياء
فلو امتدت أمانينا الى ملك ما كدرت ذاك الصفاء
وانزعى عن جسمك الثوب بين لللا تكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناحى ملك خلف تمثال مصوغ من ضياء

وأعرف لصبرى أبياتا أرق من نسيمات السحر ، تكاد تبعث
ميت الهوى ، وتعيد أيام الشباب النضر ، وتفجر الماء الزلال من
الصخر ، قال رحمه الله شا كيا مسترحما :

أبئك ما بى فأن ترحمى رحمت أخا لوعة مات حبا
وأشكو النوى ما أمر النوى على هائم ان دعا الشوق لبيا
وأخشى عليك هبوب النسيم وان هو من جانب الروض هبا

وأستغفر الله من برهة من العمر لم تلقني فيك صبا
تعالى نجدد زمان الهناء ونهب لياليه الغر نهباً
تعالى أذق بك طعم السلام وحسبي وحسبك ما كان حرباً

أجل ، كانت المرأة شغل فؤاده ، وقد بلغ من تعلق شاعرنا بها
أنه كان يراها في حاضره ، وكان يراها بعين الذكرى في ماضيه ،
ومن ذا الذي يذكّر روض الشباب ولا يذكّر القمارى ، فينشد :

تمسى تذكرنا الشباب وعهده حسناء مرهفة القوام فنذكر
تثب القلوب الى العيون اذا بدت وتطل من حدق العيون وتنظر

وتارة :

أنخفق فؤادى فما الذكري بفاعلة ولا بشافعة فى ردّ ما كانا
سبلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصبا بة فاخفق وحدك الآن

كان صبرى يرى المرأة فى صورة ملك ، وقد يراها غيره فى صورة
الدنيا التى قال فيها أبو نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عذوق ثياب صديق

والتي قال فيها ابن المعتز: «وعد الدنيا الى خالف ، وبعد أمانها
الفيجع ، طواحة طراحة ، آسية جراحة ، كم راقد فى ظلها قد أيقظته ،
ووائق بها قد خانتها ، حتى يلفظ نفسه ويودّع دنياه» .

وكان يراها فى صورة ريحانة تحسد السماء من أجلها الأرض :
 يراحة القلب يا شغل الفؤاد صلى

متى أنت فى الحالىن دنياه
 زنى الندى وسيلى فى جوانبه
 لطفا يعم رعايا اللطف رياه
 ريحانة أنت فى صحراء مجدبة

من الرياحين حيانا بها الله
 ان غاب ساقى الطلا أو صدى لاجرج
 هذا جمالك يفتينا محياه

أليس يخيل اليك أن هذا الشعر نغمات موسيقية هبطت علينا
 خلصة من السماء هبوط الندى فى ليلة من ليالى الربيع ، تلك نغمات
 قشف عن نفس محزونة تحن الى منازل الكمال فى ذلك العالم العلوى
 كما يحن غريب الدار الى الأوطان ، وهذا الحزن أكبر مميزات الشعر
 الغنائى ، شعر العاطفة والوجدان ، ولعل مطران أشار الى ذلك
 بقوله :

بلغ الحقيقة شاعر ما غره الوهم الكذوب
 أوفى على عدن وما هو عن محاسنها غريب

كان شاعرنا يفتش عن الحقيقة وهي ظل الرجل في دنياه
كلما تبعها أمعنت في الهرب ، قال من أبيات له يخاطب سيدة
رعى الكسندرا :

انثرى الدر يا سمية اسكند بدر لا فض عقده في فيك
وأميطى عن الحقيقة ما يح يجب عنا جمالها من شكوك

والشاعر الغنائى أبدا يهيم في وادى الغرائب ، ويتخذ الجمال
ومظاهره في هذه الحياة الدنيا سلما من ضياء يرقى به أسباب السماء .
ذلك بأن أزاهير الأرض سريعة الذبول ، ونجومها سريعة الأفول ،
وجمالها سريع الزوال كالنار لا تلبث أن تحور رمادا ، وهذا الرماد
الذى يذوقه كل من أحب وجرب وعاش وشب في حجر الجمال
يجبب الى الانسان طعم العدم والفناء ، ويدفعه الى مناجاة الموت
مناجاة الالف أليفه :

ياموت خذ ما أبقيت الأ يام والساعات منى
ببنى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

وقد حدثت لصبرى وهو محافظ الاسكندرية حوالى
سنة ١٨٩٧ رضوض على أثرا صطدام القطار به في طريقه الى القاهرة
فظل غائبا عن الوجود خمسة عشر أو عشرين يوما . روى لى حافظ

أنه قابله بعد إبلاله فقال له صبرى مامعناه : «وددت أنى لم أفق
فقد ذقت مرارة الوجود» .

على أن هذا الرجل الذى كان يحب فى الموت ذلك «المنتقد
السماوى» ، كما كان يسميه لامرئين ، ما كان أشدّ جزعه كلما رأى
الصراع القائم فى هذه الدنيا بين الموت والجمال ، ورأى البلى يغير
على حسن الوجوه ، والفناء يدب فى مخضر الشجر .

وهل بكى شاعر حبه للطبيعة ، وودّ لو نزل منها مكان سمعها
وبصرها ، وظل بين نحرها وصدرها ، حتى تواريه فى قبرها ، بمثل
قوله يناعى سرحة الحى :

عار عليك وهذا الظل منتشر فتك الهجير بمثل فى نواحيك
فمن معيرى جناحى طائر غرد كى أقطع العمر شدوا فى أعاليك
ثم انظر كيف رثى ابنا صغيرا للشيخ على يوسف بأبيات
ارتجلها يوم دفنه ، وقال عنها المؤيد أنها "لصديق" من كبار
الشعراء :

يامالى العين نورا والفؤاد هوى والبيت أنسا تمهل أيها القمر
لا تخل أفقك يخالفك الظلام به والزم مكانك لا يحلل به الكدر
فى الحى قلبان باتا يا نعيمهما وفيهما اذ قضيت النار تستعر
وأعين أربع تبكى عليك أسى ومن بكاء الشكالى السيل والمطر

قد كنت ريحانة في البيت واحدة يروح فيه ويغدو نفحها العطر
ما كان عيشك في الأحياء مختصرا إلا كما عاش في أكامه الزهر
فارحل تشيعك الأرواح جازعة في ذمة الله بعد القبر يا عمر

لم يجد المرحوم الشيخ علي يوسف في رثاء ابنه أفضل من نشر
هذا الشعر لا سيما البيتين : « في الحى قلبان ... وأعين أربع تبكى
عليك أسي » . ذلك بأن صبرى أجاب في بكاء هذا الطفل
داعية الجمال ، وقد ذوى منه ذلك الفريع المتدلى في دوحته .

وقصارى القول كان صبرى في شعره الغنائى ينشد الحب
والموت والجمال والصدقة فكان يجد فيها ريا للنفوس الظماء ،
وكانت الصدقة تنزل من نفسه منزلة الحب فقال :

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجيين فاضا لوعة وغبابا
كأن صديقا في خلال صديقه تسرب أشاء العناق وغبابا

ولا أرى رأى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى في تعليقه على
هذين البيتين : " وهذا المعنى على ابداعه فيه متداول وأصله لبشار
— أظن — في قوله :

وبتنا جميعا لو تراق زجاجة من الخمر فيما بيننا لم تسرب

فأبدع صبرى فى أخذه وجعل من هذه الزجاجة المنصدة
جوهرة تتألق : على أنى لا أستحسن قوله « كأن صديقا » فما هذا
بعناق الأصدقاء .

وأرى اذا كان لابد وأن يكون صبرى قد أخذ هذا المعنى من
أحد قبله ، وهذا مالا أظن ، فقد أخذه من (Montaigne)
« مونتيني » الفيلسوف الفرنسى فى القرن السادس عشر الذى قال
فى موقف عناق : « وما كنت أدرى أكان هو أم أنا »
(Je ne sais pas si c'est lui, si c'est moi) يشير بذلك الى
فناء الشخصين أحدهما فى الآخر .

ثم انظر الى دقة تصوير الذكري التى تتمثل فى طيف الود
وتتدخل بلطف بين الصديقين المختصمين فتكسر السهم والقوس :
اذا خائى خل قديم وعقنى . وفوقت يوما فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فانشيت ولم ارم
على أن هناك ضربا من الشعر الغنائى أجاد فيه صبرى ، ذلك
هو حب الديار والأوطان ، قال الشاعر قرلين : « حب الوطن
أول حب وآخر حب بعد حب الله » ، وقال صبرى : « أحب
الحرية فى ثلاث : فى المرأة فى ظل زوجها ، وفى الرجل تحت ظل
شريعته ، وفى الوطن تحت ظل الله » . وقد يكون هذا الحب

حينما بحثنا كقوله عن لسان شوقي وهو بالأندلس (وهي أبيات غير
التي أرسلها شوقي إليه وقيل وقتئذ أن شوقي بعث بها الى حافظ) :
ياسا كنى مصرانا لا نزال على عهد الوفاء وان غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم شيئا نبيل به احشاء صاديننا
كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعد النيل الا عن أمانينا

وقد يكون هذا الحب تقريرا مرا لبني وطنه على القعود عن
الدود عن حقوق البلاد ، ولكنه تقرير في قالب هنزلى تتجلى فيه
تلك النكتة المصرية اللطيفة التي تشف عن دقة الملاحظة وخفة
الروح ^(١) . أنظر الى قوله على أثر استقالة وزارة مصطفى فهمي عن
لسان بعض أعضائها ، وقد نشرت هذه المقطوعات في أهرام
١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، قال عن لسان « مصطفى » بتوقيع بنتاؤور :
إننى أستغفر الله لكم آل مصر ليس فيكم من رجال

(١) نذكر بهذه المناسبة أن المرحوم صبرى باشا نظم مقطوعات فكاهية كثيرة
في حوادث شخصية شتى منها ما نشر وعرف لوقته ومنها ما لا يعرفه إلا القليلون
وذهب أكثره في عالم النسيان . فن النوع الأول ما قاله في « مصفوع » :
أنا نسل الأولى رفعوا بناء يرى للنسر فوق ذراء بيت
أريش يراعى بمداد خبثي وأنى لاح لي هدف رميت
وان أحد تعرض لي بسوء وفقت وراء صدغى واختفيت

نفل غربى ما أرى من نومكم
بح صوتى داعيا مستنهضا
لم أجد فيكم فنى ذا همّة
رحم الله وزيرا سامه
وقال عن لسان عبانى :

يا جنود البر والبحر اشهدوا
ذى يدى قد مزقتها لقم
ذاك جسمى رسم الدهر على
اننى عفت تكاليف العلى
رحم الله وزيرا عاملا
واستمعوا منى كلمات فصاح
تجتنى من فوق أطراف الرياح
كل عضو منه أهوال الكفاح
بينكم والعيش فى ظل الصفاح
ملئت نفرا يدها فاستراح

وقد يكون هذا الحب استنهاضا لقومه وحثا لهم على الاقتداء
بمثل حى فى أمة من الأمم الحديثة الناهضة . مثل ذلك :

نشر شوقى فى "أهرام" ١٨ ديسمبر سنة ١٩٠٨ قصيدة
فى الدستور العثمانى جاء فى ختامها :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب
صبرت للحق حين النفس جازعة
نلت الذى لم ينله بالقنا أحد
ما بين آمالك الألى ظفرت بها
حيالك من بيعت الموتى ويحييها
والله بالصبر عند الحق موصيها
فاهتف لا نورها وأحمد نيازيها
وبين مصر معان أنت تدريها

ثم كتبت الأهرام في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ ما نصه :
 « لما وصل أحد أهلام الشعر عندنا الى ختام قصيدة شوقى التى
 نشرناها يوم الاحتفال بفتح مجلس المبعوثان جاشت قريحته وقال :
 لو أنصف شاعرنا الأمير لأتم قصيدته بعد قوله يخاطب
 مجلس المبعوثان :

ما بين آمالك اللأى ظفرت بها وبين مصر معان أنت تدريها
 بما أقوله على لسانه ثم تناول القلم وقال ، (الأبيات
 لصبرى) :

يا مصر سبرى على آثارهم وقفى	تلك المواقف فى أسنى مجاليها
لا يؤئسبك ما قالوا وما كتبوا	بين البرية تضليلا وتمويها
إن يمنعوا الناس من قول فما منعوا	أن ينطق الحق بالشكوى ويبيديها
الحق أكبر من أن تستبد به	يد وان طال فى بطل تماديها
ما ضيع الله ظلمها أمة نهجت	الى المفارخ نهجا وهو هاديها
فقلدوا الأمة الكبرى وقدر كبت	متن الفخار وكان الجدد حاديها
تماسكت وهى شتى فهى واحدة	فى القصد حين رأت كثرا أعاديها
يا آية الفخر هلا تنزلين كما	نزلت ثم على مصر وأهلها
كما نجر ذيولا منك جررها	من قبلنا الترك فى أوطانهم تها
يا عابدين لأنت اليوم مصدرها	وفى ذراك باذن الله موحيا

وقد يكون هذا الحب حثا لقومه على الاقتداء بأمة من الأمم
الكبيرة فى الأعصر الغابرة ، وهل هناك مثل أقرب إلينا من أمة
الفراعنة التى يخاطبها فرعون بقوله :

لا القوم قومى ولا الأعوان اعوانى

إذا ونى يوم تحصيل العلاوانى

ولست أن لم تؤيدنى فراعنة

منكم بفرعون عالى العرش والشأن

ولست جبار ذا الوادى إذا سلمت

جباله تلك من غارات أعوانى

لا تقربوا النيل أن لم تعملوا عملا

فأوه العذب لم يخلق لكسلان

ولهذه القصيدة تاريخ لا يعرفه إلا القلياون ، ويجدر بنا أن
نذكره فإن خطر الموضوع لا يخفى على أحد . كان الأستاذ
خليل مطران بعث بقصيدة دالية إلى محمد بك مسعود بالمؤيد من
سقاره على أثر زيارته لأهرامها ، جاء فى هذه القصيدة عن فرعون

شاد فأعلى وبني فوطدا لا للعلى ولا له بل للعدا

مستعبدا أمته فى يومه مستعبدا بنيه للعادى غدا

وجاء فيها عن العمال المصريين الذين بنوا الأهرام :
 انى أرى عد الرمال ههنا خلائقا تكثر ان تعددا
 مجتمعين أبجرا منفرعين أمهم را منحدرين صعدا
 صفر الوجوه ناديا جباههم كالكلأ اليابس يعلوه الندى
 اكل هذى الأنفس الهلكى غدا تبني لقاب جدثا مخلدا

اطلع صبرى على هذه القصيدة التى تؤيد نظرية تخالف
 نظريته فنظم نوبته قائلا أن هذه البنايات لم تـم إلا على يد عمال
 كانوا يطلبون الاتقان الفنى إكراما للفن لا خوفا ولا طمعا .
 والحقيقة أن صبرى راعى فى نظريته ما يسمونه «بالوجهة التاريخية
 الوطنية» ، أما مطران فقد نظر الى الوجهة العلمية التى يؤيدها
 التاريخ فان بناء الأهرام ما كان إلا سخرة أرهقت الملايين من
 المصريين وأثارت السخط فى البلاد مدة قرنين ، ونظر أيضا الى
 الوجهة الاجتماعية القديمة فان الظلم من شأنه إفساد الأخلاق التى
 لا تحيا الأمم بدونها .

على أن شوق وفق بين النظريتين بطريقة شعرية فلسفية
 فى قوله :

ولمن هياكل قد علا البانى بها بين الثريا والثرى تنسق

هى من بناء الظلم الا أنه يبيض وجه الظلم منه ويشرق
 لم يرهق الأمم الملوك بمثلها نخرأ لهم يبقى وذكرا يعبقى
 وقد نظم خليل مطران ردا على قصيدة صبرى نونية أخرى
 لم يسبق نشرها، وكان ذلك على أثر مشاهدته بعض الآثار ورؤية
 تمثال محفوظ لمسيس الثانى فى الأقصر . وفى هذه القصيدة عاد
 مطران الى نظريته الأولى لأنه يرى أن المجد لا يمس وأن عظمة
 مصر باقية سواء أكان أصل البنيان الظلم أم غيره وأن الفراعنة
 نهضوا بمصر وان كان اعتقاد الشاعر أن ضررهم كان أكبر من
 نفعهم فى جانب شخصية الأمة وتكوينها الحرا، قال مطران :

أكبر برمسيس ميتا لا يلم به موت وأكبر به حيا الى الآن
 لولا تماثيله الأخرى محطمة ما جال فى ظن فان أنه فان
 فى مصر عز فراعين فما بلغوا بها مبالغه من رفعة الشأن
 ولم يتم لها فى غير مدته ما تم من فضل اثناء وعمران
 تخير الخطة المثلى له ولها يعلوفتعلمو به والخفض للشانى
 ما زال بالقوم حتى صار بينهم اله جنس تحاييه وكهان
 ورَب سائمة بلهاء هائمة تشقى وتهواه فى سر وعلان
 يسومها كل خسف وهى صابرة لا صبر عقل ولكن صبرايمان
 إن بات فى حجب باءت الى نصب يلوح منه لها معبودها الجانى

فبجالت تحت تاج الملك مدميها وقبلت دمها في المرمر القاني
مخلدا دون من قاموا برفعته من شوس حرب وصناع واعوان
مخالسا ذمة العليا مضطجعا من مهد عصمتها في مضجع الزاني
بحيث آب وكل الفخر حصته ولم يؤب غيره الا بحرمان
كم راح جمع فدى فردوكم بذات في مشترى سيد أرواح عبدان



كلا وعزته فيما طغى وبغى وذل من قبل الضيزى باذعان
هم الذين على عسر بمطالبة قد اسعفوه باموال وفتيان
وهم على سفه دانوا بمن نصبوا فحولوه مدينا حق ديان
فهم الا الى صنعوا انصابه درست رسومهم منذ باتوارهن اكفان
وما لاسمائهم دون اسمه دفنت شعثا منكرا في رمس كتمان
ليت البلاد التي اخلاقها رسبت يعلو باخلاقها تيار طغيان
النار أسورغ وردا في مجال على من بارد العيش في افياء فينان
اكرم بذى مطعم في جنب مطعمه ينجو الاذلاء من خسف وخسران
يهب فيهم كاعصار فينقلهم من خفض عيش الى هيجاء ميدان
بعض الطغاة إذا جلت اساءته فقد يكون به نفع لأوطان
في كل مفخرة تسمو الشعوب بها تفنى جموع مفاداة لأحدان

كم فى سنى الكوكب الوهاج مهلكة
 فى كل لمح لا ضواء وألوان
 لم ترق فى حقبة مصر كما رقيت
 فى عصره بين أمصار وبلدان
 لما رمت كل نائى الشوط ممتنع
 بسابقين الى الغايات شجعان
 الا ترى فى بقايا الصرح كيف مضوا
 باوجه باديات البشر غران
 وكيف عادوا ورمسيس مقدمهم
 الى الربوع باوساق وغلمان

كلا الشاعرين فى قصيدته يستنبط عبر التاريخ وينظمها درساً
 نافعا لامته ، وكلاهما يحجب داعية الوطنية وينتصر للحق والعدل
 وان اختلفت وجهتا نظرهما ، وهما متفقان فى جوهر الموضوع ،
 فى الاشادة بذكر عظمة مصر الغابرة ، وعظمة الفراعنة ، وتنبيه
 الخلف الى مجد السلف .



قلنا ان صبرى انفرد بالشعر الغنائى بين معاصريه ونريد الى
 ذلك أن الفضل الاكبر فى ارتقائه الى هذا المنصب العالى فى الأدب

يرجع الى مقاطيعه التي حلق بها في أعلى سماء، وتمتاز هذه المقاطيع بالروح التي تشف عنها، لا بالمعاني الغريبة أو الجديدة التي لا يفهم بعض الناس الشعر بدونها، تمتاز بتصوير العاطفة والوجدان تصويرا صادقا لا يشوبه تعمل، تصويرا يخاطب القلب قبل العقل ويرد الشعر الى نبعه الصافي الأول، وهل كان الشعر الا شعورا؟ وهل كانت تقاطيع الأعاريض الا غناء.

وقد قال صبرى الشعر فتغنى به الناس، وكانت اذنه كما قال حافظ « تحس نبو الوتر » فارضى بذلك ذوقه، وارضى ببيئته، وأرضى الشعر، وسبق شعره خالدا ما بقى في مصر قلب يخفق وشعب يسمو الى العليا.

الفصل الرابع

مختارات

فرعون وقومه

”لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني
ولست ان لم تؤيدني فراعنة
لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا
ردوا الحجرة كدا دون مورده
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم
أمرتكم فأطيعوا أمر ربكم
فالملك أمر وطاعات تسابقه
لا تتركوا مستحيلا في استحالتة
اذا وني يوم تحصيل العلا واني
منكم بفرعون على العرش والشان
فمساؤه العذب لم يخلق لكسلان
أو فاطلبوا غيره ريا لظمان
لا تتركوا بعدكم نخرا لانسان
لا يش مستمعا عن طاعة ثاني
جنبنا لجنب الى غايات احسان
حتى يميظ لكم عن وجه امكان“



مقالة قد هوت من عرش قائلها
مادت لها الأرض من دعرودان لها
لو غير فرعون ألقاها على ملا
على مناكب أبطال وشجعان
ما في المقطم من صخر وصوان
في غير مصر لعدت حلم يقظان

لكن فرعون ان نادى بها جبلا
وآزرتة جمهير تسيل بها
يننون ما تقف الأجيال حائرة
من كل ما لم يلد فكلوا فتحت
ويشبهون اذا طاروا الى عمل
برا بذى الأمر لاخوفا ولا طمعا
لبت حجارته فى قبضة البانى
بطاح واد بمضى القوم ملاّن
أمامه بين إعجاب واذعان
على نظائره فى الكون عينان
جنا تطير بأمر من سليمان
لكنهم خلقوا طلاب اتقان



أهراءهم تلك حى الفن متخذ
قد مر دهر عليها وهى ساهرة
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى
كأنها — والعوادى فى جوانبها
جاءت اليها وفود الأرض قاطبة
فصغرت كل موجود ضخامتها
وعاد منكر فضل القوم معترفا
تلك الهياكل فى الأمصار شاهدة
وان فرعون فى حول ومقدرة
اذا أقام عليهم شاهدا حجر
كأنما هى والأقوام خاشعة
من الصيخور بروجاً فوق كيوان
بما يضعضع من صرح واوان
ما يأخذ النمل من أركان شعلان
صرعى — بناء شياطين اشيطان
تسعى اشتياقا الى ما خلد الفانى
وغض بنيانها من كل بنية
يثنى على القوم فى سر وعلان
بأنهم أهل سبق أهل إمعان
وقوم فرعون فى الاقدام كفؤان
فى هيكلك قامت الأخرى ببرهان
أمامها صحف من عالم ثانى

تستقبل العين فى أثنائها صور
لو أنها أعطيت صوتا لكان له
فصيحة الرمز دارت حول جدران
صدى يروع صم الانس والجنان

*
* *

أين الألى سجلوا فى الصخر سيرتهم
بادوا وبادت على آثارهم دول
وصغروا كل ذى ملك وسلطان
وأدرجوا طى أخبار وأكفان
وخلفوا بعدهم حربا مخلة
وزحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا
ويل له هتك الأسرار مقتحما
للجهل أرجح منه فى جهالة
عليهم العلم ذاك الجاهل الجانى
جلال أكرم آثار وأعيان
إذا هما وزنا يوما بميزان

*
* *

وقال يرى صديقه المرحوم أمين فكرى باشا :

وهبتك يا دهر من تطالب
طويت المودة فى شخصه
وأى بديل له ارتضى
أمين اتشد فى النوى وارغى
أتذكر إذ أنت منى النياط
وإذ نحن هذا لهذا أخ
ومن قال عنا من الناظر
أبعد أمين أخ يصحب
فأى وداد أمرى أخطب
وأى شمائله أنذب
فبينى وبينك ما يوجب
من القلب أو أنت لى أقرب
وهذا لذا ابن وهذا أب
ين ندعى جذيمة لا يكذب

حسبت بأنك لي خالد
 أفى ذا الشباب وهذا الأها
 ويودى الذكاء ويقضى الوفا
 عجيب من الموت أفعاله
 بذأ حكم الله في خلقه
 وجدت الحياة طريق الما
 ويهتر فيه الفتى بالشبا
 ويتعب بالزاد فيه الفقيه
 ويشقى أخو الجهل في جهله
 موارد مشروعة للحيا
 أتعلم عين الردى من تصيد
 الما تكامل نور الأمية
 وأوفى المكارم ما أملت
 ودان له أمل في الحياة
 طواه الردى علما فانطوى
 فيا نائيا والهوى ما نأى
 هنيئا لدار تيممها
 وجاورها كثر من خلا

فكان الذى لم أكن أحسب
 ب يموت الفتى الطاهر الطيب
 وتردى الفضيلة أو تعطب
 وعقبى على فعله أعجب
 لكل أمرئ أجل يكتب
 ت وكل إلى حنقه يسرب
 ب ويدلف بالعملة الأثيب
 ر وأهل الغنى بالغنى أتعب
 ويخرج بالعالم المذهب
 ة فأى موارد الأعدب
 ب وتدرى يد الموت من تضرب
 ن وتاه به الشرق والمغرب
 وأعطى الفضائل ما تطلب
 وتم له فى العلى ما رب
 به أمل مقبل نرب
 وذكراه فى البال لا تعرب
 لقد زارها الملك الأطيب
 لك حلومع الخلد مستعذب

لدى منزل برقه خاب	تنعمت فيها وخلقتنى
وقلب الصديق به قلب	وداد الصديق به حول
م واكن هجرانه أصعب	وصعب على الحر فيه المقام
لأنت الفراديس أو أخصب	ويا تربة حل فيها الأمين
وجادك رضوانه الصيب	حسبت على رحمت الرحيم
وأنت لأذيالها تسحب	ولا زالت السحب منهلة
تخامرها مهيج تسكب	وروتك منى دموع تسيل

الساعة

وأزعجتني يدها القاسية	كم ساعة ألمنى مسما
هنيئة واحدة صافية	فتشت فيها جاهدا لم أجد
فرحت أشكوها الى التاليه	وكم سقتنى المرأخت لها
لساعة أخرى وبى ما بيده	فأسلمتنى هذه عنوة
جارحة الظفر الى ضاربه	ويحك يامسكين هل تشتكى
يا من تلك الفئة الطاغية	حاذر من الساعات ويل لمن
جعلتها من غصص خاليه	وان تجد من بينها ساعة
لم ينسه حاضره ماضيه	فاله بها هو الحكيم الذى
فى قلة من تحتها الهاوية	وأمرح كما يمرح ذو نشوة
محالة ختالة عاديه	فهى وان بشت وان داعبت

عناقها خنق وتقييلها كما تعض الحية الباغية
هذا هو العيش فقل للذي تجرحه الساعة والثانية
يا شاكي الساعات أمتع عسى تتجيك منها الساعة القاضية

الدواة

يا دواة اجعلي مدادك وردا لوفود الأقدام حينما خينا
وليمكن كالزمان حالا وحالا تارة آسنا وأخرى معينا
أكرمي العلم وامنحي خادميه ماء لك الغالى النفيس الثمين
وابذلي الصافي المطهر منه لهداة السرائر المرشدين
واذا الظلم والظلام استعانا يوم نحس بأجهل الجاهلينا
واستمتدنا من الشورور مدادا فاجعليه من قسمه الظالمينا
واقمدي النقطة التي بات فيما غضب القاهر المنزل كميننا
إبراع امرئ اذا خط سطرنا نبذ الحق وارتضى المين ديننا
واذا كان فيك نقطة سوء كؤنت من خباثة تكويننا
فاجعليها قسط الذين استباحوا في السياسات حرمة الأضعفيننا
واذا خفت أن يكون من الصعخ ر جلا مبد ترجم السامعيننا
فانخلي بالمداد بنحالا وان أع طيت فيه المئين ثم المئيننا
فاذا أعوز المداد طبيبا يصف الداء دأبا مستعيننا
فامنحيه المراد منا وعرفنا واستطبي معونة المحسنيننا

واذا مهجة الحائم أسدت
فاجعلها على المودات وقفا
فاذا لم يكن بقلبك إلا
فاجعله حظى لأكتب منه
نقطة سرها الزكى المصونا
وهيها رسائل الشيقينا
ما أعد الاخلاص للخلصينا
شرح حالى لسيد المرسلينا

الفزع الأكبر

غاض ماء الحياء من كل وجه
وتفشى العقوق فى الناس حتى
أوجه مثلما تثرت على الأجداد
وشفاه يقارن أهلا ولو أدري
عمرك الله هل إسلام وداد
عميت عن طريقها أم تعامت
غرها سعادها ومن عادة السعد
فتجنت على الشعوب وشنت
نسيت فى الصعود يوم التدى
تعب الفلاسوف فى الناس عصرا
والورى طارد إزاء طريد
وجيوش يقل من بعضها البعض
حاذرى يا ذئاب صولة أسد
فغدا كالح الجوانب قفرا
كاد رد السلام يحسب برا
ث وردا إن هن أبدين بشرا
ن ما فى الحشا لما قلن خيرا
ذاك أم حاول المسلم أمرا
أم فى مناور الجهل حيرى
د يواتى يوما ويخذل دهرى
غارة فى البلاد من بعد أخرى
والتدى بصاعد الجسد مغرى
وتولى السرائر الدين عصرا
وعقاب يمسى يطارد صقرا
وهضب كبرى تناطح صغرى
منك أقوى نابا وأنفذ ظفرا

لا تنامى يا أسد إن ذئابا
عبر كلها الليالى ولكن
أنت نعم المنذير يا نجم "هالى"
ظنّ قوم فيك الظنون وقالوا
إن يكن فى يمينك الموت فاقذف
هل تلقيت من لدن خاذل البها
أحيط بكل شىء ومرد
أغدا تستوى الأنوف فلا ينظر
أغدا ككنا تراب ولا مد
أغدا يصبح الصراع عناقا
إن يكن كل ما يقولون فاصدع

لم تنم من روابض الغيل أضرى
أين من يفتح الكتاب ويقرأ
زلزل السهل والرواسى ذعرا
آية أرسلت الى الأرض كبرى
به شواظا على الحلائق طرا
غى وحامى الضعيف يا نجم سرا
كل حى وتارك السهل وعرا
قوم قوما على الأرض شذرا
بك خلاف التراب برا وبحرا
فى الهوى ويصبح العبد حرا
بالذى قد أمرت حيت عشرا

وقال يهنئ المرحوم السلطان حسين حينما أسند إليه منصب
السلطنة المصرية :

اليوم آن لشاكر أن يجهر
ان الامارة لم تزل فى أهلها
والتاج مقصور عليهم ينتقى
والعرش إن أخلاه منهم ماجد
أحسين حبك فى القلوب محقق

بالشكر مرتفع العقيرة فى الورى
شياء عالية القواعد والذرى
منهم كبيرا للعلاء فأكبرا
ذكر الأماجد بينهم وتخييرا
قد أظهر الاخلاص منه المضمرا

فاحرص عليه فهو ملك آخر إن شئت ملكا جنب ملك أنضرا
 والملك آل اليك يخذو خطوة شوقا اليك وإن أتى متأخرا
 لم يعد في ما فات بابك ناسيا بل وانيا حتى يشب ويكبرا
 عزى عن العباس أنك عمه وأجل من ساس الأمور ودبرا
 وأزال لوعة كل قلب بعده أن الدواء لما به بك قدرا
 يا ناظر الماضي وشاكر عهده والحال بين يديه أجمل منظرا
 هذى الحقائق باهرات فانتبه لا يلهينك طيف ماض في الكرى
 هذا ابن اسماعيل نجم طالع لهداية السارى فحى على السرى
 الملك من يمينه في يد حازم أن أورد الأقوام وردا أصدرا
 والنيل لم يبرح على العهد الذى أخذته قبل عليه ناضرة القرى
 متهاديا بين البقاع مناجيا أرجاءها بالخصب يكتنف الثرى
 والشرع بين الناس ناه أمر ما زال حكم الله فيه موقرا
 والبيت بيت محمد قد شاده لبنيه لم يستثن منهم معشرا
 والعلم أكبر حكمة ودراية بالأمر لو أن المكابر فكرا
 حال إذا نظر الأديب جملها شكر الاله وحقه أن يشكرا

الشعر الارتجالي

أبى الجهل إلا أن يهز أريكة تقيها يد الله أن تتزعزعا
 فما هن إلا كل قلب مروع يجاور قلبا في الربوع مروعا

يكاد إذ الأنباء رابته مرة يسيل بوادي النيل كالنيل أدمعا
ومن كاد للعباس كيدا فانما يكيّد الى مصر وأحبابها معا
ومن يسع في مصباح نور لأمة ير الله حول النور والناس أجمعا



قصيدة وجهها الى سمو الخديوي عباس يوم عيد جلوسه
سنة ١٩٠٨ مهنئا إياه بالعيد وشاكرًا له نعمة العفو عن المسجونين
في دنشواي ، وقد جاراه شوقي بقصيدة مطلعها :

أما العتاب فبالأحبة أخلق والحب يصلح بالعتاب ويصدق
وجاراه حافظ بقصيدة مطلعها :

سكن الظلام وبات قلبك يخفق وسطًا على جنبك هم مقلق
ونشرت مجلة "فتاة الشرق" في ذلك العهد فصلا لأحد
الأدباء وازن فيه بين القصائد الثلاث .

وهذه قصيدة صبرى :

لو أن أطلال المنازل تنطق ما ارتد حران الجوانح شيق
هل عند ذاك السرب أنا بعده في الحى من آماقنا نتدفق
أو أن أضاعنا على ما استودعت يوم الفراق من الجوى لتتحرق
أمنازل الأبقار أهلك أسرفوا فى النأى لإسراف الغنى وأغرقوا
لو أنهم قد أنصفوك منازلنا ما حازهم فى الكون بعدك مشرق



عيد الفداء الا سعدت بسدة أمسى يحيط بها الجلال ويحرق
هلا رأيت بعابدين مع الملا ملكا خلائقه تضوع وتعبق
وجمعت من تلك الشمائل طاقة تزدان أياما بها وتخلق
ورجمت من نور الأمير مزودا حتى تعود وأنت زاه مشرق



أحرزت يا عباس كل فضيلة وبلغت شأوا فى العلا لا يلحق
من ذا يجارى أنخصيك الى مدى وهواك سباق وعزمك أسبق
ان يرتجل عرف فأنت الى الذى لم يرتجله المالكون موفق
سدّ سهام الرأى بالشورى يحط بك منه فى ظلم الحوادث فيلق
واسبق به واضرب به وافتتح به ما شئت من باب أمامك يخلق
عوذت مجده أن تنام وفى الحمى أمل عقيم أو رجاء مخفق
ولرب محمل فى النهى متحكم قد كاد يخترم النفوس ويوبق
أرسلت فيه نظرة ضمن الجمى والعلم نصرتها وقلب مشفق
وأخذت رأى أولى النهى مستوثقا مستوزرا وكذا الحكيم يدقق
حتى اهتديت الى الصواب ولم يزل بين الصواب وبين رأيك موثق
وأهبت فابتكر النضار سحائبها تهى وتفتقد الحيل وتغدق
ان أمرعت تلك الموات وأورقت فيها الرياض فانما لك تورق



وأقلت عثرة فريية حكم الطوى في أهلها وقضى قضاء أئرق
 ان أن فيها بأس مما به وأرن جاوبه هناك مطوق
 وارحمتا بلناتهم ماذا جئوا وقضياتهم ما داقهم أن يتقوا
 ما زال يقذى كل عين ما رأوا فيها ويؤذى كل سمع ما لقوا
 حتى حكمت لجاء حكمك آية للناس طى صحيفة لتألق
 نزلت ترفرف حول كاتب نصها زمرا ملائكة الرضى وتتحلق
 شكرتك مصر على سلامة بعضها شكرا يغرب فى الورى ويشرق
 ذكرت لك الصفيح الجميل ولم تزل ترمى الى أسر أوجل وترمى
 قانون دنشواوى ذاك صحيفة لتلى فترتاع القلوب وتنفق
 هل يرتجى صفو ويهدأ خاطر والموت حول نصوصها يتفرق
 ومضاجع القوم النيام أواهل بمعذب يردى وآخر يرهق
 ان تبلغ الجرحى شفاء كاملا مادام جارحها المهند يهرق
 فاحكم بغير العنف واكسر سيفه فالعلم أجمل والمكارم أليق



لك مصر ماضيها وحاضرها معا ولك الغد المتحتم المتحقق
 والله عونك ان ركبت الى العلا طرقا تفضل بها الهداة وتفرق
 والأمر أمرك لا يشاب بريية والحكم حكمك والإله مصدق

ياليل الصب

نشرت مجلة "الزهور" أبياتا ارتجلها أمير الشعر شوقي يعارض
فيها الأبيات المشهورة التي مطلعها :

يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده

وهي لأبي الحسن الحصرى الضرير المولود في القيروان والمتوفى
بقي الأندلس سنة ٤٨٨ هجرية . فقال المرحوم صبرى باشا من
الوزن والروى ، وهي أبيات نظمت للغناء :

فأليل تمرد أسوده	أقريب من دنف غده
بيض في الحى تؤيده	والتفت تحت عجاجته
شوق ما زلت أردده	حرب عندي لمعرها
هل من آس يتعهده	مثل من راق لصريع هوى
يبلى الأحشاء تجده	حتى م يساوره كمد
ان هم يقوم ويقعه	والى م يصارعه ألم
غزلان الرمل ونحسه	في القصر غزال تصكبه
وقد امتلأت منى يده	صفرت كفى منه ومضى
وقضيت الليل أنضده	كم صغت التبر له شركا
هل أقصر أم أتصيده	وأشاور شوقى بل أدبى
لا يرحم قلبا موقده	مولاي أعينك من ضرم

أدرك بحياتك من رمقي ما بات هواك يهتده
قد بان الحب لذى عيني وهذا الشوق يؤكده
«شوقي» جود في الشعر وقل آمنت بأنك أوحده



وقال يرثى اسماعيل بك ماهر القاضي بالمحكمة المختلطة
بالاسكندرية الذي توفي في صيف سنة ١٩١٠ وكان رفيق صبرى
في المدرسة وعشير صباه :

أماهر كنت فيما مر أنسى فمن لى فى الليالى الباقيات
برغمى أن تقلص منك ظل وقانى حقبلة افصح الحياة
وان نضبت خلال كنت منها أعب لديك فى عذب فرات
وان صفرت يمينى من وداد غنيت به لىالى خاليات
أنهى ما حيلتى إلا سلام يزورك فى المساء وفى الغداق



دمعة على بطرس غالى فى أبريل سنة ١٩١٠

لهف الرياسات على راحل قد كان ملء العين والمسح
لهف العلا قد عظمت من سنا بدرهوى من أوجها الأرفع
تبكى المروءات على بطرس ذاك الهام المساجد الأروع
فتشت لما لم أجد مقاتلى كفؤا عن الفضل ليكى معى

فقليل لى قد سار فى إثره يوم دفناه ولم يرجع
يا مجرىا دمع الملا أبحرا أدركهمو يا مرقى الأدمع
يا نازلا بين وفود البلا أنستهم يا موحش الأربع
عنى فىك اليوم قطيعة تروى الأسى عن مسلم موجه
يهم من وجد ومن لوعة فى الجانب الأيسر من أضلعى
ويحفظ العهد كما شاءه أحمد سمحا واسع المشرع
يا من سقانى اللحم من وده هذا ودادى كله فاكرع
يا حامل القلب الكبير الذى لم ينقض الميثاق قم واسمع



حرب طرابلس

بعض هذا الحفاء والعدوان راقبى الله أمة الطليان
قد ملأت القضا غدرا وجهلا وتسمنت غارب الطغيان
وبعثت السفين ترى طرابلس بحرب مشبوبة النيران
تنحرق البحر والمواثيق والعهد جهارا وذمة الجيران
سيرتها أضغان قوم لقوم سلموا من دناءة الأضغان
من رآها تجرى توهم أن القوم هبوا للشار للأوطان
لا ورب الأسطول ما حمل الأ سطول جيشا الى حمى الحبشان
ان قوم الطليان أحرص من أن يفضحوا مرتين فى ميدان

ليست الحرب للعدو الذى با
إنما الحرب للأولى حفظوا العهد
وأباحوا أبوابهم حاتميات
وانالوهمو حقوق بنيتهم
ويحهم ما لصنعهم أبطر القو
ولماذا تمخض السلم عن حرب
منع قد بذرن فى شر أيد
هكذا فلتك المروءات فى عص
لا يثق بعضنا ببعض وهذا
ان تسلم على القريب فسلم
ربما أصبح العناق صراعا

ت عزيزا بالرجل والفرسان
مد فنامت جيرانهم فى أمان
لمن أمهم من الضيفان
فعل أهل المعروف باللهفان
م فعقوا ما كان من احسان
لظاها يشوى الوجوه عوانى
كن مذ كن منبت الكفران
بر البهاليل من بنى الرومان
ما أعد الانسان للانسان
فى ظلال السيوف والمران
فى زمان الآداب والعرفان



قصيدة ألفت فى ٤ يونيو سنة ١٩١٤ فى فندق شبرد فى حفلة
تكريم واصف بك بطرس خالى لما قام به من ترجمة الشعر العربى
الى اللغة الفرنسية ترجمة صادقة لكتاب دعاه "روض الأزهار".
وكانت حفلة التكريم تحت رعاية حضرة صاحب السمو
الخدوي السابق عباس حلمى الثانى ، وأتاب عنه فى الحضور رئيس
الديوان العالى الملكى صاحب السعادة عثمان باشا مرتضى وكانت

الحفلة برئاسة الفقيه اسماعيل باشا صبرى بصفته رئيسا لزعماء
الأدب :

أى صوت حوته بالأمة	س باريس مقر العلوم والعلماء
من ترى ذلك الذى جملة	حكمة الشيب فى ربيع الفتاء
فذلك الأسمى الذى بهر اليب	ض مطلا من منبر الخطباء
وأما ط اللثام عن أدب العر	ب كرام الآباء والأبناء
بلسان ما اعتاد من قبل أن يخ	ضع إلا لأهله من إباء



يا سجل الخلود افصح مجالا	لا سمى فى صحيفة الفضلاء
وأر الأعصر الأوتى أن ال	مذكر عمر محجل الآناء
ذاك الصوت ابن بطرس قد عمر	فناه بما حاجة من الأصداء
ألق بالسمع تستخفك منه	نعمة لم تكن لغير الوفاء
ذاك نجم أطاعته يامص	رفقصرى بنجمك الوضاء
وأحليه حيث تفتقد البد	ر عيون السراة فى الظلماء
كم له دون بيضة الشرق من	غضبة حروكم له من بلاء
كم له من مواقف هز عطف ال	حق فيها بالحنة البيضاء



ليه يا ابن الأجداد قمت بأعبا	ء كبار والمجد ذو أعباء
------------------------------	------------------------

وأريت الأنام برذوى القصر بن ورأى الكريم فى الكرماء
فاستمع ما يقال حولك يا واصل فذا اليوم من ضروب الثناء
أن من طيب الثناء لزهره تجتنيه مسامع الأكفء



وقال يرى إسماعيل بك نجيب نجل صديقه المرحوم إبراهيم باشا
نجيب .

الا يا تجار العصر هل فيكم امرؤ يبيع على صرعى الهموم عزاء
اذا دلتى منكم على مثله فقى خلعت عليه ما يشاء جزاء
ففى الحى قوم عاكفون على لظى تذيبهم البلوى صباح مساء
يخالهم الرأى سكارى من الأسى فيبكي عليهم رحمة ووفاء
لو ان قلوب الناس طوع ارادتى قلبت الأسى فى بعضهم هناء
ولو طاوعتنى كل عين قريجة لما ذاب بعض الثاكلىن بكاء
وعالجت ابراهيم مما أصابه وداهمه حتى ينال شفاء
مصائبك اسماعيل زعزع شاخا وضع طودا راسيا وأساء
واودى بأمال كبار تصرمت برغم ذويك الباسين هباء
على قبرك المطور منى تحية فقد ضم غصنا ناضرا وفتاء

*
*
بين الجند والفكاهة

استقالت وزارة مصطفى فهمى فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ،
وتألفت فى اليوم التالى وزارة بطرس غالى وأعضاؤها سعد بالمعارف ،
ورشدى بالحقانية ، وسعيد بالداخلية ، وسرى بالأشغال والحربية
والبحرية ، وحشمت بالمالية بدلا من نخرى . وعين خليل باشا
حماد وزيرا للأوقاف . وقد نشر اسماعيل باشا صبرى على أثر ذلك
بامضاء بنتاؤور مقطوعات كثيرة رسم فيها صورة لكل وزير قديم
أوجد يد ونشرتها جريدة الأهرام فى أيام مختلفة وإنا نختار منها
ما يأتى :

وكالة الداخلية

ماهر السلطة فى مصرها	صورة تسمى البرايا زاهيه
فاز بالأولى سعيد اذ جرى	وتباطأت فحزت التالىه
لو تسرعت ووسعت الخطى	نلت أولاهها ونال الثانيه

النيابة العمومية

قد ألفت عصب اللصوص	محاكما فى كل قسم
ورموك « ثروت » بالنباهة	كلها وبكل علم
والعلم فى الحكام عند	الجاهلين أجل جرم

فاحذرهم ان سرت فيهم سيرة اليقظ الأشم
عوفيت من قوم اذا قدروا خلوا من كل حلم

في جوف الحيتان

أين صبرى من يذكّر اليوم صبرى بعد أعوام عزله وشهوده
اسألوا الشعر فهو أعلم هــلا أكلته الأسماك طى بحوره

في المعاش

قلت يا صالح الق دأ لك في جملة الدلا
قال دعنى كما أشأ أحكم اليوم فى الملا

مارتين باشا

ألا فاعذرونى ان قنعت من الورى بما حزت من نخر وما نلت من رتب
فما عن قلى فارقت سعدا وانما تفرغت بين الناس للعلم والأدب

شكور باشا

أين شكور هل العليـ ياء فى جب نفته
أكلته البيرة اليوم ترى أم شربته

سابا باشا

أين سابا أين سابا ياترى أين سابا ذو المزايا الباهره
قال لى قوم ثقات أنهم لمحوه فى مياه القاهره

اسكندر باشا فهمى

أصلب أنت قللى حار امرى اذا فكرت فيك وضاع حدسى
نحرت من الشريط ولم تهشم كأنك خارج من بيت عرس



الى الأمير عمر باشا طوسن بمناسبة اعانته بحرى الحرب
البلقانية :

لك الامارة والأقوام ما برحت بكل على الذرى فى الكون تأتمر
لو لم ترثها لما ألفت أعنتها إلا اليك خلال ككلها غرر
يا ابن الأولى لو أطلوا من مضاجعهم يوما عليك لقالو : ايه يا عمر
أعدت أيامهم فى مصر ثانية حتى توهم قوم أنهم نشروا
وسرت سيرتهم حتى كأنهم اذا خطرت بأرض مرة خطرنا
لله درك لم نهت من همهم تثنى على أهلها الأصال والبكر
وكم تعهدت بحرى من أسود وغى ان يكشر الدهر عن احداثه كشرنا
مستنجدا من بنى مصر الى شيم اذا رأوا ثلثة فى حوضهم جبروا
مستهميا هاميا والنيل فى وجل من أن تجود به ايمانكم حذر
حتى تفاهمت الأرواح وادكرت ما بينها الأهل والخلان والأسر
وآذن البر بالسقيا وما فتئت منهم ومنك صنوف البر تنتظر
وحركت كل كف بالندى يقسة حتى تعجبت الأنهار والغدر

والناس ان قام يستسقى الكريم لهم
يا بني علاء سعيد أن يشابهه
ما زال يحمده رائيك مذكرا
سحائب الفضل بشرهم فقد مطروا
إلا ابن دوحته ان قام يفتخر
والأصل بالفرع ان حاكاه يذكر

ذكرى الشباب

تمسى تذكرنا الشباب وعهده
هيفاء أسكرها الجمال وبعض ما
تثب القلوب الى الرؤوس اذا بدت
وتبيت تكفر بالنحور قلائد
ويزيد في فهم الآلى قيمة
حسناء مرهفة القوام فنذكر
أوفى على قدر الكفاية يسكر
وتطل من حديق العيون وتنظر
فاذا دنت من نحرها تستغفر
حتى يسود كبيرهن الأصغر

ساعة الوداع

أترى ، أنت خاذلى ساعة التو
ويك ، قل لى متى أراك بجني
ساعة البين قطعة أنت قدت
لا تحبني روحى الفداء لما حيك
ديع يا قلب فى غد أم نصيرى
راضيا عن مكانك المهجور
للمحبين من عذاب السيمير
غدا فى صحيفة المقدور

عبد بلاتمن

يا من أقام فؤادى إذ تملكه
تغديك أعين قوم حولك ازدهمت
ما بين نارين من شوق ومن شجن
عطشى الى نهلة من وجهك الحسن

جردت كل مليح من ملاحظته لم نثق الله فى ظهى ولا غصن
فاستبق للبدر بين الشهب رتبته تملكه فى أوجه عبدا بلا ثمن



وقال رحمه الله حين بعث شوقى بك الى الكاتب الكبير
الأستاذ داود بركات رئيس تحرير الأهرام يتين وطلب اليه
عرضهما على الفقيد ليبدى رأيه فيهما، فلما عرضهما عليه جادت
قريحته بثلاثة أبيات فى معنى بيتى شوقى بك ثم بتحية منه .

بيتا شوقى بك

يا سارى البرق يرمى عن جوانحننا بعد الهدوء ويرمى عن مآقينا
ترقرق الماء فى دمع السماء دما غاض الأسى فحضبنا الأرض باкина



جواب صبرى باشا

يا وامض البرق كم نهبت من شجن فى أضلع ذهلت عن دائها حيننا
فالماء فى مقل والنار فى مهيج قد حار بينهما أمر المحبيننا
لولا تذكر أيام لنا سلفت ما بات يبكى دما فى الحى باкина
يا آل ودى عودوا لا عدمتكم وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا
يا نسمة ضمخت أذيالها سحرا أزهار أندلس هبى بواديننا

بين صبرى والشريف الرضى

سمع صبرى ببقى الشريف الرضى وهما :

أرى بعد ورد الماء فى القلب غلّة اليك على أنى من الماء نافع
ولم أكن لأقوى ما أكون طامعة اذا كذبت فيك المنى والمطامع

فقال رحمه الله مجازاة له :

يا مورد اكننت أغنى ما أكون به عن كل صاف اذا ما بات يروى
عندى لمائك والأقداح طوع يدي ملأى من الماء شوق كاد يردى

*
* *

وقال فى الذكرى :

اقصر فؤادى فما الذكرى بِنافعة ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زما حمل الصبابة فاخقق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبتة من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
لهفى عليك قضيت العمر مقتحما فى الوصل نارا وفى الهجران نيرانا

وكتب على صورة أنور ابن سليم سر كيس :

هذا شبابك يا سليم تزينه تلك الخلال الغر والأخلاق
حاكاك أنور مثلها حاكيتة فيما مضى فتبارك الخلاق
أنت الذى علمته نقل الخطى وأريته أن الحياة سباق

الكتاب الثالث

تاريخ الحركة الاستقلالية في إيطاليا

مقدمة

رسالة من نابغة الأدب الأستاذ خليل بك مطران :

ناط بي الأستاذ محمد صبرى نخر تقديم محاضرته الشائقة التى أسماها بموضوعها وهو " تاريخ الحركة الاستقلالية فى إيطاليا " للذين سيطالعونها مجموعة بين دفتى هذا الكتاب ، وهى تلك المحاضرة التى ألقاها على قسمين فى الجامعة المصرية فى يوم ١٠ و ٢٠ مايو سنة ١٩٢٢ ونشرتها على الأثر جريدة الاستقلال الغراء . فتلقيت دعوته بالاجابة عن رضى ، وليست الاجابة عن شأنى فى كثير من مثل هذا التكليف لكننى كنت قد طالعت المحاضرة وإن فاتنى التمتع بسماعها فأعجبت بها ولهذا لم أخش سأما ولا تعباً من كتابة المقدمة .

الأستاذ صبرى — ويعرفه الجمهور المصرى حق المعرفة — نخب السربون أكبر معهد علمى أدبى فى فرنسا بل فى أوروبا ، وهو أيضاً صاحب كتاب " الثورة المصرية " الذى صدر فى مجلدين بالفرنساوية وهذا السفر قد أتيت لى مطالعته فوجدت فيه مصداق الأماديج المتنوعة التى تلقته بها جرائد فرنسوية متعددة وأدباء فرنساويون من علية القوم وجلة ذوى المكانة فى عالم

البيان والتفكير، على أن فيه داعيين آخرين للشناء على المؤلف : ذلك أن الأستاذ، بتبيينه للأجانب حقائق ما جرى في تلك الأيام العظيمة بمصر قد خدم أمته في وقت من أخرج أوقاتنا خدمة لا تقوم بثمن، وأنه بقوة وطنيته المتدفقة في كل نقطة وفي كل جملة من سفره تدفق السيل بباعث لا يواقفه شيء يعترض طريقه هو الاخلاص، كان قدوة ونعمت القدوة لمن فهم من فتیان قومه بكل جوارحه أن لا أمة عزيزة بلا وطن عزيز .

على أنه ليس هنا مكان التفريط للأستاذ صبرى بأكثر من اللماح الى ماله من المنزلة التي كسبها بواسع عرفانه وصدق وطنيته معاً، وإنما أحب قبل الشروع في الكلام على محاضراته، التي أجده حين يحورها مؤرخاً مدققاً صافى الذهن شامل النظر للحوادث عجيب الفطنة للتماثلات منها جوهرها وان تخالفت عرضاً، أن أعيد على ذهن من يقرأ هذه السطور شيئاً من نفثات قلمه أديباً محض أديب .

وهناك آية أخرى من آيات الذكاء المخدم بالتحصيل المتدارك بالتهذيب، قال من مقال سبق نشره في الأهرام الغراء سنة ١٩١٣ تحت عنوان "دقائق الساعة" ما يغني تصفحه عن التعرض لوصفه وقد ينقص الوصف أبلغ ما يكون أشياء من معاني الموصوف قال :

«تتصنف الليل وممر بعد وهنه ساعتان كما خبرتنا "ناعية الزمن" فتذكرت قول مدرّس العربية منذ ستة أعوام تجرّمت وترادفت ترادف الموج في محيط السنين والأيام أن من أقسام المفعول المطلق ما يكون بياناً لعدده نحو دقت الساعة دقتين .

«أجل، كثر الأستاذ صراراً هذا المثل فما كنت لأهتم له ولم دقت الساعة في ذلك الأمس الدابر فكان وقع دقائقها في أذني كنت فريدة الطائر ورنات العيدان حين كنت أرتع في جمائل الشباب النظر وما الشباب عندي إلا زمن البهول والغفلة يوم لم ندخل بعد ميدان الكفاح ولم نذق صاب الحياة ولا علقمها .

«وإني لأتمثل الدهر يومئذ وهو كالصبي الغشوم يتعلم الرماية وأنا كالدارة التي مركزها الغرض وما الغرض إلا القلب وسهامه دقائق الساعة يرسلها فتطيش وتحلورنة القوس وهي تطلقها .

«أما وقد تبدلت الأيام وجرّت جوار بالنحس بعد السعد وشبهنا من هول الزمان وصار فتانا كهلاً من طوارق الحداث وجاء زمن اليقظة فليخفق القلب فان كل ساعة تمر ترسل إليه سهماً من جعبة الآلام لا يشذ عن الرمية حتى إذا تبينت الخيط الأبيض من الخيط الأسود ودرج الليل في أكفان الصباح أحسست بأن

في فؤادي اثني عشر سمهما فوهبت الى نسجات الصبح زفراتي والى
نداه عبراتي» الخ .

هذا مثال من بيانه الشائق فلنجل الآن الطرف قليلا في المحاضرة .
أوجز الأستاذ صبرى تاريخ الحركة الاستقلالية الايطالية ايجازا
قضيت له عجباً لأنه أول ما شاهدته من نوعه بلساننا العربى
الشريف . من المتصدين للكتابة فيمن عرفت مجرم بلا عمد يقتل
الموضوع بتأخيصة إياه ومنهم نصف بصير يبق من الموضوع رمقا
في جزء أو أجزاء مما اتفق له تصوّره حق تصوّره . أولئك اتخذوا
من التلخيص مطية لاركاب جهلهم أمام الجمهور مركبا علميا .
وما لمثل هذه المهانة خالق التلخيص الذى هو كنه الأمر ولباب
البلاغة . إنما التلخيص أو الايجاز أو التحصيل عمل القادرين
المحيطين بالشىء يقتلونه علما لا جهلا ويدركون كلياته وجزئياته
وينظرون على هدى أيا كان الجانب الذى ينظرون اليه منه فاذا وسع
ذهنهم غرضا بكل مشتملاته واعتقدوا الفائدة في تحصيله لحسن
تمثله تصوّره لك من عال فوجد المطالع فيه كل شىء ولكن
مصغرا ولم يفقد الباحث عن جوهره شيئا مهما قل من ذلك
الجوهر وأخذ منه كل على قدر قريحته وفهمه ، كذلك فعل صبرى
في تحصيله للحركة الاستقلالية الايطالية ووفق ما شاء حسن الأداء

تحصيلا . صاحب هذه المحاضرة إنما وضعها خدمة لمصر فيما يفهم بالبداية لأنه ليس ايطاليا ولا يعنيه أن يجعل أسماء أعلامها الأحرار وأبطالها الكبار في نظر المصريين يتغنون بها لغير ما طائل يحلى به سوى تمجيد قوم غرباء عنهم ولكن من كياسة صبرى أنه لم يمتن على أمته بنيته هذه بل كد وجد ودارس وراجع وحرر كتابا قيما ممتعا مشوقا الى الاستقلال الصحيح مغريا بعظائم الأخطار مهونا على النفوس تحمل المشاق مهما طال بها الأمد دون الوصول الى الضالة المنشودة، حرره ليأخذ منه كل مصرى بلا سأم من امتداد المطالعة ولا غرق في البحر الخضم من الأخبار التي لا تهتمه كل ما ينفعه الالهام به ويكون له مرشدا ومسعدا في طريقه الى غايته الوطنية المصرية دون سواها وبهذا قد أحسن صبرى احسانا ثانيا .

حشر صبرى جلائل الحوادث في سلسلة متصلة محكمة الربطة ولكنه لم يفته التفصيل حيث للتفصيل قيمة الأمر الكلى بل رب جزئية فاقت أعظم الكليات ونزلت من عهد تاريخى بتمامه منزلة اللفظة الخاصة التي يهبط بها الالهام من عامة الكلام وههنا سأضرب مثلا بنقل سيرة يجدر بها أن تقدم في سير الأبرار بأوطانهم ، قال يذكر واقعة جرت لشابين ايطاليين كانا في البحرية النمساوية أوائل أيام الثورة في بلادهم وإبان النهضة التي نهضها مازينى بملك البلاد .

«وقد حدث أنه في عام ١٨٤٣ وجد شابان ضابطان في البحرية النمساوية من أعيان فينيسيا كانا متشبعين بتعاليم مازيني وجمعيته وكانا يعتقدان أن ايطاليا بحاجة كبرى الى مثل عال من الشجاعة والتضحية فأليا على نفسيهما أن يعطيا ذلك المثل وأن يذهبا الى جبال الآبين الجنوبية لتنظيم حرب عصابات ضد القوة الغاشمة .

«وعبثا حاول مازيني أن يقنعهما بالعدول عن رأيهما، وما عتا أن اتجها نحو الجنوب بعد أن أرسلا اليه خطتهما التفصيلية فأمكن الحكومة الانجليزية الوقوف عليها وابلاغها سرا الى حكومة نابولي الى أخذت أهبتها .

«وما كاد الضابطان يضعان قدمهما على اليابسة حتى قبض عليهما وأعدما رميا بالرصاص وهما يهتفان « فلتحى ايطاليا ! » ، وقد كان لهذا الهتاف صدى رددته ايطاليا فأصابها منه هزة كهزة الكهرباء لأنه مثل عال للتضحية والموت فداء الوطن » .

أما لغة المحاضرة فقد جعلت كما هي في السطور الآتية سمة قريبة التناول شفافة الظواهر عن أبعد البواطن يتبين القارئ من خلالها المقاصد بلا إعمال روية ويتأثر بمؤثرات المحرر كأن احساسهما بالبداهة مشترك وتلك غاية في البلاغة وما البلاغة إلا مطابقة الكلام لمقتضى المقام ما

خليل مطران

مصر في ٢٢ يونيو سنة ١٩٢٢

الباب الأول

عصر النهضة والثورات

١٨١٥ — ١٨٤٨

ابتدأت الحركة الاستقلالية الكبرى في إيطاليا في أواخر القرن الثامن عشر وبلغت غايتها في سنة ١٨٧٠ ، وهذه الغاية كانت تنحصر في تحقيق وحدة إيطاليا وطرد دولة النمسا المحتلة .

أما الطرق فكانت ثلاثة : الثورة ، والحرب ، والسياسة .
والأسباب التي ساعدت على تحقيقها :

(١) انتشار مبادئ الثورة الفرنسية .

(٢) وجود ما يمكن تسميته بالوحدة الروحية التي هي مادة الشعور القومي : فاللغة واحدة ، والدين واحد ، والعوائد واحدة ، وذكرى الماضي العظيم الذي يحن إليه واحدة .

(٣) وجود ولاية كبيرة مستقلة تحكمها أسرة قديمة وطنية

مستقلة هي ولاية سرديانية المكوّنة من : بيمون ، وسافواى ، ونيس
وجزيرة سرديانية .

(٤) وجود زعماء كبار فى ميدان الفكر وفى ميدان العمل .

فى ميدان الفكر : دانت ، الفييرى ، دازجليو ، روسيتى ،
مازوني ، جيوبرتى .

فى ميدان العمل : مازينى ، كافور ، جارييلدى ، فكتور
عمانويل .

(٥) وجود محالفات أجنبية وأهمها محالفة نابليون الثالث .

ويمكن تقسيم الطريق الذى قطعتة الحركة الاستقلالية الإيطالية
الى مرحلتين :

الأولى منهما بين ١٨١٥ - ١٨٤٨ ، تغذت فيها الحركة

بالمهضة الفكرية الشعرية الجديدة التى كانت تبعث ميت الأمل

فى ظلمة اليأس ، وبالحركات الثورية فى أنحاء إيطاليا المختلفة

وما صحبها من سفك دم ، من نفى وسجن وتعذيب ، ولقد كان مازينى

فى هذا الطور الأول ، طور شباب الحركة ، الزعيم الأكبر الذى يشخص

ويخصص الوجهة الفكرية الوجدانية الخيالية (Romantique) من

الحركة والوجهة الثورية منها .

أما المرحلة الثانية بين ١٨٤٨ — ١٨٧٠ فقد تغذت فيها الحركة بالاصلاحات النافعة وبالحروب النظامية .

وقد كان كافور في هذا الطور الثاني ، طور كهولة الحركة ونضوجها ، الزعيم الأكبر والسائس المحنك الذى يشخص الثورة العملية المنظمة التى تخدع أعين الرقباء وتتمشى خفية فى طريق الاصلاحات والتعمير ثم تخرج منه بفأة فى صورة حرب .

الفصل الأول

إيطاليا لغاية مؤتمر فيينا

كانت إيطاليا في أواخر القرن الثامن عشر كالمانيا مقسمة إلى ولايات نتجت من تفكك الامبراطورية الرومانية في القرون الوسطى، وكان معظم الولايات في الشمال وفي الوسط في قبضة النمسا : لومبارديا، وبارم، ومودين، وتوسكانه، وكان لها فوق ذلك حماية مستترة في بعض الولايات الأخرى، وأكبر حكومة وطنية مستقلة في ذلك الوقت حكومة سردينية وأهم أجزائها بيمون.

بيمون واقعة في الشمال الغربي من إيطاليا تحت سفوح جبال الالب، أهلها أشداء كسكان الجبال يحبون العيشة الخشنة بين ممارسة الحروب، فهم جند مدربون، وبين تعهد أشجار الكرم والتوت.

وكان عدد سكان مملكة سردينية يربو على الثلاثة ملايين وعاصمتها تورينو من أجمل العواصم، وكان الملك يختار حاشيته وكبار الوزراء والموظفين والضباط من الأشراف فكانوا طوع بنانه.

وكان الكهنة والقساوسة أصحاب الثروة الأمرين الناهين مع
الأشراف في بيمون ، لهم اليد العليا على المدارس والتعليم ، ولهم
محاكم خاصة مستقلة تفصل في كل الأمور المتعلقة بالزواج
والمسائل الدينية ، وقد بلغ عددهم في بيمون وحدها ٢٠,٠٠٠ قسيسا ،
و ١٢,٠٠٠ راهب وراهبة ، وكانت في ايطاليا حكومات أخرى
مستقلة غير حكومة سردينية ولكنها لم تكن حكومات قومية ،
مثل ذلك :

حكومة البابا في الولايات المسماة ”ولايات الكنيسة“ وهي
مارش ، والرومانية ، والابروز في شرق وسط ايطاليا ومركزها روما ،
وكان البابا رئيسا دينيا عاما للكاتوليك الطليان والنمساويين والفرنسيين
وغيرهم على السواء فكان يتأثر بارادة حكوماتهم جميعا ، ولت الأمر
وقف عند هذا الحد فانه لم يكتف بالسلطة الروحية بل وضع يده
على السلطة المدنية وجعل الحكومة دينية بجته في جميع مظاهرها
فكان جميع الوزراء والحكام والموظفين من رجال الدين ، حكومة
هذا شأنها موزعة بين مسائل الدين ومسائل الادارة ما كانت اتعنى
بترقية الشعب بل أكبر همها الاستئثار بالسلطة والمحافظة عليها
وجباية الأموال فانتشر الفساد خصوصا في روما وامتألت الطرقات
بآلاف الشحاذين والكسالى والعاطلين .

فلا عجب ان رأينا بيمون في الشمال — بفضل وجود حكومة قومية فيها ووجود طبقة من الشعب نشيطة بين الأشراف والفقراء. تشغل بالزراعة والصناعة والتجارة وتعطى أفضل الجند — قد أصبحت محور الحركة الوطنية في المبدأ والنهاية، بينما كانت حكومة روما حتى آخر لحظة العقبة الكأداء التي تعوق الحركة عن اتمام دورتها .

أما في الجنوب فقد كانت ولاية نابولي وصقلية أكبر ولاية مستقلة ولكن الأسرة الحاكمة كانت أجنبية اسبانية . وزيادة على ذلك فان أرضها كانت أقل خصبا من أرض بيمون الشمالية وأهلها أقل جلدا على الحروب ودراية بها، وأقل علما ونبوغا .

تلك مجمل حالة إيطاليا في أواخر القرن الثامن عشر قبيل الثورة الفرنسية، كانت إيطاليا في مجموعها كمعظم دول أوروبا في ذلك الوقت ساكنة خامدة كأنها في ذهول، والصفة الوحيدة التي امتازت بها هي كما يقول المؤرخ بيتراورسى : « الولع بالتمثيل والفنون والآداب ولا سيما الموسيقى »، وقد استخدم الفييري (١٧٤٩ — ١٧٠٣) وهو من نبغاء بيمون الروايات التمثيلية ليوقظ شعور الطليان بقوميتهم بين عظمة الماضي البائدة وعظمة المستقبل المأمول .



وبينما كانت ايطاليا على تلك الحال مكسالا ترتع بين الدين والجهل غافلة تلهو بالشعر والنأى إذا بالثورة الفرنسية تعلن على ملأ العالم حقوق الانسان وحقوق الشعوب ، ولا شك فى أن أثرها كان عظيما فى الحركة الايطالية ، وكذلك أثر غزوات نابليون (١٧٩٦ - ١٨٠١) والاحتلال الفرنسى الذى انتهى فى سنة ١٨١٤ وتلك هى أهم أسباب ونتائج الانقلاب الذى أحدثه فى ايطاليا الثورة والاحتلال :

(١) كثرة الحروب بين نابليون والنمسيين وما صحبها من انتصارات وهزائم أحدثت هزة عامة نهبت الشعور القومى لاسيما وان الفرنسيين أثناء حروبهم كانوا يعدون الطليان بالحرية والاستقلال ، وقد تكونت وقتئذ فى ايطاليا أحزاب صغيرة ثورية فى ولايات مختلفة ضد الحكومات المحلية ، طالبة قسطا من الحرية والاصلاحات ، معتمدة على مساعدة الجنود الفرنسية لها كما حصل فى روما سنة ١٧٩٧ حيث أعلنت "الجمهورية الرومانية" .

(٢) ١ - ضم الولايات الآتية للامبراطورية الفرنسية :
بيمون التى كانت مستقلة - وقد هربت الاسرة الوطنية الحاكمة فى جزيرة سردانية - وجنوى ، وتوسكانة ، وبارم ، وروما .

(ب) تكوين مملكة في شمال إيطاليا من فينسيا، ولومبارديا ومودين، والرومانية، ومارش ديمت "مملكة إيطاليا" وعين أوجين بوهارنيه زوج ابنة نابليون حاكما لها.

ويلاحظ أن الموظفين في جميع الولايات التي ضمت لفرنسا كانوا فرنسيين، أما في «مملكة إيطاليا» فكانوا وطنيين، لاريب أن اندماج خمس ولايات في هذه المملكة الجديدة ووضعها لأول مرة تحت نظام ادارة عامة موحدة مستقلة بالفعل أكبر مثل محسوس مشجع للحركة الإيطالية على تحقيق الوحدة والاستقلال.

(٣) تغيير مظاهر الحياة الاجتماعية ونظمها بفضل :

(أ) إلغاء امتيازات الأشراف والقساوسة وتقرير مبدأ المساواة.

(ب) حلول مجموعة القوانين المدنية الفرنسية محل آلاف القوانين والعوائد المتناقضة في البلد الواحد وفي البلدان المتفرقة.

(ج) وضع نظام واضح للضرائب.

(د) تنظيم الادارة وتوحيدها.

(هـ) انشاء الطرق والجسور وغير ذلك من الأعمال.

المادية الكبرى الحديثة التي ساعدت على إنماء
الرفاهية والثروة .

(و) الاهتمام بالتعليم ونشر المدارس وإخراجها من يد
القساوسة وتشجيع الزراعة والصناعة والتجارة .

ولكن فداحة الضرائب التي كانت يجيها الفرنسيون وموت
عشرات الآلاف من الطليان الذين حاربوا قسرا في صفوفهم
في بلاد بعيدة وماتوا ضحية قضية لا يهمهم أمرها — قتل منهم
نحو ٦٠,٠٠٠ في حروب روسيا وإسبانيا — ولدا في نفوس جميع
الطبقات من قسس وأشرف وفقراء وغيرهم كراهية الحكم الفرنسي .
على أنه من العدل أن نقتر أن هذا الحكم قد أتى بالخير العميم ،
وحسبه أنه ساعد على تكوين « حياة قومية » جديدة باعتراف
المؤرخ المعاصر سيراز بلباؤ إذ قال : « إنه منذ ذلك العهد بدأ
الناس ينطقون بحب ونفخار أكثر من ذي قبل امم إيطاليا » ،
وباعتراف مازيني إذ قتر « أن النهضة الفكرية ونماء الرفاهية الوطنية ،
والشعور بالاخوة الذي تولد من المحاربة جنبا لجنب ، كل هذه
حقائق أصبحت متجلية خصوصا بين سنة ١٨٠٥ و ١٨١٣ ، ورغما
من تبعيتنا للإمبراطورية الفرنسية وخضوعنا للاستبداد السياسي
والحروب القاسية فإن شعورنا بقوميتنا الذي تمثل في جيشنا الباسل

تقوى عزائنا ورسم لنا على البعد وحدة إيطاليا التي هي غاية الجميع في جهادهم .

ظهور هذه الحياة القومية يعدّ أكبر ثمرة للاحتلال الفرنسي في إيطاليا ، وقد انتهى في سنة ١٨١٤ ، وكان الحلفاء وقت محاربتهم لنابليون يعدون الطليان بالحرية والاستقلال فلما ابتسم لهم الدهر ونفى نابليون في جزيرة إلبه قلبوا لهم ظهر المحن فما كان من أحرار الطليان إلا أن اتصلوا بنابليون في منفاه طالبين إليه العودة لبناء وحدتهم بسيفه ، ولما هرب نابليون من منفاه جازف مورات وهو حاكم نابولي ومن أشهر قواد نابليون ، فألقى دلوه في الدلاء وسار بجيشه إلى الشمال لمحاربة النمسا ونادى في طريقه باستقلال إيطاليا ولكنه لقي الهزيمة والموت .

مؤتمر فيينا — بعد عودة نابليون حدثت موقعة واترلو الشهيرة ونفى نابليون ثانية في جزيرة سانت هيلين فاجتمعت دول النمسا وإنجلترا والروسيا وبروسيا وفرنسا في مؤتمر فيينا لتقرير المصير في خريطة أوروبا التي كانت الثورة الفرنسية وحروب نابليون سببا في تحويلها وتبديلها .

وكان ممثل النمسا الوزير الأول مترنخ من أكبر أعداء الثورة وأنصار النظام في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، والمراد

بالنظام بقاء البلاد على ما هي عليه من ظلم واستبداد لا سيما في الولايات التي تتكوّن منها النمسا .

وكان غرض مؤتمر فيينا الأساسى فيما يختص بايطاليا هدم نتائج الثورة الفرنسية وارجاع الحال إلى ما كانت عليه قبل الثورة (Restauration) فاقضى ذلك تجزئة ايطاليا ثانية وتوزيع ولاياتها بين أسرتى الهابسبورج النمسوية والبوربون الاسبانية ووضعها ثانية تحت سلطان الأمراء والأشراف والاكليروس والبوليس ، وهذه أهم نتائج المؤتمر :

(١) استردت بيمون استقلالها لأنها كانت عوناً للحلفاء في حربهم ضد نابليون .

(٢) كسبت النمسا :

(أ) امتلاك ولاية لومبارديا وحل مملكة ايطاليا .

(ب) نشر نفوذها بواسطة أمراء نمسويين في توسكانة ، مودوين ، وبارم .

(ج) تعهد فرديناند — وهو من أسرة البوربون وحاكم نابولى الجديد — بأن لا يمنح شعبه حرية أكثر من الحرية التي تتمتع بها ولاية لومبارديا النمسوية .

وبالاجمال بسطت النمسا نفوذها من جديد على إيطاليا .
ولكن المؤتمر ارتكب غلطة كبرى إذ اتبع رأى مترنخ
الذى كان يعدّ إيطاليا « شكلا جغرافيا » ولم يقدّر وزنا لمبدأ
القومية الذى أعلنته الثورة الفرنسية وبدأ يتأصل فى الأمم كافة
وفى الطليان .

وارتكب الملوك والأمراء الذين رد المؤتمر إليهم عروشهم التى
ثلثها الثورة الفرنسية والاحتلال الغلطة عينها فلم يحسبوا حسابا
لتطور السكان ، وكان أكبر همهم هدم ما شاهده الفرنسيون من عمل
نافع والرجوع بالبلاد إلى الوراء . بلغ من حقنهم على الفرنسيين
أن دمرت " حديقة النبات " فى تورينو لأنها من صنع الاحتلال
الأجنبى ، واضطر المجلس البلدى الى بناء كنيسة فوق الجسر الممتد
على نهر البوحتى لا يكون نصيبه الهدم وهدمت فى روما مصابيح
الاضاءة لنفس السبب .

ولم يكن من الطليان بعد أن ذاقوا بعض ثمار الحرية
إلا التفكير فى أمرين :

(أولها) طرد الغاصب النمساوى الذى ينشر بينهم العيون ويحكمهم
بالبوليس والقوة العاشمة .

(ثانيهما) التخلص من ظلم الأمراء الأجانب أو الوطنيين الذين يحولون بينهم وبين التمتع بالحرية الفردية والاجتماعية ويقفون أمامهم سدا في طريق الإصلاحات . ولأجل تحقيق هذه الغاية اضطر الطليان الى تكوين الجمعيات السرية وبدأت فكرة الثورة تختمر في رؤوسهم ويتمخض عن حركات ثورية متفرقة الى أن حان الزمن وظهرت في أجلى مظهر لها عام ١٨٤٨ حيث ثارت معظم شعوب إيطاليا .

قلنا إن الثورة الفرنسية أرادت تحرير الفرد وتحرير الشعوب المظلومة وقد بذرت بذورها في أوروبا فكانت تنمو ببطء أو على عجل حسب استعداد البلدان وتهيؤ الظروف ، وكانت لها مظاهر ثلاثة :

(المظهر الأول) قيام الشعوب ضد ملوكهم المستبدين ومطالبتهم بالحرية والدستور كما حدث في فرنسا وإسبانيا والنمسا .

(المظهر الثاني) قيام الشعوب المظلومة ضد الدول الأجنبية المحتلة لها وتكوين وحدتها كما حدث في إيطاليا .

(المظهر الثالث) قيام شعوب لتحقيق وحدتها فقط كما حدث في ألمانيا .

ولأجل مقاومة مظاهر الثورة والعمل على قتلها تحالفت الدول الكبرى وكان عميدها مترنخ عدو الثورة اللدود الذي صرح بأن « السياسة العصرية في أوروبا يجب أن يكون أساسها الراحة » ومعنى الراحة الجمود وعرقلة التقدم .

وقد كانت نتيجة المؤتمر في أوروبا تعطيل سير الحركات الوطنية أو القومية الحرة وتحويلها الى حركات ثورية عنيفة كما حصل في اسبانيا سنة ١٨٢٠ وفي فرنسا سنة ١٨٣٠ و ١٨٤٨ وقد كان لهذه الثورات الأجنبية صدى في ايطاليا اذ قامت هناك حركات ثورية استفاد منها « مترنخ » وجعل الدول تقرّر مبدأ « التدخل المسلح » في الممالك التي تحدث فيها اضطرابات ضد النظام والتعاون بواسطة جيوشها على قتل كل حركة .

الفصل الثنائي

الحركات الثورية

قام بالحركات الثورية في ايطاليا بين سنة ١٨٢٠ و ١٨٣٠ جمعية الكربوناري، وبين سنة ١٨٣٠ و ١٨٤٨ مافجي وجمعيتها « ايطاليا الفتاة »، ثم دخلت الثورة في طور نظامي عملي في صورة حرب .

جمعية الكـربوناري — إن النظام الجديد في ايطاليا بين سنة ١٨١٥ و ١٨٢٠ وما اشتمل عليه من مساوئ — كاستئثار القساوسة بالتعليم ووضع حقوق جمركية تعرقل التجارة بين الولايات. وارجاع الامتيازات — أغضب الأحرار الذين كانوا عقدوا آمالهم على نابليون لتحرير بلادهم، وقد أدى ذلك الى تقوية جمعية الكربوناري وانضمام الكثيرين اليها حتى أصبحت كحزب وطني .

وكان الكربوناري مذبذبة ١٨٠٧ منتشرين في جنوب ايطاليا، ومعظمهم من فخامي الكلابر (Charbonniers)، هربا من يوسف بوناپرت الذي كان يضطهدهم ومن الاحتلال الفرنسي، وكانت غايتهم من حيث استقلال البلاد مبهمة، وذلك لأن الفكرة

الاستقلالية عندهم كانت متولدة من كراهية الظلم على أن كراهية الظلم عندهم لم تكن وليدة التربية السياسية أو التربية الوطنية بل كانت وليدة التربية الدينية والمبادئ الروحية (Mysticism) التي كانت خليطا بين الماسونية وفلسفة القرن الثامن عشر، ومن مآثور أقوالهم : « إن المسيح أول فريسة للظالمين » فكان الصليب منصوبا في جميع ألواجههم ، وكان نظامهم أشبه بنظام الماسونية يشرف اللوح الأعظم في روما على ألواجههم العديدة .

وقد انتشر نفوذ الكربوناري شيئا فشيئا في بلاد الشمال حيث تكون حزب اصلاحي تحت رئاسة كونفالونيري : أوجد هذا الحزب المراكب التجارية وأدخل آلات النسيج والحاز وغيرها من طرق الاصلاح ، وأنشأ في سنة ١٨١٩ مجلة "كونسلياتوري" وهي لسان حال النهضة الأدبية الجديدة "الرومانتيزم" التي بها يتحرر الفرد من قيود الماضي وتبرز شخصيته ، ولكن السلطة النمساوية لم تحتمل وجودها وصادرتها فاضطر الحزب الى العمل في الخفاء واضرام نار الثورة والاتصال بالكربوناري جنوبا .

ثورات سنة ١٨٢٠ و ١٨٢١ - كان فرديناند ملك نابولي مستبدا مكروها من جميع الطبقات لاسيما الجيش حيث وجد الكربوناري معظم أنصارهم .

ما كادت تحدث في اسبانيا الثورة العسكرية للمطالبة بالحرية والدستور وتصل أنباؤها الى نابولي — و بينهما روابط قديمة متينة — حتى هب الضابطان موريللى وسلفاتى على رأس فرقة من الفرسان يطلبان ملكا وطنيا ودستورا (٢ يوليه سنة ١٨٢٠) : فى أقل من ثلاثة أيام امتدت الثورة على مسافة عظيمة بين كاتيناتا وبازيليكاتا وكان فى أفيلينو وحدها ١٢٠٠٠ جندى دستورى ، خلاف ٥٠٠٠٠ جندى آخر تحت قيادة بيب (Pepe) ، عضو الكربونارى ، وكانت هذه الجنود قبل الثورة مخصصة لمقاومة قطاع الطرق واللصوص .

رأى الملك فرديناند الخطر المحدق به فقبل منح الدستور وتنازل عن الحكم لولى العهد ، ثم تألفت وزارة جديدة لم يكن فيها من حزب الثورة إلا القائد بيب فتج نزع مستمر بين الوزارة والكربونارى ستستفيد منه النمسا .

وفى يوم ١٤ يوليه ثارت جزيرة صقلية التابعة لنابولى مطالبة بالانفصال عنها وبالدستور ، ولكن هذه الثورة كانت حربا مدنية أكثر منها قومية نظرا لانقسام أهل صقلية على أنفسهم .

وفى أثناء ذلك كان عدو الثورة والحرية مترنخ يرغى ويزيد ويدعو الدول الى الاجتماع والتدخل لتوطيد دعائم النظام بينما كان

أهل نابولي في شغل شاغل من أمورهم الداخلية التي ارتبكت
للأسباب الآتية :

(١) عدم الثقة بالملك الأجنبي .

(٢) استبداد حزب الثورة الكريوناري ورغبته في الحلول محل

البرلمان .

(٣) وجود أعضاء كثيرين في البرلمان تطن في رؤوسهم

مشاريع الاصلاحات ولكن تنقصهم التجارب .

(٤) وجود وزراء غير أكفاء يتعدون عن الشعب ويتقربون

الى الملك ومترنخ خوفا من الثورة في الداخل والغزوة من الخارج

أما الشعب فكان من جهته مترددا بين الثورة ضد الملك وضد

النمسا والتعرض لخطر الغزو وبين السكوت والتعرض لخطر ضياع

الدستور .

وسرعان ما اجتمعت الدول بناء على دعوة مترنخ في ليياخ

وقررت إرسال جيش في نابولي قضى على الثورة والدستور (٢٣ مارس

سنة ١٨٢١) .

ولكن في نفس الوقت الذي انطفأت فيه ثورة نابولي في الجنوب

قامت ثورة أخرى في الشمال في يميون حيث انتشر الكريوناري

خصوصاً بين طبقات الجيش وكان اتصالهم بالأمير شارل ألبريولى
العهد مشجعاً لهم .

وأول شوب الثورة فى الاسكندرية فتورينو، وأهم مطالبها
دستور كالدستور الاسبانى وتكوين « مملكة ايطاليا » التى كان
أنشأها نابليون بحيث تمتد على جميع أنحاء ايطاليا، وكان زعيم الثورة
الجرىء سانتاروزا .

أجاب الملك على ذلك بأن تنازل عن الملك لأخيه شارل فيليكس
الذى كان غائباً فى مودين ، وفى أثناء غيابه عين الأمير شارل البير
صديق الكربونارى وصياً فاستهز هذه الفرصة ومنح الدستور وحلف
الييمين ، ولكن الملك شارل فيليكس استنكر الدستور عند عودته وطلب
إلى اسكندر ملك روسيا أن يمدّه بجيش لمقاومة الحركة فأعلن وزير
الحربية فى العهد الجديد سانتاروزا زعيم الثوار أن الملك أسير
النمساويين وسار بالجيش والطلبة المتطوعين للقاء الجيوش الأجنبية .

ولسوء الحظ هزمه النمساويون فى نوفار فهرب الزعماء فى جنوى
والخارج ، وحكم بالاعدام على ٢٠٠ نفس ورفقت ٢٢٠ ضابطاً
وأغلقت جامعتا جنوى وتورينو لأن أساتذتهما وشيبتيهما لعبوا دوراً
كبيراً فى الحركة ، وأخذت النمسا تبث الارصاد فى جميع أنحاء ايطاليا
وتشدد الرقابة على الصحف والكتب والأغاني حيث كانت تمحى كلمة

« الحرية » (Liberte) وتستبدل بها كلمة الطاعة (Loyaute) ، ثم عملت على إقامة الدعاوى السياسية وتسميم الجوّ أملاً في قتل الحركة خصوصاً في لومبارديا وفينيسيا وحكم بالاعدام على كثيرين من الزعماء الوطنيين في البلدان المختلفة بحجة التآمر ، وبلغ من تدخل النمسيين في جميع شؤون الولايات الإيطالية في ذلك الوقت أن قال أحدهم : « أن الطليان يأكلون من النمسا حتى في خبزهم »

ولكن هذه الاجراءات الاستبدادية كانت خير سداد تنبت فيه الحركة نباتاً طيباً .

وقد نقل الكربوناري بعد فشل ثورة نابولي مركزهم من الجنوب وجعلوا لوجههم الأعظم في باريس ومن هناك اشتغلوا على بعد .

وكان مترنخ بين سنة ١٨٢١ — ١٨٣٠ يطغى ويستبد بحجة الدفاع عن العروش في إيطاليا فترتب على ذلك أن الملوك والأمراء بدأوا لا يطبقونه واتصلوا سرا بالكربوناري للتخلص من الحكم النمسي ، وبدأت الحركة تنتشر ثانية في الرومانية والولايات التابعة للكنيسة التي كانت بعيدة عن الثورة ، وما كاد يحل عام ١٨٣٠ حتى كان الكربوناري ، وهم في باريس ، قد أعدوا حركة ثورية منظمة في شمال إيطاليا ووسطها .

ثورة سنة ١٨٣١ — كانت الحركة السياسية في إيطاليا بين سنة ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ضعيفة تئن تحت مظاهر الضغط والاستبداد وكان الكربونارى طريدين مشردين في كل مكان فلجأ منهم عدد كبير الى الولايات التي لم تحدث فيها الثورة: وهى مودين وبارم وولايات الكنيسة في وسط ايطاليا وأسسوا فيها جمعيات سرية .

ولما حدثت ثورة سنة ١٨٣٠ انتهزت هذه الجمعيات فرصة موت البابا بيوس الثامن في السنة عينها واتفقت على القيام بالثورة وتنصيب ملك مكان البابا في روما فأحس بذلك حاكم مودين وأمر بالقاء القبض على المتآمرين في مملكته وعلى زعيمهم مينوتى فثار جميع المتآمرين الآخرين في ولايات الكنيسة ونجحوا في تكوين حكومات جديدة بموظفين مدنيين حلوا محل القساوسة ، واشترك الجيش وكثيرون من الموظفين في الحركة فعمت في مدة لا تتجاوز الثلاثة أسابيع الولايات الشرقية : وقد أعلنت الحكومة المؤقتة في بولونيا عاصمة مودين التي كانت منبع الحركة بفضل جامعته انتهاء سلطة البابا المدنية وإجراء انتخابات عامة فانتخبت جمعية وطنية قصدها نواب من جميع ولايات الكنيسة — مما دل على قومية الحركة — اجتمعوا وأعلنوا أنفسهم ”جمعية نواب

المقاطعات الحرة بإيطاليا“ ولقبوا المقاطعات الشائرة المجتمعة
 “بمقاطعات إيطاليا الموحدة“، وسرعان ما تدخلت النمسا وبددت
 شمل هذه الولايات وأرجعت الحال الى ما كانت عليه واكتفت
 الدول التي اجتمعت وقتئذ بارسال مذكرة الى البابا تنصحه باحداث
 اصلاحات منعا للثورة ، ولكن البابا لم يعمل بنصيحتها واستأجر
 فرقتين من العساكر السويسرية وأعد جيشا من المتطوعين لمحاربة
 جميع مظاهر الحرية والتقدم ، وبلغ به الأمر أنه كان يعد التلغرافات
 والسكك الحديدية وجميع مستحدثات القرن التاسع عشر أعمالا
 عدائية ضد الكنيسة .

ذلك مجمل الحركات الثورية في سنى ١٨٢٠ ، و ١٨٢١ ،
 و ١٨٣١ ويلاحظ :

- (١) أن هذه الحركات الثلاث كانت تسير على نهج الثورات
 الأجنبية في اسبانيا وفرنسا فلم يكن لها طابع وطنى أو قومى جلى .
- (٢) أن الحركتين الأوليتين فى نابولى وبيمون كانتا
 عسكريتين أكثر منهما شعبيتين ، أما الثالثة التى حدثت فى ولايات
 الكنيسة بالوسط فكانت سلمية بحتة ، وقد امتدت الحركات

الثلاث على أقاليم واسعة من إيطاليا ولكن امتدادها كان سطحيا غير عميق .

(٣) أن الفكرة الاستقلالية لم تنضج بعد والفكرة الدستورية أيضا ، ورغم ذلك فإن فكرة الوحدة القومية بدأت تتجلى بطريقة جزئية محسوسة تبشر بالمستقبل سواء كان ذلك في الشمال حيث كانت أمنية الغالبية من الطليان تكوين "مملكة إيطاليا" من جديد ، أو في الوسط حيث ثارت ولايات الكنيسة وانضم بعضها الى بعض تحت اسم "مقاطعات إيطاليا الموحدة" .

ولكن النمسا القوية صاحبة النفوذ والسلطان حالت دون تحقيق هذه الفكرة ، خصوصا وان عدم وجود برنامج وطني محدود للكربوناري لم يكن من شأنه تقوية الحركة وتعميمها بطريقة جدية شعبية ، أضف الى ذلك عدم وجود زعيم وطني بالمعنى الصحيح .

كانت الخلافات حول البرنامج الوطني كثيرة هذه أهمها :

(١) هل ستكون إيطاليا مملكة واحدة تندمج فيها جميع الولايات الإيطالية أو مملكتين مثلا إحداهما في الشمال والأخرى في الوسط ، أو هل ستكون إيطاليا مجموعة ولايات متحدة ؟

(٢) هل ستكون حكومة ايطاليا المقبلة ملكية أو جمهورية ؟

(٣) هل سيعتمد الطليان على أنفسهم أو على مساعدة أجنبية

من الخارج ؟

كل هذه مسائل كانت تجول في نفوس الطليان المفكرين قبل

ان ينزل مازيني وجمعيته في الميدان .

الفصل الثالث

ما زيني

ولد ما زيني في عام ١٨٠٥ في مدينة جنوى وكان زمن الدراسة مولعا بالآداب الوجدانية الخيالية (Romantique) وكان محبا لبلاده بكل ما وهبه الله من قوة وعافية فاندج صغيرا في الكربوناري وسرعان ما قبض عليه بحجة التآمر وألقي في السجن ، وهناك أخذ يفكر مليا في الحركة وكان واقفا على دخائلها فساقه ذلك الى التنبه الى أسباب ضعفها التي تنحصر في عدم ارتكازها على الشعب الذي هو عمود كل حركة قومية ، وعدم وجود غاية واحدة وطنية بحتة تحل محل صيغ الكربوناري المبهمة ، وقد رأى انه لن تستمد الحركة قوتها من الشعب ، إلا اذا بدئ بتعليمه وغرس العقيدة الوطنية في فؤاده .

قضى ما زيني ستة أشهر في السجن ثم نفى الى مرسليا وهناك شرع مع بعض قرنائه من الشبان المنفيين في تأسيس جمعية " ايطاليا الفتاة " .

في أثناء ذلك تولى شارل البير صديق الكربوناري في صباه الملك في بيمون فشخصت اليه جميع الأبصار ولا سيما الأحرار، فاعنتم ما زيني هذه الفرصة وأرسل اليه كتابا ينم عن شجاعته ووطنيته العالية يبلغ العشرين صفحة طبع خلصة وتداولته الأيدي في جميع أنحاء إيطاليا، وكان يشتمل على برنامج الجمعية الجديدة وإننا نجتزئ منه بما يأتي :

« لم يعد الشعب يقنع بالقليل من المنح ، وإنما يريد أن يعترف بحقوقه الانسانية التي حيل بينه وبين التمتع بها زمنا طويلا ، إنه يريد الحرية والقانون والاستقلال والوحدة ، وهو اليوم مقسم منقسم مظلوم ، ولقد يعز عليه ويؤلمه أن يسمع الزائر الأجنبي يدعو أرضه أرض أموات ، وأن تجرع كأس العبودية الى آخر نقطة فقد آلى على نفسه أن لا يحملها ثانية إلى شفتيه فليكن الملك ذلكم البطل المحامي عن قضيتنا في بيمون وفي إيطاليا جميعها .

مولاي :

«إذا لم تكن لك يوم القيت اليك مقاليد الحكم من غاية سوى البقاء في دائرة من الذلة والمسكنة ، دائرة الملوك الذين تقسدموك فظل مكانك وطأ طع الرأس تحت عصا العدو .

«أما إذا سمعت في نفسك صوتاً يناديك أنك ولدت لغاية
كبرى فاتبع ذلك الصوت، فإنه صوت النبوغ والالهام، صوت
إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها .

مولاي :

«إن إيطاليا جميعها تنتظر كلمة منك، كلمة واحدة تهب نفسها
لك، فانطق بهذه الكلمة وكن على رأس هذه الأمة، وليكن شعارك
وشعارها : الوحدة والحرية والاستقلال، ثم أعلن حرية الفكر
وصرح بأنك المطالب بحقوق الشعب المنادى بها، الباعث إيطاليا
من لحدها، وشيد المستقبل واجعل اسمك يتألأأ في جبين عصر
جديد، وليكن يومك فاتحة ذلك العصر وما عليك إلا أن تسلك
السبيل التي نتفق مع إرادة الأمة وأن تثبت وتصبر فالنصر
لا بد لاقبك .

مولاي :

«إذا فعلت ذلك التفقنا حولك وفديناك بأرواحنا وسقنا تحت
لوائك الولايات الإيطالية، وبيننا لاخواننا ومواطنينا من أيا الوحدة
وسعينا في فتح اكتتاب عام، وعلت في كل ناد تلك الصيحة التي
تملأ الجيوش .

ضم شتاتنا ، يامولاي ، وابن وحدتنا فاننا لا شك غالبون .»
 ذلك هو النداء الذي صم الملك أذنيه عن سماعه ، ولكن الشعب
 أصاخ له وجرى الناس للاندماج في جمعية "إيطاليا الفتاة" التي كان
 هذا النداء بياناً عاماً لخطتها .

أما البرنامج المرسوم فيتأخص في النقاط الآتية :
 الغاية — تحرير إيطاليا من الاستبداد الخارجي والداخلي
 وتكوين وحدتها في ظل حكومة جمهورية .
 الوسائل — نشر التعليم والثورة في وقت واحد بواسطة حرب
 العصابات المسلحة (Guerilla) اذا اقتضت الضرورة .
 الشعار — الله والشعب .

الرؤية — في جهة منها : الوحدة والاستقلال ، وفي الجهة
 الأخرى : حرية ، إخاء ، مساواة .

هذا برنامج الجمعية ، أما الصلة الحقيقية التي كانت تربط
 أعضاءها بعضهم ببعض فهي صلة العقيدة الوطنية ، تلك العقيدة
 الإيجابية التي كانت تدفعهم إلى تحقيق مطمح سام هو وحدة إيطاليا
 واستقلالها ، فلم تكن سلبية كعقيدة الكريوناري التي تعمل على
 تقويض دعائم الظلم القائم ولا تفكر فيما يجب عمله بعد ذلك .

وكان مازيني يعتقد في فائدة الحركات الثورية — وإن كانت في الظاهر غير منتجة — ويقول : « إننى صوت يصيح العمل » ولكنه أمام قوى النمسا المنظمة لم يستطع القيام إلا بمؤامرات وحركات عديدة الحدودى في مجموعها .

على أننا لا يجوز أن ننسى أنه نجح في نشر المبادئ الوطنية وتعميمها بين طبقات الشعب بقوة الشجاعة والعقيدة والاخلاص التى كان يحبها الشعب ويخضع لسلطانها .

وقد أنشأ حوالى سنة ١٨٣٢ جريدة لنشر الدعوة لمبادئه وجمعياته كانت تهرب وتوزع سرا في إيطاليا فلم يمض زمن طويل حتى تكونت فروع كثيرة للجمعية في جنوى ولغورن وسواهما من مدن إيطاليا الكبرى ، وكان ذلك كما يقول مازيني « انتصار المبادئ فان هذه الحقيقة المجردة — وهى أنه فى مدة ما كان أقلها قامت جماعة صغيرة من الفتيان لا تملك شيئا فوجدت نفسها على رأس جمعية قوية تطاردها سبع حكومات — دليل على أن اللواء الذى تحمله هو لواء الحق » .

وفى أغسطس سنة ١٨٣٢ طلبت حكومة بيمون نفى مازيني من فرنسا فاختفى عاما فى مرسيليا وغادرها سنة ١٨٣٣ الى سويسرا وفى سنة ١٨٣٦ نفى من سويسرا فقصد إنجلترا التى كان يعدها وطنًا

ثانياً وذاق فيها صنوف الآلام ، وكان وهو في فقره المدقع يرسل الكتب والرسائل الى خالائه واتباعه في إيطاليا ويدير الحركة من بعيد .

ولكنه والحق يقال لم يبلغ النجاح الذي كان عمله خليقاً به لأسباب عديدة أهمها :

(١) بعد مازيني عن مركز الحركة .

(٢) عدم حسابه حساباً كافياً للحقائق فكان يخيّل اليه أحياناً في سورة غضبه انه في إمكانه أن يسير شعب إيطاليا تحت لواء الثورة ما بين غمضة عين وانتباهتها .

(٣) التجاؤده الى المؤامرات التي كان يبغضها الكثيرون والتي اضطر اليها اضطراراً .

(٤) صعوبة إيجاد حركة عامة في وقت واحد بسبب تيقظ النمسا وتفترق الولايات وعدم وجود «مركز قيادة عام» .

كل هذه العوامل جعلت الجمعية بصفتها قوة عاملة منظمة ضعيفة النفوذ ولكنها كانت كبيرة بصفتها مبدأ سامياً اعتنقته النفوس ، بل لقد كان ضعف هذه الجمعية في معظم الأحيان سبباً في تعزيز المبدأ الذي تمثله وتقويته قال مازيني : « إن الطريق الوحيد الى الانتصار هو طريق التضحية والثبات في التضحية » .

وقد حدث أنه في عام ١٨٤٣ وجد شابان ضابطان في البحرية النمساوية من أعيان فينيسيا كانا متشبعين بتعاليم مازيني وجمعيته وكانا يعتقدان أن إيطاليا بحاجة كبرى الى مثل عال من الشجاعة والتضحية فأليا على نفسيهما أن يعطيا ذلك المثل وأن يذهبا الى جبال الأبينين الجنوبية لتنظيم حرب عصابات ضد القوة الغاشمة .

وعبثا حاول مازيني أن يقنعهما بالعدول عن رأيهما ، وما عتا أن انجها نحو الجنوب بعد أن أرسلا اليه خطتهما التفصيلية فأمكن الحكومة الانجليزية الوقوف عليها وابلاغها سرا الى حكومة نابولي التي أخذت أهميتها .

وما كاد الضابطان يضعان قدمهما على اليابسة حتى قبض عليهما وأعدما رميا بالرصاص وهما يهتفان « فلتجيا إيطاليا ! » .

وكان لهذا الهتاف صدى رددته إيطاليا فأصابها منه هزة كهزة الكهرباء لأنه مثل عال للتضحية والموت فداء للوطن ، على أن إخفاقهما وموتهما تلك الميتة العاجلة الشنيعة أحدثا رد فعل في النفوس أضرب سمعة مازيني وجمعيته التي أخذت تضمحل خصوصا في ذلك الوقت الذي بدأ الطليان يشعرون فيه بضرورة الالتجاء الى وسائل أخرى غير وسائل التآمر أو الحركات الثورية الانفرادية التي كانت تكلف كثيرا وتنتج قليلا .

ويمكننا أن نقول إنه منذ سنة ١٨٤٣ بدأ نجم مازيني في الأفول وأخذ المعتدلون من مفكرين وساسة أمثال جيوبرتى وبالبو وكافور يمسكون بزمام الحركة الوطنية فدخلت بفضلهم في طور تحقيق واصلاحات سادت فيه السياسة العملية الحكيمة الى الغاية .

على أننا اذا ذكرنا المعتدلين وفضلهم على الحركة فان ذلك لا ينسينا فضل مازيني ، وكما أنهم مدينون له فانه مدين للكربوناري فالكربوناري أول من حارب الظلم باسم العدل السماوى ومازيني أول زعيم كبير قام في وجه الغاصب النمساوى ، الذى يشخص الظلم ، باسم الوطنية الصحيحة ، باسم المبدأ الذى غرسه في نفوس الطليان وحوله الى عقيدة ثابتة عند شبانهم وشيوخهم متطرفيهم ومعتدليهم على السواء ، فلا عجب اذا لقبوه « بنى الوطنية » .

وقد أعطى مازيني لأمتيه المثل الأعلى للاخلاص والتضحية . فانه رغم من كونه جمهوريا صميا كان متسامحا مع خصومه وقد أبت نفسه أن ترغم الناس على اتباع مذهبه تاركا اختيار شكل الحكومة النهائى الى ما بعد الوحدة التى هى الغاية الكبرى ، يقول مازيني : « أننا سنطأطئ الرؤوس ونقبل أى شكل للحكومة يختاره الشعب بتصويت عام لأنه من واجب الرأى الفردى أن يخلى السبيل أمام رأى الأمة » .

بهذه الحكمة الوطنية العالية صان ما زيني الوحدة التي كان يسعى في تحقيقها والتي كانت لا تقوم إلا على أساس من وحدة القلوب ومنع الانقسام أن يمتد إليها .

وهو أول من سعى لجعل فكرة الوحدة والاعتماد على النفس جزءاً جوهرياً أساسياً من الحركة الاستقلالية ، ومن كلامه :
« إن طرد النمساويين المكروهين أول غرض لنا فلا مناص اذن في القريب العاجل من حرب دموية لا رحمة فيها .

« ولا يجوز لنا أن نعتمد على الحكومات الأجنبية أو على مجهودات السياسة ، ويجب أن نطرح جانباً جميع الآراء المتعلقة باتحاد الولايات (Fédéralisme) أو بالاستقلال بدون الوحدة فان غاية " ايطاليا الفتاة " تحقيق الوحدة ، ولا يصح أن يلتفت الطليان إلا حول راية واحدة ، راية ايطاليا جميعها » .

وكل ما يعاب عليه ما زيني هو أنه كان خيالياً أكثر منه عملياً وكانت تعاليمه الوطنية في معظم الأحيان تلبس الألفاظ الدينية والأخلاقية المتداولة ، مثل ذلك تعريفه لجمعية ايطاليا الفتاة : « أنها رابطة اخاء بين الطليان الذين يعتقدون في نظام من الواجب والتقدم ، والذين يعتقدون كل الاعتقاد أن ايطاليا ستصبح أمة ،

والذين سيعملون جهدهم لبناء إيطاليا من جديد أمة مستقلة ذات سيادة يتمتع بنوها بالحرية والمساواة» ولعل هذه الألوان الدينية التي طليت بها مبادئ مازيني هي أثر من آثار تعاليم الكربوناري والآداب الوجدانية الخيالية التي ولع بها صغيرا .

ومهما كان من الأمر فقد صرح مازيني بأن المسألة مسألة دينية وكان لا بد أن تكون كذلك في ذلك العصر الذي كانت فيه الروح المادية «المكافيلية» متسلطة على النفوس قاتلة لكل عاطفة شريفة وكل تعلق بالمبادئ العالية التي هي منبع الحياة والتجدد عند الأمم اذ كانت إيطاليا مجموعة أفراد وولايات يسعى كل منها في سبيل مصالحته الخاصة الضئيلة .

ولا شك في أن مازيني أدى الى أمته أصدق الخدمات بالصبغة الدينية التي ظهرت فيها معظم مبادئه فقد أكسبها ذلك قوة وساعد على تعميقها وغرسها في نفس الشعب لاسيما في وقت كانت فيه الحركة في طور الشباب ، طور الحماسة والحمية ، طور الهتاف باسم الوطن ، ولكن الذي يمكن أن ينتقد عليه هو أنه لم يتطور مع الحركة التي تطورت ونضجت ، ولم يغير أساليب العمل فظل الى آخر حياته يعمل على خلق الحركات الثورية والمؤامرات ، وأصبح نائرا بل متأمرا بعد ان كان في البداية زعيما وطنيا .

فطن كافور للأمر من زمن فكان يعتقد سنة ١٨٣٠ أن
إيطاليا لم تتضج بعد للثورة فقام للعمل حوالى سنة ١٨٤٣ هو
وجماعة من المعتدلين متفقين مع مازيني فى المبدأ الذى ساعد على
تأصيله فى النفوس مختلفين معه فى الوسائل .

وكان جل غرضهم وهم مفكرون معتدلون وساسة عمليون
بعيدو النظر أن يدخلوا الثورة فى طريق اعتدال واصلاحات علمية
بأن هذا الطريق وحده هو الذى يوصل الى الثورة الصحيحة
المنظمة التى لا تقهر .

الفصل الرابع

المعتدلون (١٨٤٣ - ١٨٤٨)

هيمنت جمعية الكربوناري على الحركة الاستقلالية بين سنة ١٨١٥ و ١٨٣٢ وجمعية إيطاليا الفتاة بين سنة ١٨٣٢ و ١٨٤٣ ، ثم اضمحلت هذه الجمعية الأخيرة وحل مكانها بين سنة ١٨٤٣ و ١٨٤٨ جماعة المعتدلين أو المصلحين وعلى رأسهم زعماء ثلاثة : جيورتي ، دازجليو ، بالبو ، وجميعهم من رجال الفكر والعمل فأصبح بفضلهم للمعتدلين الذين كانوا منتشرين في إيطاليا من زمن شخصية محترمة ورأى يعتد به وصاروا أشبه بحزب يسير الناس تحت لوائه .

كانت الحركة في هذا العهد تتنازعها قوى ثلاث : الاصلاحيون ، والرجعيون ، والمزينيون .

كان الحزب الرجعي مكونا من الأشراف واليسوعيين في الولايات المختلفة ، وكانوا هم الأيدي التي تستعملها النمسا في الخفاء لمحاربة الحركة وقتلها ولذلك أطلق عليهم اسم "الحزب النمساوي" .

أما المزيّنون فقد كانت الحركات الثورية الفردية التي بدأ الناس يميلون عنها سببا في إضعاف شأنهم وتقوية حزب المعتدلين ، ذلك لأن العدو كان يستفيد منها فيحتل البلاد بحجة النظام ويسفك الدماء ويشدد الرقابة ، وكانت هذه الحركات في جماتها مظهرا من مظاهر الشجاعة التي لا يصحبها الرأي الحازم .

أما المعتدلون أو المصالحون فكانوا متفقين مع المتطرفين في مبدأ الاستقلال ، لا الوحدة ، لأنهم ما كانوا يعتقدون في امكانها وجل مطمحهم تكوين « ولايات متحدة مستقلة » ، وكانوا متفقين مع المزيّنين في مبدأ الاعتماد على النفس لا المحالفات الأجنبية (Italia fara dâse)

ولكن الوسائل تختلف اختلافا بينا فالمعتدلون يعملون في دائرة القانون على التوفيق بين الأمراء والشعب باللين والرفق وحضهما على السير معا في طريق الإصلاحات فباتحادهما في العمل تقوى الحركة ، ويهيأ الشعب أحسن تهيئة للقيام في وجه العدو ، وتحمل الثورة الشعبية الموحدة الغاية محل الثورات المحلية العديدة الحدود التي تنسى الغاية القومية الكبرى .

وكان المعتدلون متشبعين بمبادئ مازيني الوطنية التي تركت أثرا واضحا في كتاباتهم ، وهم قوم عمليون يستغلون كل نتيجة يصلون اليها بالحيلة والطرق السلمية المشروعة .

واليهم يرجع الفضل في التجاء الأمة الى الوسائل السلمية العالمية كالصحافة والمظاهرات والمؤتمرات العلمية التي انتشرت في هذه الآونة وكانت من أكبر العوامل التي عممت الحركة بعد أن كادت تختفي في كهوف المؤامرات السرية ومغاراتها ونشرتها بعد أن كانت مطوية طريفة الأسماء الوطنيين والتمسويين على السواء فجعلتها تتطور تطورا لم يسبق له مثيل في مدة لا تتجاوز الأربعة أعوام بين سنة ١٨٤٣ و ١٨٤٨ سنة الحرب الثورية القومية .

وكانت معظم المؤتمرات العلمية تحت رعاية الأسماء يؤمها الطليان من كل جانب للبحث في أحسن الطرق لترقية الشؤون الزراعية والعلمية والاجتماعية ، ولكن البحث كثيرا ما تطرق الى الأمور السياسية العامة فانقلابت المؤتمرات الى برلمانات قومية بالمعنى الصحيح ^(١) .

ومن بين الاصلاحات التي كانت الشغل الشاغل في ذلك العصر مد السكك الحديدية لربط الولايات بعضها ببعض نظرا لأهميتها المادية والسياسية من حيث انماء الرفاهية وتكوين الوحدة .

(١) عقد مؤتمرات في فيز سنة ١٨٣٩ ؛ وتورينو سنة ١٨٤٠ ؛ وفلورانس سنة ١٨٤١ ؛ وبادو سنة ١٨٤٢ ؛ وليك سنة ١٨٤٣ ؛ وميلانو سنة ١٨٤٤ ؛ ونابولي سنة ١٨٤٥ ؛ وجنوى سنة ١٨٤٦ ؛ وفينيسيا سنة ١٨٤٨

وكان حزب المعتدلين الاصلاحيين حوالى سنة ١٨٤٣ ينقسم الى شعبتين : الشعبة الأولى وعلى رأسها الفيلسوف جيوبرتى كانت تولى وجهها شطر روما والبابا ، والشعبة الثانية وعلى رأسها بالبو وأزجليو كانت تولى وجهها شطر ملك بيمون شارل ألبيز . وكانت الشعبتان تعملان معاً لاكتساب عطف البابا والأمراء وأشراكهم فى الحركة الاصلاحية .

جيو-وبرتى (١٨٠١ - ١٨٥٢) - كان جيوبرتى رئيس القساوسة الأحرار فى صغره من أتباع مازينى وكان يكتب فى مجلة "إيطاليا الفتاة" . نفى من تورينو سنة ١٨٣٣ فقصد بروكسل وألف فيها كتابا قيمة كان لها أثر عظيم فى تطور الحركة ، ففى سنة ١٨٤٣ ظهر له كتاب انتشر بين جميع الطبقات عنوانه "أولية الطليان الخلقية والمدنية" ، فكرته الأساسية التوفيق بين الدين والمدنية الحديثة ، وقد امتدح المؤلف فيه البابا ورجاه أن يكون زعيم الحركة الاصلاحية ، ومن أقواله : «بالارادة وصادق العزيمة يمكننا أن نصبح من غير هزات وثورات فى طليعة شعوب العالم» وكان يقول كمازينى : «انه لمن العار أن يئأس المرء من عشرين مليون رجل» وبالجملة أراد جيوبرتى أن يؤلف بين النظريات الثورية والحقائق الكائنة .

سيزار بالبو — أحد أتباع جيورتي ألف في السنة
عينا (١٨٤٣) كتابا اسمه : "آمال إيطاليا" ولكنه لم يضع آماله
في روما بل في تورينو، ومن أقواله : « لا حياة بغير الاستقلال
القومي وأن بقاء الغاصب الأجنبي في ولاية واحدة كاف للقضاء
على كرامة الولايات الأخرى وإفساد أخلاق الأمة جميعها » وكان
بالبو لا يأس ويقول كما زيني وجيورتي : « انت أمة مكونة من
عشرين مليون نفس أمة لا تقهر اذا اتحدت وكان لها أخلاق » .

أزجليو — روائي شهير من يمين ومن أكبر أنصار
ملكها شارل ألبرت ذهب الى الرومانية في سنة ١٨٤٥ ودعا الناس
الى الالتفاف حوله وترك الحركات الثورية السرية والمطالبة الجهرية
بالاصلاحات ، وقد وضع رسالة شهيرة عن "حوادث الرومانية
الأخيرة" ذكر فيها الحوادث الثورية العنيفة التي حدثت بعد مغادرته
تلك الولاية والقمع الاستبدادي الذي صحبها .

وفي هذه الرسالة ندد أزجليو بحكومة البابا وحكومة النمسا
ونصح الشعب أن ياجأ في كل فرصة الى الاحتجاجات العلنية
السلمية فان التأمر في وضع النهار أنفع وأفضل لكسب الرأي العام
الذي ما اتحد في المطالبة بشيء إلا وناله ، وعلى هذا الرأي العام
وحده يجب على حكومة البابا أن تركز اذا أرادت البقاء . وكان

لكتابات أوجليو أثركير في تكوين « الرأي العام » وفي صقله وتهذيبه .

ولما مات البابا جريجوار السادس عشر انتخب فيراتي أوبيوس التاسع بدلا من لامبريشيني الذي كان يرشحه الحزب النمساوي فعم السمرور في كل مكان وظن الناس أن البابا المصالح الذي كان يحلم به جيوريتي مبط إيطاليا خصوصا وأنه بدأ حكمه بالعفو العام فرجع إلى وطنهم ٧٠٠ من الأحرار المنفيين والمسيجونين تلهج له ألسنتهم بالدعاء ، ومهما كان من الأمر فن الثابت أن البابا الجديد لعب في الحركة الاستقلالية بين يونيه سنة ١٨٤٦ وديسمبر سنة ١٨٤٧ دورا كبيرا فكان لا يكاد يمر يوم بدون مظاهرات وحتاف للبابا ، وأنتعشت النهضة الإصلاحية في الولايات المختلفة فأعلنت مشاريع إصلاحات كبيرة في بيمون واكتتب أهل الرومانية من ولايات الكنيسة بمبالغ عظيمة لفتح المدارس وتشجيع التعليم فانزعجت النمسا وهددت بالاحتلال ، وكان اشتراك البابا في الحركة ، نظرا لمركزه الديني في العالم وفي إيطاليا ، أكبر مشجع للملك شارل ألبر على الدخول في زمرة المجاهدين وأتباع سياسة قومية إصلاحية أتت بالخير العميم في بيمون ، وقد سار ليوبلد الثاني أمير توسكانة

على نفس النهج وحقق مطالب شعبه وأهمها حرية الصحافة وإصلاح الإدارة .

في أثناء ذلك كان مترنخ يرسل المذكرات التهديدية وما عثم أن احتل فيراري بجنوده فاحتج الطليان في جميع الولايات على هذا العمل الذي كان لطمعة لكرامتهم القومية ، ولما عقد المؤتمر الزراعي في سنة ١٨٤١ تلا الكونت كاستاجنيتو في الجلسة الأخيرة كتابا جاءه من الملك شارل البير يقول فيه : « إذا من الله علينا بحرب استقلالية كنت وحدى على رأس جيشها ، وما أجهل ذلك اليوم الذى ترن فيه صبيحة الحرب في سبيل استقلال البلاد » فردّ عليه المؤتمر وطالب اليه أن يضع نفسه على رأس الحركة وأن يستل في الحال سيف الاستقلال من غمده .

وفي ذلك الوقت — أى في سنة ١٨٤٧ — تطوّرت الحركة وانقلبت من حركة إصلاحية إلى حركة دستورية ، ولذلك أسباب ثلاثة :

(١) ان المعتدلين كانوا في مبدأ الأمر مستسلمين طوعا أو كرها أُملا في كسب الأمراء ، ثم حلت الجراءة محل الاستسلام وهى نتيجة التطور الطبيعى .

(٢) ان حزب الرجعيين وخصوصا الموظفين منهم في روما

والولايات الأخرى كانوا يعرفون تنفيذ القوانين الإصلاحية فكانت تظل معظمها في الدائرة النظرية بدون تطبيق ، ومن ثمة كانت الحاجة الى برلمان يراقب السلطة التنفيذية .

(٣) ان الإصلاحات التي عملت لم تكن كافية فكان لا بد من وجود برلمان للقيام بجميع أنواع الإصلاحات الضرورية .

وقد أسس كافور في سنة ١٨٤٧ ، وكان عمره وقتئذ ٣٧ عاما ، بالاشتراك مع بالبو وسانتاروزا وكاستيلي وغيرهم في تورينو جريدة البعث (Risorgimento) وكانت لسان حال النهضة الحديثة التي تنحصر أغراضها في إظهار مزايا النظم الدستورية والمطالبة بها لتهيئة البلاد للانقلاب المنتظر ، في استقلال إيطاليا ، والتوفيق بين الأمراء والشعوب ، والتحالف بين الولايات الإيطالية .

في سبتمبر سنة ١٨٤٧ ثار الأحرار في ريجيو ومسيني بجزيرة صقلية التابعة لولاية نابولي صائحين : « ليحيي بيوس التاسع ليحيي الدستور » وسرعان ما امتدت الثورة واضطر فرديناند إلى منح الدستور .

ولما عقد الصحفيون في جنوى في أوائل سنة ١٨٤٨ اجتماعا حضره عدد كبير من رجال السياسة لتعريض مطالب أهل جنوى المتعلقة بالحرس الوطني وطرد اليسوعيين قام كافور بكل

بحراً وقال : ان «الذى يجب عليكم أن تطلبوه قبل كل شيء هو الدستور فالدستور وحده هو الذى يوطد دعائم السلطة باعطائه إياها قاعدة جديدة تتفق مع روح العصر» وايد جميع الاصلاحيين كافور ولكن شارل البير تردد زمنا ثم منح الدستور فى ٤ مارس وعين بالبو زعيم المعتدلين وصديق كافور رئيسا لأول وزارة دستورية .

وفى توسكانة قام الشعب بمظاهرات كبيرة للطالبة بالدستور ففتح ليوبولد الثانى فى ١١ فبراير سنة ١٨٤٨ ، وقامت المظاهرات فى روما أيضا وأرسل سكان ولايات الكنيسة من متطرفين ومعتدلين آلاف الامضاءات للطالبة بالدستور متبعين فى ذلك خطة الزعيم الارلندى أوكونل الذى كان يستند الى العرائض والمظاهرات السلمية والرأى العام ، وأخيرا منح البابا الدستور فى ١٥ مارس .

والخلاصة أن الحزب الاصلاحى نجحت سياسته فى يمين وتوسكانه وروما حيث قامت حكوماتها على قواعد دستورية وبدأت السلطة المدنية تحل محل السلطة الدينية التى كانت تعرقل الاصلاحات .

وكان لهذه الحركة الاصلاحية صدى كبير فى الولايات الخاضعة للنمسا لاسميا لومبارديا حيث كان زعيم المعارضة فى ميلانو الجمهورى الكبير مانان رجلا عمليا يحب النظام ويعتقد أنه لا يمكن

القيام في وجه النمسا إلا في حالة شوب حرب أوربية وأن المعارضة السلمية المنظمة تربي الشعب وتضمن احترام أوروبا لاطاليا وكان «وهو قاتوني واقف على أسرار القانون ودقائقه يريد أن يثير النفوس بالطرق القانونية وأن يسوقها بحركة نظامية مستمرة الى نقطة يتمكن فيها الحماسة المتولدة من الظروف من خلق الثورة» .

وكان رادتسكى قائد جيوش الاحتلال في ايطاليا وقتئذ يتنى أن ياجأ الطاليان الى وسائل العنف ليتخذ منها ذريعة لسيحتقهم وهو القائل : « أن ثلاثة أيام دموية تريحننا ثلاثين عاما » .

وقد اجتهد أهل ميلانو انتقاما لأنفسهم من الظلم النمساوى في تقليد أهل بوسستون وطريقة مقاطعتهم للبضائع الانجليزية ، فصمموا على مقاطعة الدخان في رأس السنة الجديدة لضرب المالية النمساوية ضربة جديدة وإعطاء مثل عال من التضحية لأن الطليان كانوا جميعا مولعين بتدخين السيجار .

ولما جاء اليوم المضروب خلت الشوارع من المدخنين فوزعت السلطة النمساوية على جنودها كميات وافرة جدا من السيجار وأمرتهم بالسير في الشوارع ونفخ الدخان بكثرة في وجوه المارة ، فلما أعييتهم هذه الحيلة أعملوا الحراب في العمال وهم عائدون الى منازلهم وأطلقوا الرصاص على عزل من السلاح ، وتكررت هذه

المناظر الوحشية في مدن أخرى بكافى وبادو وسجن الزعيم مانان وكثيرون من الأحرار فاستمرت مظاهرات الاحتجاج ليل نهار ضد الحكومة واستقال عدد كبير من الموظفين وعبثا حاولت الحكومة أن تجد آثار مؤامرة «انها كانت» كما يقول أزجليو، مؤامرة شعب بأسره .

وبالجملة كانت الولايات الايطالية على العموم قبل حرب سنة ١٨٤٨ الاستقلالية في حالة ثورة، وكان الرأي العام قد اشتد ساعده للطالبة بالدستور والحرية والاستقلال .

في فبراير سنة ١٨٤٨ حصلت الثورة الباريسية وخلع لويس فيليب الذى اشتهر هو ووزيره جيزو باتباع سياسة الجمود، سياسة عدو العصر مترنخ، فكان لاعلان الجمهورية الثانية ونجاح الثورة أثر كبير في تحريك الثورات الكامنة في نواحي أوروبا .

وفي ١٧ مارس ثار الشعب في فينا "حصن الاستبداد" ووصلت الأنباء مساء الى فينسيا فهاج الشعب وأخرج مانان من السجن وكوّن حرسا وطنيا ليحافظ على النظام، وثارت في اليوم نفسه ميلانو وأقيمت المتاريس في كل مكان، ونشبت بين لومبارديا جميعها وبين النمساويين حرب عنيفة اضطرتهم الى التقهقر الى خط المنسيو .

وفي ٢٢ مارس نادى مانان زعيم الثوار في فينيسيا بانتهاء الاحتلال الأجنبي وإعلان الجمهورية .

وقد تحمس أهالي بيون من أول ساعة لنصرة اخوانهم في لومبارديا وفينيسيا فكتب كافور في جريدة البعث يقول : « أمام حوادث لومبارديا وفينيسيا لا يجوز أن نتردد لحظة واحدة ، واننا نحن أصحاب الذكاء الهادئ الذين تعودنا العمل بمشورة العقل لا بدافع الأهواء والعواطف نرى من واجبنا أن نصرح مطمئنين أنه لم تبق إلا سبيل واحدة للأمة ، لذلك : تلك سبيل الحرب العاجلة » .

وفي يوم ٢٩ مارس وضع شارل البير نفسه على رأس الحرب الثورية وأصدر بيانا الى شعوب لومبارديا وفينيسيا يقول فيه : « اننا الثقة بالله الذي وهب لاطاليا بيوس التاسع والذي أيقظها وجعلها تعتمد على نفسها » .

وسرعان ما سالت سهول لومبارديا الشمالية بألاف المتطوعين يأتون أفواجا من الولايات المختلفة ، وقد أرسل أمير توسكانه بلاغا الى جنوده يقول فيه : « أيها الجنود : إن قضية استقلال ايطاليا المقدسة سيفصل فيها في سهول لومبارديا ، وقد اشترى أهل ميلانو حريتهم بدمائهم ، وهاهي جنود بيون تسير تحت لواء مليكها ، وان أبناء ايطاليا وورثة عظمة السلف من العار عليهم أن يظلموا

في منازلهم في هذه الساعة العصيبة ، فامضوا سراعا وضموا صفوفكم الى صفوف المتطوعين تحت راية واحدة » .

وقد بادرت ولايات لومبارديا وفيينيسيا وپارم ومودين وأعلنت بتصويت عام انضمامها الى ولاية يميون .

ولكن مما يؤسف له أن الشقاق دب في صفوف الأمة وتسربت روحه الى الجيش لأن أنصار مازيني من جمهوريين وديموقراطيين كانوا في ميلانو مثلاً يحرّضون السكان على التصويت ضد الانضمام الى يميون ومليكنها وجرّوا على سياستهم تلك حتى بعد التصويت والعدوّ واقف على الأبواب ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فان البابا ظل على الحياد ، وأنحر أمير نابولي إرسال الجيش الذي وعد به ، وحل البرلمان في ١٥ مايو سنة ١٨٤٨ وكان أول من خان الثورة .

وفي ٥ أغسطس سنة ١٨٤٨ هزم شارل البير تحت أسوار ميلانو فأرادت المدينة تجديد ثورة مارس ولكن القوّاد أجمعوا رأيهم ضد الحرب فعقد ملك يميون الهدنة وأخذت صحف الديموقراطيين والمتطرفين ترميه بالخيانة وتطعن عليه فأصدر الملك بياناً جاء فيه : « اننى لا أجهل التهم التى يريد البعض أن يدنس اسمى بها ولكننى أترك الحكم للتاريخ العادل ، ولطالما خفق قلبي

لاستقلال إيطاليا ولكن إيطاليا لم تثبت للآن أن في مقدورها أن تعتمد على نفسها. أى شعوب إيطاليا! كونوا أقوياء في هذه النكبة الأولى واستغلوا النظم النيابية الحديثة العهد ، وثقوا بملككم فإن قضية الاستقلال لا تزال قائمة» .

حدثت بعد ذلك حركات ثورية في روما حيث فز البابا هاربا الى مدينة جيت بولاية نابولي في ١٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ فأجريت في غيابه انتخابات لاختيار شكل الحكومة الجديد بواسطة جمعية وطنية ، وفي ٥ فبراير سنة ١٨٤٩ انعقدت الجمعية وكانت الغلبة فيها للمتطرفين الذين قرروا إعلان الجمهورية .

وكان الطليان عموما وخصوصا الجمهوريون في الولايات وفي يمين ياحون صباح مساء في استئناف الحرب فأعلنت في ٢٠ مارس سنة ١٨٤٩ وهزم القائد النمساوى رادتسكى الملك شارل البيرشرهزيمة في نوفار فما كان من الملك إلا أن ترك صوبلحانه لفكتور عما نويل الثانى الذى ستحقق إيطاليا على يديه وحدتها واستقلالها .

وبعد نكبة نوفار أراد البرلمان الرومانى تقوية الحكومة فسلم مقاليد السلطة التنفيذية الى مازينى ، وسافى ، وأرميلينى ، ولكن البابا استنجد بنابليون الثالث رئيس الجمهورية الفرنسية الذى كان

في هذا الوقت يعمل على كسب ثقة الجيش والقساوسة ليعاونوه على هدم الجمهورية بخفاء أودينو على رأس جيش فرنسي واحتل روما بعد أن دافع جارييلدي عنها دفاعا مجيدا (٣ يولييه سنة ٤٩). وظلت فينيسيا وحدها تقاوم النمسا حتى النهاية مقاومة خلده التاريخ لها ولزعيمها الأكبر مانان أجمل الذكر .

ونتخلص أسباب فشل ثورة ١٨٤٨ — ١٨٤٩ فيما يأتي :

(١) ان إيطاليا دخلت الحرب القومية قبل أن تتم الإصلاحات وقبل أن يتيسر للبرلمانات الجديدة أن تصلح الحكومة وتخرج منها جميع الموظفين الرجعيين الذين كانوا أعداء الثورة والإصلاح .

(٢) ان بقاء البابا على الحياد بعد أن كان معقد آمال الجميع وبعد أن هتف باسمه الأمراء والشعب قبل الحرب وفي أولها كان ضربة قاسية لها .

(٣) ان إيطاليا التي دخلت الحرب لم تكن إيطاليا الكهلة الناضجة بنت التجارب والسياسة ، بل كانت إيطاليا الفتاة التي تمكن خيالها السامي من فؤادها فغلبها على أمرها .

وسرعان ما عجلت النمسا بعد انتصارها ببسط نفوذها على البلاد حتى خيل للبعض أن إيطاليا في سنة ١٨٤٨ ما زالت في موقف

سنة ١٨١٥ ، والحقيقة أن إيطاليا في أواخر القرن الثامن عشر كانت بفضل شعرائها وأدبائها الوطنيين وبفضل المبادئ التي أعلنتها الثورة الفرنسية على ملأ العالم كالجنيين وسط الظلام ، ولكنها في نهاية الاحتلال الفرنسي سنة ١٨١٤ وجدت حياة قومية جديدة فنزلت هذه الطفلة الى الوجود فتجاهل مترنخ في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ وجودها ، ثم ثارت في سنة ١٨٢٠ وفي سنة ١٨٢١ وفي سنة ١٨٣١ تحت لواء الكاربوناري فأثبتت أنها تريد أن يعترف بوجودها ، ثم جاء مازيني وغرس في فؤادها المبدأ وحوله الى عقيدة ثابتة فعملت "إيطاليا الفتاة" على تحقيق خيالها السامى وتقلدت سيفها في أنحريات شبابه سنة ١٨٤٨ فهزمها النمساوى ولكن هذه الهزيمة كانت تجربة كبرى وكانت نتائج هذه التجربة ثلاث :

(١) ان مبدأ الاعتماد على النفس الذى أعلنه مازيني واعتنقه شارل البيركان لا بد وأن يسير جنباً لجنب مع مبدأ الاعتماد على محالفة أجنبية — وهو ماسيسعى في تحقيقه كافور بين ١٨٤٩ و ١٨٥٩ (٢) ان مبدأ الاستقلال قبل الوحدة ، الروحية على الأقل ، لا يصاح ، ولا بد من ترك فكرة النظام الاتحادى .

(٣) أصبحت ييمون بحكم الفعل بين ١٨٤٩ و ١٨٥٩ الولاية الوحيدة المستقلة الدستورية فبينما كانت الحركة الرجعية تطارد

الأحرار والحرية في كل ولاية كانت يميون ملجأ لعشرات الآلاف من أبطال الثورة المنفيين (يقال إنهم كانوا خمس سكان مدن يميون) وكان برلمان يميون خير ضمان للتقدم والرقى : كل ذلك جعل الأسس التي ستقوم عليها إيطاليا الحرة متينة في يميون .

(٤) ظهر عدم صلاحية فكرة مازيني الأصلية القائلة بشورة ٢٠ مليون إيطالي بواسطة حرب العصابات ، لأن ثورة سنة ٤٨ التي قام بها الشعب بأمره وبلغ عدد الجيش فيها من نظاميين ومتطوعين ٨٠٠٠٠ لم تنجح ، وكان عدم وجود نظام متين يحل محل النظام الذي ترتجله الوطنية من أكبر عوامل الهزيمة ، فوجب من ذلك الوقت العمل على تنظيم الجيش بعدد وعيد وإدخال الثورة في طريق الوحدة المتأسكة ، في طريق العمل الصامت الذي لا يعلن عن نفسه ، في طريق السياسة التي تحتال ، في طريق الإصلاحات الاقتصادية التي هي دعائم الاستقلال السياسي ، حتى تخرج منه الثورة في صورة حرب منظمة أدواتها جيش منظم .

الباب الثاني

عصر الحروب والاصلاحات

قطعت الحركة الاستقلالية مرحلتها الثانية بين سنة ١٨٤٨ و ١٨٧٠ : في العشر سنوات الأولى بين ١٨٤٨ و ١٨٥٩ نضجت الحركة ودخات بفضل مساعدة نابليون الثالث في طور تحقيق .

الفصل الأول

القوى الرئيسية في الحركة

لأجل تفهم المرحلة الثانية نبتدى بكلمة اجمالية عن القوى الفكرية الرئيسية في الحركة : هذه القوى يمثلها مازيني وجيو برتى ، وفكتور عمانويل ، وكافور ، ومايان ، ولافارينا ، وجاريلدى ونابليون .

مازيني — أصبح مازيني بعد سنة ١٨٤٨ صعب الاحتمال صعب القياد لأنه لا يتطور فيينا كان الطليان يعتقدون آمالهم على

يمون وجيشها ظل مازيني متعنتا في التمسك بوسائله الثورية وعدم الانتظار هو وأنصاره الذين ما فتئوا يرمون ملوك يمون بالخيانة والتهاون في حقوق البلاد ، والواقع القول أن نفوذ مازيني قضى عليه بعد ثورة ٤٨

جيوريتي — تطوّر جيوريتي بعد ثورة ٤٨ ووضع في سنة ١٨٥١ كتابا جديدا في "النهضة" (Riuomovamento) فيه تركه لسياسته السابقة التي كانت ترمي الى جعل البابا زعيم الحركة واعتنق مبدأ سيادة مملكة سرديانية بصفتها الأساس الذي لا بد منه للاستقلال الايطالى ، وكان لهذا الكتاب أثر كبير في السياسة العامة .

فكتور عمانويل — هو الذى أمضى صلح سنة ١٨٤٩ ؛ وقال فى أثناء مفاوضاته مع رادتسكى : «إننى بدلا من قبول هذه الشروط أفضل ضياع ألف تاج ، إن اليمين التى حلفها أبى لا بد أن أحافظ عليها ، وإن بيتى ليعرف طريق المنفى لا طريق العار» هذا هو خالق الرجل الذى كان من أكبر بناة الوحدة والاستقلال أما سياسته فقد أعلنها فى أوّل بيان أصدره الى شعبه : « كل مجروداتنا يجب أن توجه الى تضييد الجروح

التي أصابت بلادنا وتقوية دعائم النظم النيابية» ، وقد نجح في توطيد المملكة وانتشال التاج من الوهدة التي كان فيها .

كافور — يكاد يكون كافور أكبر ساسة القرن التاسع عشر، سياسته عملية تفتنم كل فرصة وتتجنب بواسطة الإصلاحات الثورة في الداخل ، وتعمل في الوقت نفسه على تهيئة الثورة الصحيحة ضد الأجنبي المحتل تحت ستار السلم والنظام ، وهو الذي كوّن مملكة إيطاليا الشمالية سنة ١٨٥٩ بمساعدة فرنسا ، وإليه يرجع الفضل الأكبر في بناء وحدة إيطاليا .

مانان — مانان من أكبر رجال ثورة ٤٨ اشتهر فيها بدفاعه الخالد الذكر عن فيننسيا ، وكان جمهوريا صميما من أنصار الثورة في دائرة القانون والحكمة . نفى في باريس بعد سنة ٤٩ فعاش فيها وذاق أنواع الفقر ، وهو أول من وضع برنامجا مرسوما للحركة فصرح للصحافة في ١٩ مارس سنة ١٨٥٤ « بأن استقلال إيطاليا ووحدةها غير منفصل أحدهما عن الآخر يكفلان لها راحتها وطمأنينة أوروبا » .

وكان مانان سنة ٤٩ يريد جمهورية مكوّنة من ولايات متحدة مستقلة ولكنه وهو رجل عملي يضحى بأرائه الشخصية في سبيل

الصالح العام تطوّر ولما بلغه أن نابليون يرغب في تعيين ابنا لميراث ملكا على نابولي كتب الى الصحفي في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٥٥ يقول :
«إذا كانت إيطاليا الحميدة لا بد أن يكون لها ملك فيجب أن يكون ملك يمين» .

فمانان هو رافع لواء الوحدة لتندمج تحته جميع الأحزاب في حزب قومي واحد ، واليه يرجع الفضل في إقناع كافور في سنة ١٨٥٦ بالتباعد برنامجه الوطني المحدود الذي يتأخص في هاتين الكلمتين :
«إيطاليا وفكتور عمانويل» .

وقد أسست تحت رعايته وهو في منفاه في سنة ١٨٥٧
«الجمعية الوطنية» (Société-Nationle) التي لعبت دورا كبيرا في الحركة زمتا طويلا .

لا فارينا — كان لافارينا من رجال ثورة صقلية في سنة ٤٨ وكان رأيه المقاومة الى النهاية فنفي في ٢٣ أبريل سنة ١٨٤٩ ، وألف في سنة ١٨٥٦ — بمناسبة دسائس نابليون في نابولي رسالة عنوانها «ميراث والوحدة الايطالية» أيد فيها — بالرغم من كونه جمهوريا — برنامج مانان ، برنامج الوحدة والاستقلال قبل كل شيء .

ولافارينيا من أكبر الرجال المتحركين العاملين فهو الذي لم تشتت حزب مانان في "الجمعية الوطنية" التي كان هو سكرتيرها، وبفضل نشاطه صار للجمعية لجان فرعية في أنحاء إيطاليا المختلفة وأمكنها أن تمسك بزمام الحركة .

جاريبالمدي — كان وطنيا مخلصا من أنصار حرية الشعوب وهو رجل السيف الذي ضم جنوب إيطاليا الى شمالها .

نابليون — لعب نابليون الثالث رئيس جمهورية فرنسا وامبراطورها دورا كبيرا في الحركة الإيطالية مدّة ٣٠ عاما . كانت سياسته مملوءة بالمتناقضات خليطا بين الخياليات والعمليات وهو من أكبر الرجال الذين عملوا على تطبيق مبدأ القومية في أوروبا وخصوصا في إيطاليا ولكنه شوّه هذا المبدأ بوقوفه في طريق وحدة إيطاليا — أقول الوحدة لا الاستقلال — لتكون الدولة المجاورة لفرنسا ضعيفة مقسمة ، ويوضع يده على نيس وسافواي ثمنا لمساعدته .

وقد لعبت بيمون بعد ثورة ١٨٤٨ أكبر دور في الحركة ، وتاريخها في العشر سنوات الأولى هو تاريخ الحركة التي رفع لواءها هؤلاء الزعماء وأولهم كافور .

الفصل الثنائي

كافور (١٨١٠ - ١٨٦١)

ولد كافور في تورينو حاضرة بيمون في ١٠ أغسطس سنة ١٨١٠ واشتغل بالسياسة حوالي سنة ١٨٣٩ ، وقد اعتقد من وقت حدوث ثورة يولييه الباريسية في مزايا الملكية الدستورية التي هي وسط بين حكومة مستبدة وحكومة جمهورية ، ودرس في شبابه المسائل الاقتصادية والزراعية في فرنسا وانجلترا وعاد سنة ١٨٤٧ الى تورينو حيث انضم الى المعتدلين الاصلاحيين وأسس جريدة البعث للطالبة بالدستور الذي كان هو أكبر عامل على ايجاده وتوطيد دعائمه .

وبالرغم من فشل ثورة ٤٨ - ٤٩ فانه لم يئأس وكان يقول : « إن مستقبل ايطاليا مكنفول ما بقي الدستور في بيمون » وانتخب عضوا في أول برلمان وكان أكبر همه تأييد وزارة أزجليو في سياستها الاصلاحية ، واشتهر في سنة ١٨٥٠ بخطبته البرلمانية المتعلقة بقوانين « سيكاردى » وهذه القوانين هي بدء النزاع الكبير الذي دام عشرين عاما بين ملك بيمون زعيم السلطة المدنية وبين البابا زعيم السلطة الدينية .

أما سبب النزاع القائم فيتلخص في اغتثاث السلطة الثانية على الأولى فان البابا كانت له ولايات في إيطاليا هو الأمر الناهى فيها وكانت روما ، بسبب استئثار القساوسة واليسوعيين بالسلطة المدنية ومحاربتهم الإصلاحات ، بؤرة الحركة الرجعية ، وفوق ذلك كان القساوسة والرهبان في جميع الولايات الأخرى حكومة داخل الحكومة ، ففي بيمون مثلاً كان عددهم يبلغ ١٨٠٠٠ ، وكان للكنيسة وحدها الحق في تطبيق القانون عليهم في محاكمها الخاصة وحق مراقبة التعليم وما شا كل ذلك من الامتيازات المعرقة للإصلاح ، وكان دخلها $\frac{1}{10}$ من دخل الحكومة مما دعا الى تدمير الأهالى وكان لابد من وضع حد لتلك الحال : أرسل فكتور عمانويل الكونت سكاردى الى البابا فأبى أن يحدث أقل تغيير في العلاقات بين الكنيسة والحكومة في بيمون فما كان من الحكومة إلا أن ألغت أكبر محكمة للكهنة وكثيراً من الامتيازات ، وألقى كافور تأييداً لهذه السياسة في ٧ مارس سنة ١٨٥٠ خطبته الشهيرة التي جاء فيها :

«إذا أردتم أن تتجنبوا الثورة فاعملوا الإصلاحات في ميعادها ، ولا تظنوا أنها تزعزع العرش الدستوري فالأمر على الضد ، إنها تقويه وتمكنه في أرض الوطن حتى اذا هددتنا الثورة ثانية كان

العرش الدستوري هاديا والتفت حوله جميع القوّات الحية في إيطاليا وسار على رأس هذه الأمة الى الغاية الكبرى .

وفي أكتوبر سنة ١٨٥٠ عين كافور وزيرا للزراعة والتجارة مكان سانتا روزا فعمل على تنفيذ إصلاحات كبيرة لإنماء رفاهية البلاد واهتمامها ونظم الجيش والأسطول ، وامتد السكك الحديدية ، وعقد معاهدات تجارية مع فرنسا وبلجيكا وسويسرا وألمانيا كانت عاملا كبيرا في تنشيط التجارة وزيادة الثروة وكانت أول خطوة في سبيل التحالفات السياسية .

وفي سنة ١٨٥٢ عين كافور بعد استقالة أولى تبعته سياحة في الخارج وزير يمون الأول فرسم برنامجا في خطبة له : « على يمون أن تبدأ بترقية نفسها فتهيأ لها في أوروبا وفي إيطاليا مكانة رفيعة تناسب مع مطامعها ، ولتكن سياستها المقبلة واحدة في غايتها هرنة متنوعة في وسائلها فيما يتعلق بنظام الجيش والسياسة الدولية والمسائل الدينية » .

ولأجل تحقيق هذه السياسة كان كافور يسعى في :

(١) نشر عوامل التقدم والنهضة في يمون تحت ظل الحرية والدستور والنظام .

(٢) عدم الظهور في أوروبا بمظهر زعيم ثوري لأن أوروبا كانت تكره الثورة خصوصا وان النمسا كانت تدعى أن يمون ملجأ مشعل النار في أوروبا .

كان كافور في داخل ايطاليا يحارب فكرة الثورات المحلية الانفرادية التي تفتح الأعين ولا تأتي بثمرة تذكر ، ولكنه كان في الوقت نفسه يعمل على الاستفادة منها سياسيا في الخارج فيتهم النمسا بأن سياستها الخرقاء تهدد السلم في ايطاليا وتولد الثورة فيها .

(٣) العمل على جعل تورينو مركز الحركة في ايطاليا جميعها فكان في خطبه يذكر ايطاليا كلما ذكر يمون ، وكان يظهر في صورة المحامي عن الطليان المظلومين في الولايات المختلفة ، وكان يسهل لآلاف المنفيين في يمون طرق المعيشة سواء كان ذلك باعطائهم كراسي في الجامعة أو وظائف في الحكومة ، وكان في الوقت نفسه متصلا في السر بجميع قوى الثورة المنظمة في ايطاليا ويشجعها ويدير حركاتها في الخفاء .

(٤) التقرب من الدول والتحالف مع فرنسا لمساعدة يمون على طرد النمسا من شمال ايطاليا .

وكانت مسألة التحالف أساسية في سياسة كافور ليضمن النجاح

أمام النمسا الكثيرة العدد والعدد، فلما حدثت الحرب الشرقية في القرم وأرادت إنجلترا وفرنسا محاربة روسيا سعنا في إشراك بيمون معها ووعدتها إنجلترا باقراضها مليون جنيه فقبل كافور بشرط أن تكون بيمون ممثلة في جميع المؤتمرات التي تعقد بسبب الحرب وبشرط أن تعتبر بيمون حليفة لا مأجورة ، ولم يتمكن كافور من انفاذ خطته الجريئة الا بفضل وقوف فكتور عمانويل بجانبه ضد المعارضة التي كانت تعد عمله جنونا ، وقد أرسل كافور لأمير مور منظم الجيش الى القرم ومعه ١٧٠٠٠ جندي أبلوا بلاء حسنا فيه شرف ونفاز لبلادهم .

وفي سنة ١٨٥٦ عقد "مؤتمر باريس" ومثل فيه كافور بيمون فاحتل فيه بفضل سياسته الحكيمة المتفوقة مكانة أعلى من المكانة التي تتناسب مع ولايته الصغيرة ، ورسم للمؤتمر أثناء انعقاده صورة الظلم السائد في ولايات البابا وفي ولاية نابولي وصرح « بأن السبب الأساسي هو النمسا عدوة استقلال إيطاليا والخطر الذي يهدد كان الأمة الوحيدة الحرة فيها ، تلك الأمة التي لي الشرف بتمثيلها » .

ورغما من تأييد النمسا وإنجلترا لكافور أبي ممثل النمسا أن يعد بأجراء أى اصلاح في إيطاليا .

وبعد انقضاء المؤتمر قدم كافور مذكرة الى ممثلى فرنسا
وانجلترا الكونت فالفسكى واللورد كلارندن ألقى فيها كل المسؤولية
على النمسا المتعنتة التى تعمل بسياستها على خلق الثورة فى ايطاليا .

ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام أن النمسا بين سنة ١٨٤٩
وسنة ١٨٥٦ كانت مهيمنة على جميع ايطاليا وقد عقدت مع أمراء
ولايات الوسط معاهدات تحوّل لها حق التدخل بالقوة عند
حصول ثورة من السكان وحق احتلال البلاد فى حالة حرب .

حاول نابليون الثالث أثناء انعقاد المؤتمر مساعدة كافور على
الخروج منه بمكسب مادى كضم بعض البلاد الايطالية الى بيمون
فلم يفلح ، على أن هذا المؤتمر يعتبر ، رغما من ذلك ، نقطة أساسية
جديدة فى تاريخ بيمون ارتكزت عليها المسألة الايطالية فى الأفق
الأوروبى ، واعترفت الدول عمليا بوجودها ، فصححت بيمون
مركزها ، بصفتها صاحبة الحق فى الدفاع عن الطليان الذين
هضمت النمسا حقوقهم ، وتقرر مبدأ شرعية الثورة التى لجأ وسيلجا
اليها الطليان ثانية تحت لواء بيمون لهدم الظلم القائم .

لما عاد كافور الى بيمون خطب فى مايو سنة ١٨٥٦ خطبة
قال فيها : « ان القضية الايطالية أصبحت الآن أمام محكمة رأى

العام» فاحتجت النمسا ضدّ ادعاء كافور التكلم باسم إيطاليا واتهمت
الوزير الجسور بالتحريض على الثورة .

وقد كانت لعمل كافور في المؤتمر أثر عظيم في نفوس الأحرار
في ولايات إيطاليا فأرسلت إليه ولاية الباي مدالية ذهبية مكتوبا
عليها بيت شعر لبترا ك معناه : « ما تصنع هنا هذه السيوف
الأجنبية العديدة ؟ » .

وكانت النمسا في آخر سنة ١٨٥١ أرادت تغيير سياستها فأرسلت
إلى مملكة لومبارديا وفنيسيا ما كسمليان حاكما عليها لإجراء
بعض الإصلاحات ولكن ذلك ما كان ليهدئ نائرة الأحرار الذين
قال بأسانهم مانان وهو في منفاه في باريس : « إننا لا نطالب إلى
النمسا أن تكون أكثر رحمة بنا من ذي قبل وإنما نطلب إليها أن
تجأ عن ديارنا » .

استمرّ كافور بعد عودته من المؤتمر في تنفيذ سياسته فبنيت
حصون جديدة في الاسكندرية ، ودعت جريدة وطنية في تورينو
إلى فتح اكتتاب عام لشراء ألف مدفع توضع في حصونها فوردت
مبالغ جسيمة من الطليان في جميع أنحاء العالم ، وفتح سرداب
مون سيني وهو أجل الأعمال النافعة ، وأصلحت أرصفة ميناء
جنوى فتجددت رفاهيتها ، وبلغ ما مدت من السكك الحديدية

بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٨ - ٩٩٠ كيلوم ، ونظم الجيش والأسطول .

كان مانان زعيم فينيسيا في باريس يقول : « إن في إيطاليا قوتين حيتين : جيش بيمون والرأى العام » ولا شك في أن سياسة كافور كانت تدور حول هاتين النقطتين إذ بينما كان يعد الجيش في بيمون ويزيده عمل جهده ليحوطه بقوة الرأى العام الايطالى ، هذه القوة الأدبية التى لا بد منها لتحقيق الغاية .

ولكن لأجل كسب الرأى العام كانت الحاجة شديدة الى قوة منظمة روحها العقيدة والالهام : كانت هذه القوة ممثلة أحسن تمثيل في مانان وفي "الجمعية الوطنية" التى أنشئت في تورينو تحت رعايته وكان كافور اطلع على سرها عند تأسيسها بواسطة لافارينا ، شعار هذه الجمعية : « الاستقلال والوحدة ، طرد النمساويين والبابا » وكان كافور يرى كل صباح قبل طلوع الفجر لافارينا ويتفق معه على خطة السير .

وفي سنة ١٨٥٧ عين بالافيسينو صديق مانان وناشر مبادئه في ايطاليا رئيسا للجمعية وجاريا لى وكيلا لها ، فأكسبها اسم بطل مونتفيديو قوة وحياة بين طبقات الشعب .

وفي يناير سنة ١٨٥٨ جرت حادثة "أورسيني" الذي حاول أن يقتل نابليون الثالث في طريقه الى الأوبرا زاعما أن خلاص إيطاليا متوقف على موت ذلك الرجل المستبد ، ويظهر أن هذا الحادث أثر في نفس الامبراطور فاعتزم أن العمل ودعا كافور للقائه سرا في بلومبيير بجبال القوج في ٣٠ يولييه سنة ١٨٥٨ واتفق معه شفويا على مساعدة يتيون بجيش قدره ٢٠٠٠٠٠ ضد النمسا بشرط ألا تكون الحرب لخدمة فكرة ثورية إذ لا بد من مبرر سياسي في أعين الدول ، وبشرط أن تضم سافواي ونيس الى فرنسا .

من ذلك الوقت استخدم كافور "الجمعية الوطنية" لنشر الدعوة لليمون وجمع المتطوعين من جميع أنحاء إيطاليا استعدادا للحرب المقبلة ، وأشار كافور على الجمعية منع الكل خلاف بابدال شعار الاستقلال بالوحده ولعل هذا التغيير كان في الظاهر ، وفي سنة ١٨٥٨ قدم لافارينا جارييلدي الى كافور ليكون واقفا على ما يحدث وليأخذ أدبته .

وكان الأثر في الولايات وخصوصا في لومبارديا تغتلي فيهم الوطنية ويتربون بفارغ الصبر حرب الحرية والاستقلال .

وفي أثناء استقبالات رأس سنة ١٨٥٩ أظهر الامبراطور لسفير النمسا في باريس أسفه لأن العلائق بين البلدين ليست

حسنة كما كانت من قبل فكان لهذا التصريح في الدوائر السياسية مغزى كبير .

وفي ١٠ يناير ألقى الملك خطبة أعدها له كافور بمناسبة افتتاح البرلمان جاء فيها : «إن الحالة ليست خالية من الأخطار وإنما وإن كنا نحترم المعاهدات ولكننا لا يمكننا أن نصم آذاننا عن صيحة الألم (Grido di Dolore) التي تصعد إلينا من بلاد بعيدة في إيطاليا .

« أقوىاء في بلادنا ، واثقين بعدالة قضيتنا ، ها نحن أولاء نترقب بالحكمة وصادق العزم أمر الله سبحانه » .

كانت هاتين الكلمتين «صيحة الألم» صدى رددته إيطاليا واهتزله الرأي العام من كل جانب .

ولكن نابليون بدأ يتردد تحت تأثير الدول وطلب الى كافور المجيء للقاءه في باريس (٢٦ مارس) ورجاه أن لا يعجل بالحرب نخشى كافور أن تفلت الفرصة من يده وهتده بنخوض غمار الحرب وحده وبافشاء أسرارهم مما قاله له : « عندنا اليوم قوة أدبية تعادل جيشا ، اذا فقدناها لم نجد من يردّها إلينا » ، هذه القوة الأدبية التي يعنيها كافور هي قوة الرأي العام .

ومن ثمة كان شغل كافور الشاغل لإيجاد "المبرر السياسي" الذي اشترطه نابليون، وكأنما أرادت النمسا أن تتكفل هي بخلفه إذ طلبت الى بيمون إيقاف التسليح فأخذ كافور في مراوغتها ومضايقتها بأساليب السياسية الدقيقة حتى ضاق ذرعها وأرسلت في ٢٣ أبريل الى حكومة بيمون بلاغا لتتقدم اليها فيه بنزع السلاح في الحال والرد في مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام .

كان هذا البلاغ بمثابة إعلان حرب وغلطة سياسية كبرى حملت النمسا وزرها ، روى أن كافور قال عند استلامه البلاغ لبعض أصدقائه : « قضى الأمر وكتبت لنا صحيفة في التاريخ ، فلنمض الى العشاء » .

وفي ١٣ مايو تقابل الملك في جنوى مع الامبراطور الذي جاء « ليحرر إيطاليا من جبل الالب الى الادرياتيک » ، وفي ٤ يونيو انتصر الحلفاء على النمسا في ماجنتا ودخلوا ميلانو في الثامن منه ، وفي يوم ٢٤ انتصروا انتصارا كبيرا في سولفرينو وسان مارتينو، وهنا وقعت رحى الحرب بقاءة وذهب نابليون على غرة للقاء الامبراطور فرانسوا جوزيف في « فيلا فرانكا » حيث عقدت بينهما هدنة تقرر بمقتضاها ضم لومبارديا الى بيمون وترك فينيسيا للنمسا .

آلم هذا النبأ الغير المنتظر جميع أحرار الطليان في فينيسيا ومودين

وتوسكانه وعدّ كافور هذا العمل من الامبراطور خيانة وحاول أن يقنع الملك بعدم الموافقة على شروط الهدنة فلم يفلح فاستقال ومضى الى مزارعه في اليرى ، ويقال أن هذه أول مرة تغلب فيها سلطان الغضب على ذلك العقل الراجح .

ذهب كافور بعد ذلك الى سويسرا وهناك وسع برنامجيه وجعله كبرنامج مانان : « إنهم يتهمونى — يقول كافور — بأننى رجل ثورى ولكن يجب قبل كل شئ أن نسير الى الأمام ، وسنسير » .

ولما عاد الى وطنه وكانت "الجمعية الوطنية" قد تكونت من جديد — بعد انحلالها فى أول الحرب لترك زمام الحركة لحكومة ييمون — أخذ يعمل بواسطتها على نشر الدعوة فى إلمليا وتوسكانه للانضمام الى ييمون .

وفى ٢٠ يناير سنة ١٨٦٠ دعاه الملك لرئاسة الوزارة إجابة لرغبة الرأى العام ، ويمكن القول بأن كافور بعد صلح فيلافرانكا مسك بزمام الثورة صراحة وعدا بها عدوا جريئا فى طريق الوحدة والاستقلال ، عانه على ذلك تقرير نابليون فى الصلح مبدأ عدم التدخل ، واحتجاج إنجلترا على سياسة النمسا وسعيها فى جذب الحركة الايطالية اليها لا سيما وأن الطليان أصبحوا ساخطين على فرنسا ،

وقد عرف كافور كيف يستفيد من الخلاف بين الدولتين وأجرى في الحال استفتاء عاما (Plebiscite) في ولايات الوسط تأكيذا لمبدأ القومية الذي نادى به نابليون وارضاء له فأعلنت ولايات توسكانه والرومانية ومودين وبارم بواسطة جمعيات منتخبة انضمامها الى مملكة الشمال في ظل عمانويل .

وفي ٢٤ مارس سنة ١٨٦٠ أمضى كافور — والأسي ملء — فؤاده — مع مندوب فرنسا معاهدة تعطى سافواى مهد الأسرة الحاكمة ونيس وطن جارييلدى الى فرنسا بشرط أن يوافق سكان المقاطعتين والبرلمان الايطالى على ذلك، وفعلا تمت هذه الموافقة في أبريل فدل الطليان بهذه التضحية على تشبعهم بالروح السياسية العالية .

كافور وجارييلدى — أخذت أنظار الطليان بعد اندماج ولايات الشمال والوسط في مملكة واحدة تتجه الى الجنوب، وبينما كان البابا يحشد الجند تحت قيادة لامورسيير استعدادا للطوارئ، وفرنسوا الثانى ملك نابولى يتهيا لمساعدة البابا لاسترداد الولايات المفقودة أشعل المزيينون نار الثورة في مدينة بالرم بجزيرة صقلية فاتفق لافارينا سرا مع كافور على إرسال حملة الى الجنوب يرأسها جارييلدى وأمدته بالمال اللازم وبعدد كبير من بنادق

الحكومة ، وقد بذل كافور جهده في تغطية مسئولية حكومة بيون أمام الدول المحتجة .

ويجدر بنا الآن أن نقول إن كثيرا من المزيين كانوا يتوهمون أن كافور ليس من أنصار الوحدة الذين يعتمد عليهم ، والحقيقة أن سياسة كافور كانت عملية تتنوع بحسب الظروف فاذا رأى أن في إمكانه مثلا الذهاب في طريق الوحدة الى مدى أبعد مما كان يعتقد لم يتردد لحظة واحدة ، وكافور هو الذي قال بعد معاهدة فيلا فرانكا : «إنهم منعوف من بناء إيطاليا بالسياسة من الشمال وسأبنيها بالثورة من الجنوب» .

وفي مساء ٥ مايو غادرت حملة جارييلدي المسماة "حملة الألف" مدينة جنوى الى بالرم التي كانت خير عون للشائرين ، وفي يولية امتدت الثورة في صقلية وقلبت حكومة البوربون فيها ، وأعلن جارييلدي فيها دكتاتوريته باسم الملك فكتور عمانويل فأعلن نابليون استيائه فأوعز كافور الى الملك بإرسال كتاب رسمي الى جارييلدي ينصحه فيه بالعدول عن عبور بوغاز مسيني ، ولكن كافور في الوقت نفسه أرسل في السر الى جارييلدي بواسطة صديقه القائد برسانو كتابا يقول له فيه : «انه لا يجوز الوقوف في منتصف الطريق» وسرعان ما عبر جارييلدي البوغاز في ليلة ١٩ أغسطس .

وفي أثناء ذلك كان كافور يعمل بكل الوسائل على خلق الثورة في مملكة نابولي مستعينا بسفير يمون فيها ، وفعلا ثارت ولايتها واضطر ملكها فرنسوا الى الفرار في مدينة جيت في ٦ سبتمبر ١٨٦٠ وفي غد ذلك اليوم دخل جارييلدي نابولي دخول الفاتحين والناس بين مهلل ومكبر .

ولما كانت الدول هائجة تحتج أرسل كافور الى جارييلدي ينصحه بالتعجيل بإعلان ضم مملكة نابولي الى يمون لتكون الدول أمام أمر واقع فأبى جارييلدي ، الذي كان وقتئذ ألعبوبة المزينيين المحيطين به ، بحجة أنه يريد إنقاذ روما أولا — مع علمه بوجود جيش احتلال فرنسي فيها — واسترداد نيس من فرنسا .

ولقد صدق مانزوني إذ قال : «إن الذي يعطى لسياسة كافور هذا الشأن الأول هو أنها جمعت بين التبصر وعدم التبصر» وهل أدل على ذلك من كون كافور لما رأى أن سياسة جارييلدي وحزب الثورة قد تنكبت سبيل الحكمة وأصبحت تهدد القضية قزرفي الحال — رغما من المركز الدولي الدقيق — أن تمسك حكومة يمون نفسها بزمam الثورة لتحسن سياستها وتوصلها الى غايتها .

وفي أقل من عشرين يوما في سبتمبر خرج جيش يمون من

الحدود واحتل ولايتي مارش وأومبريا من ولايات الكنيسة وهزم جيش البابا ، وقد اقتنع جارييلدى أخيرا بضرورة الضم وبعد تصويت عام في مملكة نابولي وصقلية أعلن أهلها الانضمام الى ملكية فكتور عمانويل في ٦ أكتوبر سنة ١٨٦٠ وقضى على حكم البوربون فيها .

وكانت إنجلترا هي الدولة الوحيدة التي اغتبطت بانتصار الثورة الايطالية فبعث وزير خارجيتها الى السفير الانجليزى فى تورينو بكتاب ذكره المؤرخ بيتراورسى فى مؤلفه جاء فيه : « يجب أن نعترف بأن الثورة الايطالية سبست بروح تسامح واعتدال لا نظير لهما ، فان سقوط الحكومات القائمة لم يعقبه كالعادة انطلاق سورة غضب شعبي ، ولم تتغلب فى بلد ما آراء الديموقراطيين المتطرفة بل حال رأى العام دون مظاهر المغالاة التى نصحب كل انتصار شعبي ، ولقد دقت حكومة جلالة الملك النظر فى مقدمات الثورة الايطالية ونتائجها فلم تجد فيها ما يبرر التأنيب الشديد الذى وجهته حكومات النمسا وفرنسا وروسيا الى أعمال ملك بيون ، وإن حكومة جلالة الملك لتفضل أن ترى ذلك المنظر الرائع ، منظر شعب يعلى بناء حريته ويوطد دعائم استقلاله وسط عطف أوروبا ودعواتها الطيبات » .

وفي أواخر أكتوبر قصد فكتور عمانويل مدينة نابولي فذهب
جارييلدى للقاءه في طريقه ببلدة في إقليم كازرتا ثم ذهبوا معا الى
نابولي ودخلاها في ٧ نوفمبر بين الهمسات والتهليل ، وهناك أعطى
ذلك الجندي العظيم مثالا عاليا للوطنية الصادقة اذ سلم القيادة الى
ملك بيمون وعاد وحده للانزواء بجزيرة كابريرا .

وبعد ذلك أتم الجيش النظامى العمل الذى قام به المتطوعون
فاحتل الجهات والحصون القليلة الباقية .

وفي فبراير سنة ١٨٦١ اجتمع في تورينو أول برلمان ايطالى ،
وفي ١٤ مارس نودى بفكتور عمانويل " ملكا لاطاليا " فأصبح
حاكما على ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ نفس .

فينيسيا وروما — لم يبق الآن أمام الطليان لتحقيق
وحدتهم واستقلالهم الكامل إلا فينيسيا وروما وهما مشكلتان
صعبتان لأن الأولى منهما تستدعى حربا جديدة مع النمسا بدون
نابليون الذى كان تحت تأثير الاكليروس عدوا للوحدة ، والثانية
وعرة الطريق نظرا لمركز البابا في العالم الدينى ووجود جيش
فرنسى في روما .

أخذ كافور لأجل حل مشكلة فينيسيا يفكر في مخالفة جديدة

وكان قد أرسل في سنة ١٨٦١ الفونس لامرمورا الى غليوم ملك بروسيا ليخبره « بأن الطليان اعتادوا على اعتبار بروسيا حليفة طبيعية لهم » ، وزيادة على ذلك فان كافور في تلك السنة عينها التقى مع زعيم الثورة المجرية في سنة ١٨٤٩ كوسوت وتحالفا على تحرير المجر وفنيسيا معا من قبضة النمسا .

أما المشكلة الثانية فيظهر أنه اعتمد في حلها على السياسة وأساليبها المرنة .

في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٦٠ أعلن كافور في البرلمان « أن روما التي ورثت مجد ٢٥ قرنا لا بد وأن تصبح عاصمة مملكة إيطاليا » . وتناقش البرلمان في المسألة لغاية ٢٧ مارس فالتى كافور في ذلك اليوم خطبته الشهيرة التي أعلن فيها مبدأ « الكنيسة الحرة في الحكومة الحرة » وأيد البرلمان الوزير الكبير في خطبته .

ولكن بينما كان كافور يعمل على إتمام البناء مرض فوات في ٦ يونيو سنة ١٨٦١ مبكيا عليه من مواطنيه الذين جمع شملهم ورفع لواءهم وجعلهم أمة ، وبعد موت ذلك الرجل الذي قال عنه مازيني : « إنه وطني في صميم الفؤاد » ، وقال عنه سير روبرت بيل « إنه أكبر رجل قاد أمة في طريق الحرية » سار الوزراء الذين خلفوه — وما أبعد المدى — على النهج الذي رسمه لهم .

وفي ١٥ سبتمبر سنة ١٨٦٤ اتفقت فرنسا مع إيطاليا على جلاء الجنود الفرنسية عن روما بشرط أن لا يتعرض لها وأن يجعل الطليان عاصمتهم فلورانس ، وقد تم ذلك سنة ١٨٦٥ وهى السنة التى احتفلت فيها إيطاليا من أقصاها الى أقصاها بالعيد المئوى السادس لميلاد دانت أول شاعر إيطالى كان له أثر فى الحركة الاستقلالية .

ولما كان بسمارك يريد طرد النمسا من ألمانيا سعى فى الاتفاق مع إيطاليا فتحقت بذلك فكرة كافور وأمضيت مخالفة سرية بين روسيا وإيطاليا فى ٩ أبريل سنة ١٨٦٦

ابتدأت الحرب فى ٢٠ يونيه فهزم الطليان فى البر والبحر ولكن انتصار بروسيا ساعدهم على الخروج من الحروب بالغنيمة ففي ١٤ أغسطس أمضيت معاهدة براج التى سلمت النمسا بمقتضاها فينيسيا الى نابليون الثالث الذى قزر بصفته وسيطا تركها لإيطاليا بشرط موافقة السكان ، وقد وافقوا بالاجماع فى ٢١ و ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٦٦

اهتم الطليان بعدئذ بحل مشكلة روما التى تعقدت منذ القانون الذى كان أصدره البابا فى ديسمبر سنة ١٨٦٤ ضد حرية الصحافة وحرية التعليم وجميع مظاهر التقدم الحديث ، ولما يئس الطليان من سياسة اللين ذهب جارييلدى مع فرقة من المتطوعين

للهجوم على روما رغما من تهديد نابليون بالتدخل لحماية البابا
فاضطرت الحكومة الى القبض عليه فتمكن من الهرب وعاد ثانية
قاصدا روما والتقى بالفرنسيين في طريقه فسالت الدماء وهزمت
حماته واضطرت الحكومة الايطالية من جديد الى إرساله الى
كابريا .

وعبثا حاول الطليان اقناع نابليون بالترشح عن موقفه إزاء
المشكلة الرومانية، صرح روهير وزير فرنسا في ذلك الوقت
بأن فرنسا « لن تتحمل أى اعتداء على شرفها وعلى الكاثوليكية وان
إيطاليا ستجد فرنسا في طريقها الى روما يوم تغزو ولايات البابا » .

فلم يكن بد من الانتظار حتى حرب السبعين وسقوط
الامبراطورية ، وقد كتب فكتور عمانويل ثانية الى البابا يرجوه
رجاء بنويا أن يتخلى عن السلطة المدنية فلم يقبل ، فعول الملك على
الالتجاء الى القوة ، وفي ٢٠ سبتمبر كانت الجنود الايطالية في روما
نفسها ، فبادر سكان ولايات البابا باعلان انضمامهم الى حكومة
فكتور عمانويل في ٢ أكتوبر سنة ١٨٧٠ وزالت بذلك أكبر
عقبة في طريق الوحدة التي كانت أساس الحركة الاستقلالية
في إيطاليا .

الكتاب الرابع

الفصول

دقات الساعة

الآن وقد عسعس الليل وهمس النسيم في آذان الربى وأخذ
الكري بمعاقد الأجناف طويت الكتاب طلبا للهجعة كي أصبح
موفور البدن فما كدت أطفئ المصباح وتأخذني سنة من النوم
حتى أرت الساعة الدقاقة فنابتني رعشة ونبا بي المضجع ونفى
السهاد أثارة من الكرى علق بأجفاني بعد ما هجع الطير
والحيوان .

تتصف الليل ومر بعد وهنة ساعتان كما خبرتنا "ناعية الزمن"
فتذكرت قول مدرّس العربية منذ ستة أعوام تجرّمت وترادفت
ترادف الموج في محيط السنين والأيام إن من أقسام المفعول المطلق
ما يكون بيانا لعددده نحو : «دقت الساعة دقتين» .

أجل ، كثر الأستاذ مرارا هذا المثل فما كنت لأهتم له وكـ
دقت الساعة في ذلك الأمل الدابر فكان وقع دقاتها في أذني كتغريدة
الطائر ورنات العيدان حين كنت أرتع في نخائل الشبّاب النضر
وما الشبّاب عندي إلا زمن الجهل والخفلة يوم لم ندخل بعد ميدان
الكفاح ولم نذق صاب الحياة وعلقمها .

وإني لأتمثل الدهر يومئذ وهو كالصبي الغشوم يتعلم الرماية وأنا كالدائرة التي مركزها الغرض ، وما الغرض إلا القلب ، وسهامه دقائق الساعة يرسلها فتطيش وتحلورنة القوس وهي تطلقها .

أما وقد تبدلت الأيام وجرت جوار بالنحس بعد السعد وشبهنا من هول الزمان وصار فتانا كهلا من طوارق الحدثان وجاء زمن اليقظة فليخفق القلب فان كل ساعة تمر ترسل اليه سهمان من جعبة الآلام لا يشذ عن الرمية حتى اذا تبينت الخيط الأبيض من الخيط الأسود ودرج الليل في أكفان الصباح أحسست بأن في فؤادي اثني عشر سهما فوهبت الى سمات الصبح زفراتي والى نداه عبراتي .

لو لم يكن في دقائق الساعة إلا تذكرة بما مر من نهار الحياة وتهديد بما سنلقاه لقلت حسبي بذلك ألما ، وما أنس لا أنس قول بعض الغافلين : « علام تبكي الماضي وتحن اليه بعد ما نفضت يديك من ترابه ، ورجع المشيع ، وفي الآتي كفاية » .

أجل ، رجعنا فراغ الأيدي ملاء القلوب ، ولو علموا أن المستقبل إن هو إلا جزء من الماضي ، وأتينا اذا بكينا الماضي فانما نبكي على المستقبل ، وإن الغد أخو اليوم ، والساعة أخت الساعة

والدهر أبو الجميع ، وقد تحالفت جميعا على الغدر لقالوا معنا إنا لله
وإنا إليه راجعون .

تروعنى دقات الساعة وأشعر منها بوحشة وانقباض ويحيل
إلى أنها صدى أقدام عدو شديد البأس صعب المراس خلقه الله
شفافا كالهواء ، كما خلق بعض الحيوان بلون الصخر والرمال ، إلا أن
الأمر على الضد فالأول يتخفى ليصيد والثاني أجل أن لا يصاد
وما نشعر إلا وقد أصمى مهمه في الساعة الأخيرة فأجهز على البقية
الباقية : ذلك هو الموت ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

الأهرام في ٩ أكتوبر سنة ١٩١٣

موليير

غدا ١٤ يناير يحتفل رسميا في السربون وفي فرنسا من أقصاها
الى أقصاها بذكرى مولير الذى ولد فى ١٥ يناير سنة ١٦٣٢
وستمثل فى مسرح "الاوديون" بباريس حتى آخر هذا الشهر
كل ليلة رواية لمولير ، أما باقى المراسم فى باريس والمقاطعات
فستمثل على الأقل فصلا كل مساء .

وفى شهر أبريل تقام حفلات الذكرى فى أنحاء أمريكا كلها
فوجب علينا ، نحن المصريين ، أن نحى ذكراه لأنه ليس نابغة
الفرنسيين فحسب ، بل أحد النوابغ الذين يفخر بهم العالم بجمعهم
ماء تحدر من غمام واحد ان افترق نسبهم ألف بينهم أدب أقاموه
مقام الوالد .

وما أصدق كلمة الفيلسوف تين فى كتابه الفذ عن "لافونتين
وقصصه" إذ قال : «إن مولير ولافونتين هما غير مدافع العبقرى
اللذان يمثلان أحسن تمثيل الفكرية اللاتينية والروح الفرنسية
الأصلية» . ومعنى ذلك أنك تجد فى قصص لافونتين — التى ترجمها
عثمان جلال وسماها العيون اليواقظ — وفى روايات مولير — وقد

ترجم منها الى العربية الشيخ متلوف ومدرسة النساء ومدرسة الأزواج
والزواج القهري — أكبر علامات النبوغ اللاتيني وهى الوضوح
وحسن الترتيب وأكبر مميزات الروح الفرنسية (Esprit gaulois) ،
وهى تشبه الروح المصرية المولعة بالمزاح ، المستهترة فى الظاهر بكل
شئ ، الهازلة فى مواطن الجلد وربما كان هزلها جدا ، تلك الروح
التي اذا حملتها من الحوادث أثقلها ابتسمت ففرجت عن همها وكان
ذلك منها عنوان الجلد والثبات ، الضاحكة أمام الموت .

وهل أدل على نبوغ أمة من هذه النكات التي تفيض بها
المجالس وتقع من نفوس الحضور مواقع الماء من ذى الغلة
الصادى فطالما حوت الحكمة العالية التي يغوص عليها الكاتب
والشاعر أو الوصف الجامع البليغ لحادث من الحوادث أو لرجل
من الرجال أو لحالة من الأحوال أو لأمة من الأمم .

تلك المعانى الجلية التي تخاطب الروح قبل الأذن هى ثمرة
الذكاء الفطرى والتجارب والمشاهدة ، وهذه الصفات الثلاث
اجتمعت فى مولير فأحسن تعهدها واستثمارها فعم خيرها وحصادها
فاذا أردنا أن نتفهم قليلا سر ذلك النبوغ العظيم وجب علينا أن
نستعرض عصر مولير وحياته وأعماله .

عصر مولير :

عاش مولير في باريس (١٦٥٨ - ١٦٧٣) فقضى فيها أعوام المجد الوارفة ظلاله وذاق مر العيش وحلوه في وقت كان فيه لويس الرابع عشر يرتع في بجوحة الشباب وشباب الملك فلقد كان العصر الأول (١٦٦٨ - ١٦٧٥) من حكمه هادئا مطمئنا لم تكدر صفاء ويلات الحروب وفادح الدين وما أشبهه بأوائل حكم اسماعيل .

كان الملك وأتباعه من حاشية وأعيان لاهين بين الناي والعود وكان الشعب على دين أمرائه يلهو بما يسوقون اليه من أعياد وأفراح ، وكان مولير مقربا من الملك فترج مع الغواة بدلوهم وكان خير من لها ومتع بالحياة ، ولكن عصارة لهوه كانت الماء ، فانه وهو اللبيب الثاقب البصر قلب طرفه في ذلك المجتمع فاخترق نظره تلك المحجب الكثيفة ، المدهونة بالطلاء ، الملوّنة بالرياء ، فاذا الحية كامنة في الرياض ، واذا عامر النفوس كان خرابا ، واذا المجتمع كالبعى قد انطوت نفسها على الحقد والبغضاء ولكنها تقبل عليك في أحسن حلة تضحك وتغنى .

وقد صوّر مولير ذلك المجتمع أحسن تصوير في قالب هنلى شف عن ألم دفين ، ومما ضاعف الألم أن مولير لم ينكب بحياة

المجموع الذى كان حوله ، فحسب بل فى حياته الفردية ، فى داره ومعاشه إذ خاتته وزوجه ومات له طفلان فضرب الأسى على جميع أوتار فؤاده لاسيما فى آخر العمر وقد مال ميزان النهار واشتبه الأمر .

حياة موليير :

ولد جان باتست بوكلان فى باريس فى ١٥ يناير سنة ١٦٣٢ وكان أبوه جان بوكلان تاجر أبسطة وخادما فى غرفة الملك ، وقد تعلم فى صغره مبادئ الفلسفة والحقوق ، و لكن علمه الصحيح كان ثمرة التجارب والمشاهدة ، وكان فى شبابه شديد الميل الى التمثيل فتعلق به ، ويقال أنه صحب لويس الثالث عشر فى سياحته فى جنوب فرنسا سنة ١٦٤٢ وتعرف فى طريقه بالمشكلة "مادلين بيجار" التى عشقها زمانا ثم تزوج ابنتها .

ولم تكن مادلين محودة السيرة ولكن موليير افتتن بها وتبعها أينما حلت وأسس معها فى باريس سنة ١٦٤٣ "المرسح الشهير" ولكنه لم يوفق فى عمله فذهب الى مقاطعة "الجويان" حيث انتظم هو ومن معه فى سلك جوق التمثيل الذى كونه الدوق "ديپرنون" ثم ذهب فى سنة ١٦٥٣ الى مدينة ليون وأخذ يتنقل بعدئذ بين المقاطعات الفرنسية ومدنها الكبرى كليون ومونبلى وافينيون ودييجون وجرينوبل للتمثيل الهزلى تارة أمام الأمير

والأميرة دى كوتى ، وأخرى أمام مجالس المديريات التى كانت
تجتمع من وقت لآخر، وكانت فى زمن انعقادها بحاجة الى اللهو
والسرور .

فى سنة ١٦٥٨ عاد موليير ومادلين بيجار وجوقهما الى باريس
فشمليهما أخو الملك بعنايته ومدّهما بماله وقوّته ، فمكاد ينصرم عاما
حتى مثل موليير أمام الملك والجمهور الباريسى رواية " المتصنعات
السخيفات " (Les Precieuses Ridicules) وهى أول صورة
للمجتمع ذلك العصر رسمها موليير وشهر فيها بالنساء اللواتى كن
يتكلفن فى مشيتهن وخلقهن وحديثهن ، وكانت هذه الرواية أول
كوميديا حقيقية تمثل الحياة المرئية المحسوسة ، وفاتحة عصر روائى
جديد .

وفى سنة ١٦٦٤ تزوّج موليير بابنة صاحبه مادلين واسمها
" ارماند بيجار " وكانت فى العشرين من عمرها ، أما زوجها فقد
جاوز الأربعين .

وكان هذا الزواج مدعاة للقليل والقال ولا شك أن هذه
الغلطة قد نغصت على موليير حياته فكانت فى الخارج مطعنا ظفر
به أعداؤه وهم كثر وفى الداخل مبعثا للأسى والألم لا تنضب له
عين . ولقد خانت زوجه وبقيت فى عزلة عنه أربعة أعوام كاملة

فأتى على مولير حين من الدهر كان يتجلى ويسعى جهده في نسيان
آلامه وأحزانه مرخيا لنفسه العنان طورا في ميدان العمل، وطورا
في ميدان اللهو والتصايب كما يفعل رجال المراسخ ولكنه في آخر
عمره وقع صريع الحزن والمرض .

روى جريمارست في كتابه " حياة مولير " أن مولير أفضى
لصديق له سنة قبل موته (١٦٧٢) بما يأتي :

« لقد تزوجت بدون تبصر فاستحق كل ما أصابني ، إن امرأتى
خفيفة مجرى الروح ، لعوب ، مولعة بإظهار رشاقتها وكل ذلك
يولد في نفسى القلق واليقظة المتناهية على الرغم منى ، تلك المرأة التى
هى أرجح منى عقلا مائة مرة تريد أن تمتع بالحياة ، وهى تسلك
سبيلها معتمدة على طهارة نفسها لاتعبأ بارادتى واحتياطاتى فما أشد
لوعتى وأحزانى ، ولطالما سعت جهدها كالنساء كافة فى اجتذاب
ثناء الناس وإعجابهم ، وليس لها غرض خاص ، فكانت تضحك
من ضعفى » .

وفى ١٧ فبراير سنة ١٦٧٣ — أى ثلاثة أيام قبل موته —
كان مولير يشكو ويتوجع أمام امرأته : « طالما كانت حياتى
ممزوجة على السواء بالألم والسرور كنت أخالنى سعيدا ولكن اليوم
وقد أعيانى الداء ، ولم أجد ساعة حلوة فيها عزاء وسلوى ، أرانى

مضطرا الى ترك باب الرجاء وليس في مقدورى الآن احتمال صدمات الآلام المتتابعة التى لا تفتأ تهجم على ، ولكم تألم الانسان قبل أن يفارق الحياة ، وهأنذا أشعر بأنى أخطو آخر خطوة بينى وبين الموت .»

ورغما من مرضه فان مولير فى ذلك اليوم طلب أن تمثل للمرة الرابعة رواية "المريض الخيالى" فأرادت زوجته أن تمنعه فأجابها : « ماذا تريدین ؟ أن هناك خمسين عاملا فقراء يتكسبون قوت يومهم فما يصنعون حال امتناعنا ، وهل تريدین أن أحرهم من القوت يوما واحدا ؟ » .

وسواء أكان الدافع الحقيقى الى ذلك الرحمة المتدفقة من فؤاده أم حب العمل كما يقول اميل فاجيه « فان مولير كان غنيا وكان فى امكانه دفع أجر اليوم للخمسين عاملا بدون تحمل المشقة والعناء » فمن الثابت أن مولير كان محبا للعمل وكان كبير النفس رحيا .

ولقد تغلب الداء عليه أثناء التمثيل فحملوه الى منزله فأخذ يقيء دما الى أن صعدت أنفاسه الأخيرة فى ٢١ فبراير سنة ١٦٧٣

تلك حياة مولير المترعة بالألم والعمل فلقد ألف فى ثلاثة عشر عاما ما يزيد عن خمس وعشرين رواية أكثرها من الخالدات

والانسان، كما يقول الفريد دي موسيه، تلميذ أستاذه الألم،
وكذلك الشعوب لا يهذبها ولا ينضج مواهبها إلا الألم .

فاذا كنا اليوم نحى ذكرى مولير فانتا نعطي بتلك الذكرى
للشعب المصرى المشل الأعلى للعمل الباقى الذى تنتجه التجارب
والآلام، والانتباه الى حقائق الحياة دقيقها وجليلها، والجلد على
الشدائد، والصبر على المكاره .

وما أخرجنا اليوم الى إحياء ذكرى ذلك الرجل العظيم الذى
عاش فعمل ولم يئأس، ومات فأخذنا من موته معنى الحياة .

الأهرام فى ١٤ يناير سنة ١٩٢٢

مصر حيرى

من المؤلم جدًا أن يدقق الانسان النظر فى حالة مصر اليوم
فهما حملنا أنفسنا على حسن التفاؤل بالمستقبل ، ومهما حاولنا الوصول
الى استنباط حسن العاقبة مما يحيط بنا من الحوادث ، فالحقائق
التي تصدمنا اليوم ، والتي صدمتنا أمس وأول أمس ، ربما تضعف
فيها روح الأمل ، ولقد أصبح الكثيرون منا على مذهب بعض
الفلاسفة المحدثين الذين لا يرجون كثيرا من الحياة الدنيا ، ولكنهم
أقوياء النفوس والعزائم لا يشنهم ضعف رجائهم عن العمل .

أجل ، ليكن شعارنا العمل فى ظلمة الأمل ، فالعمل خير مؤنس
فى تلك الوحشة ، وأخلق بمن وطنوا النفس على احتمال أذى الدنيا
فى سبيل أصعب الغايات منا لا أن يعملوا فصعب العلا فى الصعب .

ولقد كان أحد قيصرة الدولة الرومانية ، ولعله سبتيم سيفير ،
يقول « لنعمل » (laboremus) ، وكان لقوله مغزى كبير فى ذلك
الوقت الذى رأى فيه بعينه تلك الدولة العظمى وقد ظهرت فيها
عوامل الفساد ، ودبت فيها روح الانقسام ، ورأى بعينه فى وجهها

تسرب المشيب خلال بقايا الشباب ، فما كان أشد لوعته ولكن
ما كان أكبر شجاعته وهو يقول : « لنعمل » .

أجل ، لنعمل مهما داخل الشك نفوسنا ، ولنعمل للعمل
في ذاته ، للعمل الصامت الذى يستمد وحيه من الواجب ، للعمل
المنتج الذى لا ينتظر جزاء ولا شكورا ، للعمل الصحيح الذى
ينتسب الى الوطنية الصحيحة .

وإن من يرجع البصر كرة في حالتنا فى الداخل والخارج لا يسهه
إلا أن يأسى على مافات ، ويتوجس خيفة من الغد ، وما مثل مصر
اليوم إلا مثل السفينة ألحت عليها الأنواء والرياح من كل جانب
فهى مضطربة حائرة ، والمصريون فى أثناء ذلك ، بدلا من أن يفكروا
فى نجاتهم ويعملوا على خلاصهم فى ذلك المضطرب الواسع ، تتجاذبهم
الشهوات الحزبية وتلعب بهم لعب النكباء بالعود حتى ضاقت
عليهم الدنيا بما رحبت ، وأصبح أفقهم أضيق من سم الخياط لأنه
أفق رسمته لهم السياسة الشخصية التى تسد على الناس سبل الحق
الفسيحة ، وتضلهم من حيث لا يشعرون .

وكل منهم يريد أن يكون ربانا ، وكل منهم اذا رفع اللواء رأته
تحت اللواء زعيما ، وكان لابد أن يسود النظام وسط هذه الفوضى ،
النظام كما نفهمه نحن — لا كما يفهمه الخصم — النظام الذى يجمع

الكلمة ويوحد الغاية والذي لا تقوم له قائمة إلا اذا كان هناك تيار من الرأي العام قوى منظم لا ينشعب عند كل ملهمة ، ولا يحدث فيه فلولا كل مضلل خداع .

وليتق الله حملة الأقلام في مصر فان على أكتافهم تقع المسؤولية الكبرى ، وليحاسبوا ذمتهم على كل سطر وكل كلمة يخطونها لأن مصر تجتاز ساعة عصبية في تاريخها ، فرب كلمة تهوّر أو كلمة استسلام أدخلت السم في عقلية فريق من الأمة فألحقت بها ضررا بليغا .

فمن الاستسلام المنكر أو ما يشبهه قول بعضهم أن ليس عندنا جيش ولا أساطيل نرغم بها الخصم على ردّ ما اغتصبه من حقوقنا ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم فأننا نعلم ذلك علم اليقين ، والخصم أيضا يعلم ذلك ، ولكنه لا يمكنه أن يتجاهل أبد الآبدين إرادة أمة ، وقد مضى الزمن الذي يعيش فيه المحتل قرير العين منعم بالبال وسط شعب يريد أن يعيش حرا .

ومن الاستسلام المنكر أن نسكت على الضيم بحجة أنه مؤقت وأن نتجاوز عن كل ما تفعله المحاكم العسكرية وقد وضعت الحرب أوزارها من ثلاثة أعوام خلت وهي باقية تدور رحاها ، أو أن نسكت على كل قانون يعجل بصدوره بحجة أن الدستور آت لا ريب فيه ، وأنه كفيل بنقض ما أبرم اذا اقتضى الأمر ، وما دروا

أن ذلك مضاد للفكرة المعقولة القائلة بتمهيد الطريق للدستور ،
ذلك الطريق الذى ملى الآن حصا وشوكا ، وما دروا أنهم بذلك
ينزلون على درج من التراخى الى وهدة الاستسلام المطلق الذى
يهتد الروح الوطنية بالاضمحلال شيئا فشيئا فى نشعر إلا وقد
تلاشت نواة المعارضة الصحيحة فى النفوس الأبية المعتدلة من
الجانين .

ومن التهور المنكر أن يقوم فريق من الكتاب الخياليين الذين
زجوا بأنفسهم فى صفوف المعارضة ويتهموا لجنة الدستور بأنها
” لجنة رجعية “ وأنها تسير على النهج الذى رسمته لها السياسة
الانجلايزية ، ولو أنصفوا أنفسهم وأمتهم لكلفوا أنفسهم مؤونة
البحث والاحتكاك قليلا بأعضاء اللجنة — وهذا أول واجبات
الصحفى المرشد الأمين — وعرفوا اذا كان ” كلايشيه “ التسمية
التي أطلقوها عليهم حقا أو باطلا .

إننا لاننكر أن فى لجنة الدستور أعضاء رجعيين يؤثرون عاجل
الذات على آجلها ، ويعرضون للخطر الجسيم مصالحنا القومية الخالدة
فى سبيل مصالحهم الشخصية الضئيلة الزائلة ، ولكنهم قليلون
يعتدون على الأصابع والأمة رقية على ما يعملون .

ومما يؤسف له أن فى صفوف المعارضة أناسا يتظاهرون

بالوطنية وهم ليسوا على الدستور أقل خطرا من هؤلاء الرجعيين ،
أولئك النفر تارة يعملون على الايقاع بين لجنة الدستور وبين الأمة
بانتقادهم أشياء عرضية في النصوص لا جوهرية ، انتقادا أقرب
الى التضليل بالرأى العام منه الى الحقيقة ، وتارة يريدون الايقاع
بين اللجنة وجلالة الملك بحجة أن الدستور في بعض المواطن يفتات
على حقوقه كأن سيادة الأمة التي على رأسها الملك تتعارض مع حقوق
جلالته ، أو كأن جلالته تجهل أنه كلما عظمت سيادة الأمة التي
يمثلها وتحققت عظمت هي في أعين شعبها وفي أعين الأجانب .

دعونا يا قوم من الشخصيات واتقوا الله في بلدكم فان الوطنية
الحقة تقضى علينا أن نجعل الدستور يترسليا وسط العاصفة التي
أثارها أهوائنا الحزبية ، فان في جميع البلاد الغربية تشتجر الأحزاب
وتتنازع على الوسائل وتتطاحن ، ولكنها وسط الجلبة والضوضاء
والصراحة المطلقة قد تكتم أمورا دقيقة ترى في إذاعتها أو في وضعها
هدفا للجدل والمناقشة إضرار بالصالح العام .

وخطة الرأى العام هذه في هاتيك البلاد هي خير دليل على
وجود روح النظام في الرأى العام ، فما أحوجنا الى هذه الروح
وما أحوج هذا البلد الى المرشدين الأمناء .

الأهرام في ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢

الذكريات

للحياة غاية لا بد أن تنتهي إليها ، فما أقصرها وان شئت فقل
إنها وجود في حكم العدم ، على أننا اذا نظرنا الى مسافة العمر التي
قطعناها ، بمنظار "الذاكرة الحساسة" التي هي القلب ، راعنا طولها
وقلنا ما أطول الحياة !

وكأنني بها تزداد طولاً على مر المدى ، ذلك بأن الأيام والليالي
عند مرورها يخيّل إلينا أنها على وتيرة واحدة ، حتى اذا ولت
وتقادت قليلاً ظهر كل يوم منها ، في مرآة الذاكرة ، في صورة
مختلفة عن صورة اليوم الآخر ، وأوجد هذا الاختلاف مسافة بين
اليوم وأخيه فتعددت المسافات ، وأصبحت الساعة يوماً ، واليوم
شهراً ، والشهر عاماً .

ذلك بأن لكل إنسان في الواقع ، في اليوم الواحد ، حالة بل
حالات نفسية خاصة تتأثر بمظاهر الحياة الخارجية التي تتبدل
تبدل أوقات النهار دون أن نحس بها ، ثم تتكوّن من مجموع هذه
الحالات صورة شخصية يومية للإنسان تختلف عن صورة الغد ،
ولهذا السبب نظن أننا اليوم غيرنا بالأمس ، وأننا في هذا العام غيرنا

في العام الماضي ، وأنا أصبحنا غرباء عن أشخاصنا السابقين رغمًا من قرب العهد .

وقد يزداد هذا الاختلاف والتباين اذا حدثت حوادث كبرى كالحروب والثورات لأنها توجد انقلابا في مظاهر الحياة الخارجية يؤثر في النفس ، ولذلك ترى الأوروبي الذي عاش الحرب وعانها يتخيل اليه أنه قد مضى على سنة ١٩١٣ ، سنة السلم ، قرن كامل ، وترى المصري بعد الثورة غيره قبلها ، وكأن هناك شخصين مختلفين .

ومما يساعد على إطالة مسافة الماضي شدة حساسية الذاكرة اذا كانت متصلة بالقلب ، وكثرة الذكريات المؤلمة ، وليت شعري من منا لا يذكر في مختلف الجهات التي قضى فيها طفولته أوصياه وشبابه الأماكن التي ولع بها صغيرا فلا يحن اليها !

كم من رفيق صحبناه ساعة أو بعض ساعة صحبة المسافر ، ثم ودعناه على أمل التلاقى ولما نلتق ، ونحن في هذه الدنيا بين مشرق ومغرب .

أني مضى أولئك الصاحب الذين التقينا بهم في طريق الحياة ، كما يلتقي الراكب بالراكب ، ورأينا وجوههم السمحاء ، ثم افترقت أسباب

دنياهم من أسباب دنيانا فأصبحوا لنا أمواتا وهم على قيد الحياة ،
أولئك نحزن لهم لأننا فقدناهم .

وإني لأذكر صديقا كان زميل دراستي في باريس ، وكان
خير مؤنس لي في وحشتها فان باريس للناسظر المدقق ، كما وصفها
روسو ، "صحراء من الرجال" ، وكانت على ذكاء عظيم ، شديد
الفطنة ، قوى الملاحظة ، كثير المطالعة والتأمل في وجود الرجال ،
لا تفارق شفتيه ابتسامة ، ولا يعرف الحزن الى قلبه سبيلا .

دار الفلك دورته وأصيب هذا الصديق بداء عضال في عقله
فعاد الى قريته في مصر ثم مات ولم نمتع به كثيرا .

فما انضر ذلك العيش الذي هوى في قمرارة الزمن وأقسم أن
لا يؤوب !

وما أكثر المذكريات المؤلمات !

وما أكثر الأصدقاء الذين نفجع بفقدهم أحياء وأمواتا .

السياسة في ١٠ يناير سنة ١٩٢٣

إسماعيل صبرى

بالامس دفنك يا إسماعيل وودعنا صافى العيش فيما ودّعنا،
ولكنى ما زلت الى الساعة يعرفونى الدهول لفقدك، ولا أكاد أصدق
ما رأيته عيني لما أودعوك الرمس وسقوا عليك !

ولقد صدق لاروشفوكو "شيئان لا يمكن للانسان أن يحدق
فيهما ببصره : الشمس والموت" ولكنى أعجب لموتك، ولو لم تمت
بعلة لسألت بأى علة، وأعلم علم اليقين أن الموت قد حصده
الملايين من بنى الانسان، وجندلهم، وبذل الديارديارا، ولكنى
لا أكاد أصدق أنك كنت أمس، حين أسلموك الى القبر، تحت
الأرض وكنت عليها، وأن شبرا واحدا من التراب حال بيننا وبينك،
فما أبعد شقتك، وما أشد وحشتنا !

وما أنس لا أنس تلك الشجرات التى صادفناها فى طريق
جنازتك، وكانت تنثر علينا ظلالا ليتمها كانت تقينا لفحات الحياة
ولذعات الجوى، وما أنس لا أنس ذلك الرجل الذى أقبل نحوى
ونحن وقوف على حافة القبر، وفى يده كسرة من فص خاتم اسماعيل

وهو يقول "تلك ذكرى"، ولكن من ذا الذى يحصى الذكريات
التي تركتها فى قلوب الباكين والباقيات عليك ! لقد كان فى كل
حركة منك وكل سكنة ألف ذكرى بل ألف حياة ، ففي ذمة الله
يا اسماعيل .

أعرف صبرى من ثلاثة عشر عاما ، وكنت أغشى مجلسه كثيرا
وأتردد عليه ، وكانت بيننا صلة الابن بالأب البار والتلميذ بأستاذه ،
وكان يفيض علينا أدبا وفضلا ومكارم أخلاق ، وكان حلو السمر
عذب الحديث .

ما كنت أدري أطعم عافيتى أعذب أم طعم ذلك السمر
ولعل السر فى ذلك هو أن صبرى كان فى حياته ، كما كان
فى شعره فنا ، وكما مرة استرعى نظره فى الطريق منظر رائع من
تلك المناظر الدقيقة التي لا يلتفت إليها أحد فوقف واستوقف يتمتع
منها ناظريه ، حتى أن المرء ليتساءل أيهما كان أشعر الرجل فى حياته
أم الشاعر فى شعره ؟

كان صبرى باشا يحب النور والجمال ، وكان يحب من أجلهما
الحياة ويقف منها موقف المتعبد ، وكان كثيرا ما يذكر الموت
وينحشاه ، لا جبنًا ولا فرقا ، بل حبا فى الحياة والنور والجمال ، ولقد
بلغ من كراهيته للموت أن أصبح يتمناه فقال :

يا موت خذ ما أبقت الـ . أيام والساعات منى
بينى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

وقد نغص عليه داء القلب آخر سنى حياته وكان يتعسر عليه
الفهم وهو يقرأ كتابا أو صحيفة سيارة، ويتعب من القراءة إذا أطل،
ورغما من ذلك فقد كنت أرى له أحيانا وهو يتحدثنا عن الحركة
الوطنية ورجائها حكما كالبرق الخاطف من ذكائه يلوح ثم ينطفئ.

أما شعر صبرى فهو كحياته سمر المسافر، وأنس المقيم، وكما
كان فى حياته يمل سماع الموسيقى طويلا كان فى شعره يكره
القصائد الطوال، وينظم المقاطيع الرائعة، والبيت والبيتين، وهو
فنان يفضل نحت الدمية الجميلة على تشييد هرم جليل.

من منا لا يذكر قوله مخاطبا القلب :

سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصبا بآفة خفق وحدك الآن

وقوله فى ساعة الوداع :

ساعة الين قطعة أنت قدت للحيين من عذاب السعير

وقوله فى لقاء الحبيب :

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجين فاضا لوعة وعتابا

كأن صديقا فى خلال صديقه تسرب أثناء العناق وغابا

وقوله فى شجرة :

عار عليك وهذا الظل منتشر فتك الهجير بجسمى فى نواحيك
فمن معيرى جناحى طائر غرد كى أقطع العمر شدوا فى أعاليك

وقوله :

يا آسى الحى هل قشت فى كبدى
وهل تينيت داء فى زواياها
أواه من حرق أودت بمعظمها
ولم تزل تتشى فى بقاياها
ياشوق رقفا بأضلاع عصفت بها
فالقلب يخفق ذعرا فى حناياها
وقوله :

إذا ما صديق عفى بعداوة وفوقت يوما فى مقماتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فأنثيت ولم أرم

تلك أبيات سارت مسير الشمس فى كل بلدة وناد ، وقد
وضع صبرى باشا أغانى كثيرة هى أرقى ما نظم من نوعها ، وهو
فى مجموعته شاعر نسيج وحده انفرد بين الشعراء القدماء والمحدثين
بطراز من الشعر المسمى (Lyrique) وهو شعر يطير بجناحين

في فضاء الطبيعة والخيال ، ويسمو بالعاطفة والوجدان الى أبعد غاية ، وكانوا يتغنون به قديما .

سألته مرة أيهما يفضل الشعر العربي أم الشعر الافرنجى ؟
فقال قد يكون الشعر الافرنجى أغنى من الشعر العربى ولكن العربى
فاق الافرنجى بالبيت والبيتين .

وكان يفضل البحترى على جميع الشعراء وهذا يدل على حاسته
الفنية فان أسلوب البحترى أنقى الأساليب وأكثرها دقة وطلاوة .
هذه كلمة صغيرة نقومها اليوم عن الفقيد الراحل الذى كان
شعره وحياته مؤلفين ائتلاف الزهر والخضرة فى الروض النضير .
رحمة الله عليك يا اسماعيل ، وألهم الله مصر العزاء على أبر بنائها .

السياسة فى ٢٢ مارس سنة ١٩٢٣

خاطر في العيد

يوم شم النسيم

أحب من الركب المصري أن يقف هنيئة يستنشق فيها نسيم
الحياة وطيب روائحها، وأحب من الطبيعة أن تهش وتبسم في وجوه
أطفالها الباكين الذين لا يرقأ لهم دمع بين خريف مائها وحفيف
شجرها، بين نحرها وصدرها .

وأحب من قومي في هذا اليوم أن ينسوا ما أصاب الوطن
من جروح وأن يخرجوا من منازلهم صفارا وكبارا الى المروج الخضراء
التي يجتال بينها النيل في حلة من سندس، وأن يعقد الآباء أبناءهم
”فتح الأعين“ والنظر الى مظاهر الجمال دقيقة وجليلة، في تلك
الأرض المصرية التي قيل أنها جنة الله في أرضه، ولكن قل من
يعنى بتأمل غضايرتها ونضرتها وإدراك سر هذا الجمال .

وقد نشأ عن ذلك الملل من الطبيعة في مصر لأن حبها ظل
مبهما في فؤاد الرجل منذ نعومة أظفاره فأصبح ينظر اليها كما ينظر
الفلاح الى حقلة صباح مساء، اذا سأله عن ذلك قال : إن

الطبيعة سهل أخضر يجري فيه النيل وانها على وتيرة واحدة، ولو أنه
عقد نفسه النظر اليها اوقف منها موقف الذى يقول :
يزيدك وجهه حسنا اذا ما زدته نظرا
أو الذى يقول :

لأمرحت نواظرى فى ذلك الوجه النضير
ولآ كانك بالمنى ولأشربك بالضمير

أجل، إن الانسان يجب أبدا الأرض التى درج فى ثراها
ويحن إليها اذا فارقها، ولكن حبه يقوى بمقدار تفهه جمال مساح
الطفولة والشباب ومنازل الذكري التى تنطبع فى فؤاده فتساعد على
تذكر الماضى وغرس عاطفة الوطنية وتعهدها .

ولا ريب أن هذه الذكريات اذا تحركت عند شعب بأسره
أخرجت من الأرض صورة الوطن الحى فانتفض الجميع تحت
لوائه خفافا .

وما أخرجنا اليوم إلى الوقوف ساعة فى ظل الطبيعة، علنا نجد
فى جمالها معينا لنا على البأساء، فقد مضى زمن اللهو وجد جتنا
وأصبحنا نطالب الراحة قليلا فى ذلك الطريق الوعر المتروك منها
قوة نصل بها إلى الراحة الكبرى، ولكن أئى هذه الراحة، وأئى
الشعوب السعداء ؟ .

مثل الشعب المستعبد الذي يستسلم للهوان مثل الجاهل الذي
ينعم في الشقاوة فاذا استيقظ وفهم معنى الحياة كتب الشقاء عليه
وكان نعيمه حلما في الكرى أو خلسة المختلس .

فاولي بمن اشتد ساعده ، ودخل ميدان الكنفاح ، أن يوطن
النفس على احتمال الأذى ، وأن يستعين بحب الجمال على مقارعة
كتائب الحوادث أبد الدهر .

واذا كنا اليوم نحى ذلك العيد فانما نحى الراحة بين الجهد والعمل ،
نحى الورد والرياحين ، نحى مهد النور والجمال ، نحى أرضك يا مصر .

السياسة في ١٠ أبريل سنة ١٩٢٣

خطرات فى الطريق

١

الآلام

كان بعض القدماء ينهون عن ركوب البحر الذى لا يسلم راكبه
من الأخطار ولكننا فى عصر أصبح يحلوفيه تبجشم الأسفار وصار
الخطر كل الخطر فى القعود عن ركوب الشدائد .

كان لى الشرف فى طريقى الى باريس باصطحاب عالمين
من أعلام النهضة المصرية فى أجلى مظاهرها أولها أمير الشعراء
أحمد شوقى بك والثانى الزعيم المحنك محمد بك حافظ رمضان رئيس
الحزب الوطنى فتجاذبنا أطراف الحديث .

وبينما كان الثانى يفكر فى خير الوسائل التى تحل المسألة المصرية
حلا عاجلا يتناخص فى الجلاء ومداواة الجروح التى تسيل فى جسم
الوطن ، كان الأول يصف الألم ويقول "كبر الألم بطولية" ويقول
"من لم يتألم لم يتعلم" ويقول "الألم صاحب قديم وثالث اثنين

هبطا الأديم “ ويقول ” الآلام جراح شتى الأغوار ، كنه يدرك بالصبر وكنه يترك للقبر “ .

ثم جرى ذكر الألم فذكرت قول رينان وهو على فراش الموت وقد زاره القسيس ” لا برين “ وسأله : ” ألا تعتقد في إمكان وجود قانون حب ووفاء في هذا العالم بجانب قانون الضرورة ؟ “ فأجاب رينان من فوره : ” إنني أتمثل الطبيعة عادة حسناء متجملة بأحسن الثياب وأنفخها ، ولكنها تمشي معرضة ، بينما يسحق ذيل ثوبها النمل التي لا تبصرها ، وما أنا إلا إحدى هذه النمل وسأسحق “ .

تلك الكلمات المحزنة التي تشف عن ألم دفين قالها رجل كد وجد وترك بعده آثارا خالدة وكان من المتشائمين الأقوياء . وقد تجلى هذا الشعور في صورة مذهب عند بعض الشعراء الفرنسيين وعلى رأسهم ” ألفريد دي فيني “ الذي قال : ” أحب جلالة الآلام الانسانية “ فإن هذا الشاعر أجاد تصوير ذلك الشعور الذي يجمع بين القوة والألم في ست أو سبع قصائد جعلته على قتلها من الشعراء المعدودين .

ولهذا الشاعر قصيدة في الذئب من خير ما قاله : في هذه القصيدة تكلم فيني عن رجل ذهب للصيد فصادفه الذئب وشمله فقتل الشم ، عندئذ وقف الذئب جريحا لا يتكلم وهو يودع الحياة فقال

الشاعر عن لسانه يخاطب الانسان : ” أسلك بعزيمة صادقة وجلد ذلك الطريق الطويل الوعر الذى دعاك فيه القدر ، ودع البكاء والعويل ، ثم تألم كما تألمت ومت صامتا “ .

وهذه القطعة درس من دروس الشجاعة المقرونة بالألم يلقيه الحيوان على الانسان ، وهى من خير ما يحفظه الشبان الفرنسيون لأنها تبعث الهممة وتشد العزيمة وتحصن الخلق فتمنعه أن ينهار من صدمات الشك واليأس .

ولم يكن هذا الشاعر كالذين سبقوه ممن يجدون عزاء وسلوى فى الطبيعة التى يخاطبها بقوله ” انهم يسمونك أما وما أنت إلا قبر “ فلم يخذعه زخرفها وكان كل عزائه فى قوته ، على أن كراهيته للجتمع لم تكن لتحول دون حبه للانسانية التى تربطه بها أواصر من لحم ودم ، وكانت نفسه كنفوس المعترى تفيض عليها رقة وحنانا ، وكأنهما قالا معا هذا البيت :

فلا هطلت على ولا بأرضى سحاب ليس تنتظم البلادا

ومن غريب المصادفات اننا ما كدنا نصل الى مرسيليا حتى لقمينا حضرة على بك الشمسى فنحنى الينا المرحوم سعيد بك زغول فأسفنا على تلك الخلال الغر التى انطوت وتلك البشاشة التى ذوت

وبكىنا فيه الوداعة واللين ، والأدب الجرم ، والعقل الراجح ، والخلق
العالى الذى أبى له أن يعلن عن نفسه حياء وكبرا

وان مصر لتشيع فيه أحد أبنائها البررة الذين كانوا زين
الشباب ، وتألم لفقده ألم الشكى فقدت واحدها ، وكم بجمعت مصر
في بنيتها ، وكم بجمعت مصر في آمالها وهى تمتد يدا لاجتناء الثمر فتسبقها
اليه يد الموت الخفية .

ولكن عزاء بنى مصر عزاء ، فما أفلجت الشموخ والأفراد
دون أن يكون لها الألم مهذبا ومربيا فالألم صيقل النفوس يجلوها
ويصفىها من كدرة الضعف والخور .

وهل تجلت الروح المصرية وظهرت قدرتها إلا في الألم ، وهل
ثبت وجود الروح القومية إلا في الثورة ، فانه رغما من أن نماذجنا
في الثورات والحركات كانت كلها أجنبية لم نلجأ الى التقاليد
وظهرت حركتنا في ألوان مصرية بحتة يعبر عنها أدباء الافرنج
”بالألوان المحلية“ ، وإلا فليقولوا لنا أى حركة في التاريخ قامت
فيها المظاهرات في هذه الصورة المهيبة التى يخفق فوقها جلال
الموت ، صورة جنازات ضحايا الحرية ؟ أى حركة ظهرت فيها
المقاومة السلبية في صورة افعال في النفوس من المقاطعة التى قام بها

شعب بأسره ، ولم يتمكن الخصم بخيله ورجله وحيلته من إحداث
ثلمة واحدة في تلك الكتلة العريضة المتأسكة ؟

ألم تكن النكتة ، التي هي من مشخصات الروح المصرية ،
علامة الخفة والنزق والسرور قبل الحرب والثورة ؟ وهى اليوم
تفرج كرب أخى البأساء وتبسم عن مرارة العيش ، وهى ستر يخادع
به المصرى عن نفسه المحزونة المضناة التى تعيش فى جقو الحقائق
السياسية بعد أن كانت هادئة مطمئنة .

ليفهم الجيل الحاضر أن شعاره الوحيد يجب أن يكون التضحية
فإننا جسر تسير عليه مصريين الماضى والمستقبل .

نحن جيل معذب ، وما أشبهنا بالجيل الفرنسى الذى أعقب
الثورة وحروب نابليون فقد عرف ذلك الجيل ما أطلق عليه
الكتاب "مرض العصر" وهو نوع من الحزن والكآبة يظهر على
النفوس القلقة التى ورثت عن الماضى القريب كل ما يبعث الألم ،
وأجاد كتاب العصر تصوير ذلك الداء وتشخيصه .

فلنوطن النفس على احتمال الآلام ، فالآلام مدرسة الحياة ،
وهى ميدان كفاح لا يخرج منه بالغبلة إلا القوى .

٢

بلاغة العرب

قلت لأمير الشعر، والحديث شجون، أن خير ما قرأته في العزاء
 كتابا أرسله أحد أصدقاء شيشرون يعزيه في فقد ابنته : "خطرت
 لي فكرة وجدت فيها عزاء ولعلها تخفف من لوعتك . بينما كنت
 اتجه بسفينتي من جزيرة إيبيينه الى مدينة ميجار حانت مني التفاتة
 الى البلاد حولي ، كانت ميجار أمامي وإيبيينه ورأى ، والبيري على
 يميني ، وقورنشة على شمالي ، مدائن كانت قديما زاهرة زاهية
 فعفت ولم يبق إلا رسمها وأنقاض مبعثرة فمعتجت حيال هذا المنظر
 كيف نجرؤ ، نحن الهالكين الضعفاء ، على الشكوى كلما انتزع
 الموت واحدا من أهلنا وذوينا ، بينما نرى في طرفة عين كبريات
 المدائن صرعى هامدة ، وكانت عامرة أهلة بالسكان ثم أضحت
 خلاء ... فتعز عن فقد ابنتك بفقد هاتيك المدائن والناس " .

أعجب شوقي بهذا الخيال الرائع ولكنه قال من فوره إن
 العرب قالت أبلغ من ذلك : سأل أعرابي اعرابيا فقد ابنه
 "أكان يغيب كثيرا" قال نعم ! قال : "اتركه غائبا" فهل

رأيت أيها القارئ تعبيرا أبلغ من ذلك في أداء المعنى مع السلاسة والوضوح والإيجاز .

يدرس الآن في جامعات أوروبا ما يسمى بالطريقة العلمية التاريخية ، وهي تختص في تحليل الوثائق والنصوص وسرد الوقائع مع الإيجاز والوضوح ، ولأجل تعرف هذه الطريقة والتمكن منها يدرّب الطلبة على إيجاز الرسائل وجلال الحوادث في صحائف معدودة وافية بالغرض ، وشيخ هذه الطريقة الأستاذ سنيو بوس المعلم الأول في السربون .

ولكن العرب لم يتعلموا هذه الطريقة بل كانوا يحرون عليها بفطرتهم ، وهل الإيجاز إلا لباب الفصاحة والبيان ؟ وهل نسينا بلاغة القرآن وفصاحة العرب الذين بلغوا بالبديهة ما لم يبلغه غيرهم بالكد وإجهاد القريحة ؟

وصف عبد الله الجمار أبا نواس فقال : " كان أطرف الناس منطقاً وأغزرهم أدبا وأقدرهم على الكلام وأسرعهم جواباً وأكثرهم حياءً وكان أبيض اللون جميل الوجه ملبس النغمة والاشارة ملتف الأعضاء بين الطويل والقصير مسنون الوجه قائم الأنف حسن العينين والمضحك حلو الصورة لطيف الكف والأطراف وكان فصيح اللسان جيد البيان عذب الألفاظ حلو الشمائل كثير النوادر

وأعلم الناس كيف تكلمت العرب راوية للأشعار علامة بالأخبار
كأن كلامه شعر موزون .

فهل رأيت وصفا أدق من هذا المنشور الذي يصور لك شاعرنا
من جميع الوجوه في كلام رائع؟ كان عمرو بن حمر ملك كندة،
وهو جد أمري القيس، أراد أن يتزوج ابنة عوف بن محلم الشيباني
فوجه إليها امرأة يقال لها عصام لتنظر إليها وتمتحن ما بلغه عنها
فلما عادت أقبلت إلى الحرث فقال: أخبريني، قالت "رأيت جبهة
كالمرآة الصقيلة يزينها شـ" رحالك كأذ ناب الخيل المتصورة،
إن أرسلته خلته السلاسل، وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلاها
الوابل، ومع ذلك حاجبان كأنهما خطا بقلم، وسودا بحم، قد تقوسا
على مثل عين العبرة، التي لم يرعها قانص ولم يذعرها قسورة،
بينهما أنف كحد السيف المصقول، لم يخنس به قصر ولم يعض به
طول، حفت به وجتان كالأرجوان، في بياض محض كالجمان،
شق فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم، فيه ثايبا غير ذوات أشمر، وأسنان
تعد كالدر، وريق كالنمر له نشر الروض بالسحر، يتقلب فيه لسان،
ذو فصاحة وبيان، يزينه عقل وافر، وجواب حاضر، يلتقي بينهما
شفتان حمراوان كالورد، يجلبان ريقا كالشهد، تحت ذلك عنق
كابريق الفضة، ركب في صدر تمثال دمية، يتصل به عضدان،

ممثلتان لحما ، مكتنزان شحما ، وذراعان ليس فيهما عظم يحس ، ولا عرق يحس ، ركبت فيهما كفان ، ريق قصبهما ، لين عصبهما ، تعقد إن شئت بينهما الأنامل . وقد تربع في صدرها حقان ، كأنهما رمانتان ، من تحت ذلك بطن طوى كطى القباطى المدبجة ، كسى عكنا كالتراطيس المدرجة ، تحيط تلك العكن بسرة كدهن العاج المجلو ، خلف ذلك ظهر كالجسدول ينتهى الى خصر لولا رحمة الله لا ينزل ، تحته كفل يبعدها اذا نهضت ، وينفضها اذا قعدت ، كأنه دعص رمل لبده سقوط الطل ، يحمله نخذان لفواوان كأنهما نضيد الجمان ، تحملهما ساقان خدبلحان كالبردى ، وشيتا بشعر أسود ، كأنه حاق الزرد ، ويحمل ذلك قدمان ، كخذو اللسان ، تبارك الله مع صغريهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما .

حسب هذه القطعة أنها دليل على حب الجمال والفن عند العرب ، وهى لا تقل فى دقتها وروعتهما عن تمثال أبدعه صانعه أو لوحة مصورة ، وما على القارئ - وهذا مثل واحد نضربه - إلا أن يتأمل فى وصف القدمين : ” ويحمل ذلك قدمان ، كخذو اللسان ، تبارك الله مع صغريهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما ” فانى لا أعرف لذلك نظيرا إلا قول فكتور هييجو : ” كانت تسير الى جانبي وقدمها الفتاة تسخر بصغريها من الأقدار وتضحك بجوار قدمي ! ” .

Et de sa petitesse étalant l'ironie
Son pied charmant semblait rire à côté du mien.

فأخلق بنا أن نرجع بلغتنا الى ذلك النبع الصافى الأول وأن
ننبذ البديع والتكلف والأطناب وما شاكلها من ضروب البلاغة
الكاذبة التى جاء بها أئمة الكتاب فى العصور المتأخرة .

ويمحسن بنا أن نرجع الى الأغاني قبل أن نرجع الى الجاحظ
أو الهمزاني ، وأن نفتش عن كنوز اللغة والأدب فى صهاريج العرب .

الاهرام فى ٢٧ يوليه سنة ١٩٢٣

القديم والجديد

سیدی صاحب لیالی رمضان

وضعتنی فی زمرة أنصار الجدید وليس لی أن أنقض حکمک
وقلمک نیم عن أدب جم . وإنی مع احترامی للقدیم وأنصاره
أستأذنک فی تحدید معنی القدیم والجدید حتی یکون القارئ
على بئنة .

القدیم درجات والجدید درجات ، ولكل منهما أنصار یختلفون
أذواقا ، ولكن ليس من الیسیر أن نفضل بینهم ونجعل منهم
طبقات تحمل ألویة مختلفة .

وأعرف للقدیم أنصارا كالسید المرصفی وغيره لا یحسون بجمال
غیر جمال الشعر العربی القدیم ، فاذا ذكرت لهم شعر العباسیین
والمحدثین لم یطربوا له ، وكأنک تنادی منهم صخرة لا تحركها الأذارید .
وأعرف للجدید أنصارا كالریحانی وغيره من أصحاب
”الفلسفات“ و”الطیارات“ نتجلی العجمة والركاکة فی أسالیبهم
التي تشف عن سقم الخیال والمعانی وهی ماثلة كالمیکل العظمی .
إن کان هذا ما یقصد بالقدیم والجدید فلیست من أنصارهما .

وإن كان المقصود بالقديم أن نرجع بالشعر والكتابة الى عصر الجاهلية، وأن تكون أغراضنا في الأدب أغراض القدماء، نبكى على الدمن والأثافي، ونستوقف الركب، ونمدح ونهجو، ونشكو الزمان فليست من أنصار القديم، ذلك لأن لكل عصر أغراضا وأساليب يتجلى فيها طابع العصر، وقد تشابه العصور في جوهرها، وكيف لا تشابه والانسانية لم تتغير، وما زال الكاتب والمصور والمثال يشدون المثل الأعلى للحقيقة والجمال .

ولكن قبل البحث عن هذا المثل الأعلى لا بد أن يرجع الكاتب أو الشاعر في طور التكوين — وقد كان هذا رأى البارودى رحمه الله — الى القديم يقتله بحثا ثم يهت بعد ذلك من صخره دميمة ساحرة .

وفي القديم من الشعر والكتابة آيات قد لا يجود بمثالها الدهر، وهل هناك شعر غنائى أصفى جوهر أو أقل كلفة وأعملا من الشعر القديم الذى كان يرتجله الأعرابى من قوره حرا طليقا في فضاء حر طليق فتتحرك له أوتار القلوب وتهتزله القبائل طربا .

أما الكتابة فن شاء فيرجع الى الأغاني أو العقد الفريد أو زهر الآداب ليرى كيف كانت بلاغة العرب الأولين فريدة في إيجازها ودقة التصوير، وحسن الانسجام، خالية من البديع والتكلف

والاطناب التي أفسدت اللغة في العصور المتأخرة مع أن الإيجاز
أول أغراض الكتابة في البلدان الراقية وبه يمتاز كبار المؤرخين
الحديثين وتفاوت أقدارهم .

فلنرجع إذن باللغة الى ذلك النبع الأول ، ولن يمنعنا ذلك
من انتقاء اللفظ الذي يلائم العصر ويمر في سلك الكلام لا نافرا
ولا حوشيا .

قلنا إن القديم والحديد قد يتفقان جوهرًا ، ولكن لكل عصر
شخصيته ، وكل شخصية تحمل في طياتها القديم والحديث ، وهؤلاء
شكسبير وموليير وجوت قد سمو سموًا واحدًا في تصوير المجتمع
رغمًا من اختلاف العصور والبلدان ، ولكنك إذا نظرت الى كل
منهم على حدة ، وفصلته تفصيلًا ، تجلت لك الرابطة القوية التي
بينهم وبين الجيل الذي عاصروه ، ورأيت في تصويرهم أشخاصًا
عاشوا معهم ولكنهم أحياء في كل جيل رسمتهم ريشة مصر ماهر
فأبدع في صنعته تلك الوجوه التي تعرف فيها الانسانية جمعاء .

وهؤلاء شوقي والبهتري والمتنبى يسمون سموًا واحدًا في تصوير
العواطف البشرية ، ولكنهم يختلفون في أساليبهم ومناحيهم لأن
كلا منهم يختلف عن الآخر في البيئة والوسط ، وهل يصلح اليوم
أسلوب شكسبير ، ومديح البهتري ، أو هجاء المتنبى ؟

على أن الأديب الناقد يرى في كل شاعر عظيم صورة من صور الجمال ان لم تمل نفسه اليها فليس أقل من أن يوفيهما حقها إجلالا ، وقد أخطأ من قال : ” هل غادر الشعراء من متردم “ فان الذكاء البشرى لا ينفد وان تباينت أشكاله بتباين الأزمنة والأفراد والجماعات .

ولو أمكن طائفة من الناس أو أمة من الأمم الاستئثار بالذكاء والتفرد بالنبوغ في جميع أطوار حياتها لاختل نظام هذا العالم ، وما أصدق البعثرى الذى يقول :

لولا التباين فى الطبائع لم يقم . . . بنيان هذا العالم المحببول

فلكل فرد ، ولكل أمة ، ولكل جيل شخصية يجب أن تظهر فى أعماله وآثاره . ولكل فرد ، ولكل أمة ، ولكل جيل مثل أعلى فى الحياة .

وقد نتجلى الشخصية فى التجديد الحر الذى يتلاءم مع الذوق السليم .

ويحسن بكل أديب منّا فى حياته الأولى أن يدرس الأدب العربى القديم والأدب الغربى الحديث درساً وافياً يهذب ذوقه ويهيئه للابتكار والتجديد .

وقد قطع بعض المعاصرين من أئمة البيان شوطا بعيدا في هذه السبيل ولكننا ما زلنا بعيدين من الغاية .

فلنجدد فان في ذكائنا، وفي لغتنا وآدابنا، وفي أرضنا كنوزا دفينية لم تهتد العبقرية اليها فتخرجها لنا سبائك من الذهب المصفى .
ولنجدد فان في التجديد مظهرا من مظاهر الشخصية القوية ومعنى من معانى الحياة .

السياسة في ١٦ أبريل سنة ١٩٢٥

الى أى طريق نحن مسوقون

مهزلة فى مآثم

وهل يقيم المآثم إلا الرجل الحزبينا نرى بأعيننا المهزلة القائمة فى مصر بلد العجائب ، كما يقول هيرودوت ، وبلد المضحكات كما يقول المتنبي ، ولكنه ضحك كالبكا ، حالة تملأ النفس أسى فلقد أصبحنا نشاهد كل يوم وفى كل آونة ممثلا جديدا ، وفصلا جديدا ، وشاهدا جديدا ، وبين هذا وذاك المصنفق المأجور .

وقد يظهر هذا الممثل تارة فى صورة سياسى ، وتارة فى صورة أديب ، وتارة فى صورة صحفى . ولكل منهم من الأثواب المستعارة ما لا عدد له ، ضاحك لعوب والبلاد فى محنة .

ولقد يدور الانسان بعينه فى هذا السواد الأعظم فلا يرى إلا الفوضى السياسية والخلقية والعلمية ضاربة أطنايها فى جميع مظاهر الحياة .

ولست أريد أن أتعرض للسياسة إلا من الوجهة الاجتماعية البحتة ، فقد تقلبت على مصر المحن فى هذا العصر الأخير ، ورأت فيه على قصره العجب العجيب ، ولو طلب الى مؤرخ أن يصف حكومتنا

في الطور الذي أعقب ثورة سنة ١٩٠٤، وان يجتد بالدقة شكلها ونوعها كما يجتده الواقع لحار في أحمره، فقد خضعت في وقت من الأوقات لحكم الدكتاتورية المستترة أو غير المستترة، وخضعت لحكم الأقلية، وخضعت لحكم الأكثرية، وقد كان هذا الحكم في بعض الأحيان أقرب الى الديمقراطية منه الى الديمقراطية، واتفق أن اجتمعت هذه الأشكال في وقت واحد في حكومة واحدة، وكانت هذه القوى المتجاذبة حول الدستور كالوصى الذي يأكل مال اليتيم، أناس يهزلون وخلف الستار يجمد المجد .

هذه المهزلة السياسية يمثلها السياسى المصرى، وإذا كانت الرجال توزن بأعمالها، والأعمال بنتائجها، فقد عرفنا الدور الذى لعبه ذلك اللاعب، وعرفنا كيف يضجى بمصالح بلاده في سبيل المصاحبة الخاصة، وكيف يثبت على مبدئه، ويتنقل من حزب الى حزب ويابس لكل حالة لبوسها .



وللأدب مهزلة وأى مهزلة : كل من ترجم كتابا في التاريخ صار مؤرخا، وكل من ترجم كتابا في الفلسفة صار فيلسوفا، وكل من كتب كتابا في الأدب صار أديبا عالما، وقد يرجع ذلك الى أن الموازين والمقاييس التى توزن بها أعمال الرجال قد خضعت

فى مصر للأهواء فانتقلت وسط المهزلة ، و يظهر أن نفسية الشعوب — وبالأخص الشعب المصرى — طفلة سريعة التأثر والتحول من الضدة الى الضدة ، وهذا ما جعل كثيرين من كتابنا لا يعبأون بالرأى العام ولا يحسبون له حسابا .

ولكن الذى نأسف له أن الكتاب أنفسهم ورجال السياسة يتأثرون بما يكال لهم من مديح — او غربلة كان ملقا — ويتوهمون أنهم بلغوا علوا مراتب الأنبياء فيتمهون فى الأرض صلفا .

والواقع أن الخبيرين بالكتابة والبحث والشروط العلمية التى يجب أن تتوافر فيها ثلاثة أو أربعة ، على الأكثر فى مصر ، وقد ألف بعض كتابنا المعدادين رسائل وكتبا مختلفة فى مواضيع شتى أعجب بها الجمهور والأدباء ، ولكنك لو نظرت اليها من وجهة البحث العلمى ألفيتها جوفاء مزوقة ، ذلك أننا لم نتعود عناء البحث والغوص على اللباب ، وقل أن تجد فى مصر من فى مقدوره الحكم على كتاب حكما صحيحا ، والتميز فى الأدب بين الكتاب السطحى والكتاب العلمى .

فأخلق بمن يتصدون للأدب أن يعلموا أنه فن صعب وطويل سلمه ، فلقد صار كل من يستظهر شيئا من المنشور والمنظوم زينة المجالس وأديبا يشار اليه بالبنان .

ومن عجائب هذا البلد أنه لا تكاد تتألف فيه جمعية تاريخية أو أدبية حتى يحتل المكان الأول فيها أصحاب الأبهات لا الأخصائيون "أصحاب المصالح" الحقيقية فيها .

ومن عجائب هذا البلد أنك لا تجد عالما يعترف بالفضل لعالم أو أدبيا يعترف بالفضل لأديب، وإذا وجد إجماع أو شبه إجماع على الاعتراف بمنزلة رجل في العلم أو الأدب انبرى له من ينال من شرفه وكرامته بالطعن في شخصيته واختلاق الأكاذيب عليه .



والصحافة مهزلة وأية مهزلة، وحسبك أن تلقى نظرة واحدة في الصحف المصرية لترى عجبا، كلها تطن بالشتم والطعن بجميع أساليبه، فكل صحيفة تطعن في حزين أو ثلاثة وفي طوائف وأفراد لا عدد لها، وتراها ينهش بعضها بعضا .

وقل أن تجد صحفيا يدين بمبدأ فهو يتلون تلون الحرباء بين بياض نهاره وسواد ليله وهو في معظم الأحيان ، وله العذر، يضطر الى مجارة الرأي العام في كثير من آرائه وأهوائه، وهو إما يضلل بالرأي العام أو يضلل الرأي العام به طوعا أو كرها، وهو على أية حال كالخطيب والسياسي يستند الى الرأي العام في مهنته والرأي العام، كما قال لامرئين، بغى لا وفاء لها .

وليس أشد إيلا ما للنفس من إندماج بعض من لا خلاق لهم
فى زمرة الصحفيين الذين جعلوا أمناء على الأمة ومصالحها ، ولكن
قدّر لكل مهنة فى مصر أن تلاوث ، وقدّر لكل رجل عامل أو مصلح
أن لا يسلم من الأذى .

الواقع أننا هازلون وسيبدل الستار على مأساة .

الأهرام فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٥

البنون والحياة الدنيا

من أمير الشعر الى رئيس تحرير السياسة
يعزيه في فقد ابنه

الضلوع تتقد	والدموع تطرد
أيها الشجي أفق	من عناء ما تجسد
قد جرت لغايتها	عبرة لها أمد
كل مسرف جزاء	أو بكى سيقصد
والزمان سنته	في السلو يجتهد
قل لنا كلين مشى	في قواهما الكد
لم يعاف قبلكما	والد ولا ولد
الذين ميل بهم	في سفارهم بعدوا
ما علمتا أشقوا	بالرحيل أم سعدوا
ان منزلا نزلوا	لا يرد من يرد
كانا اليه غدا	ليس بالبعيد غدا



البنون هم دمننا	والحياة والورد
لا تلذ مثلهمو	مهجة ولا كبد

يستوون واحدهم	في الحنان والعدد
زينه ومصلحه	واستراحة ودد
فتنة اذا صاحوا	محنة اذا فسدوا
شاغل اذا مرضوا	فاجع اذا فقدوا
جرحهم اذا انتزعوا	لا تلمه الضمء
العزاء ليس له	آسيا ولا الجلد



قل ليكل كلبا	من ورائها رشد
لم يشب مهندها	باطل ولا فسد
قد عجبت من قلم	ثا كل وينجورد
أنت ليث معركة	وهو صارم فرد
والسيوف نخوتها	في الوطيس نتقد
أنت ناقد أرب	والأريب ينتقد
ما تقول في قدر	بعض سنه الأبد
وهو في الحياة على	كل خطوة رصد
يعثر الأنام به	ان سعاوا وان قعدوا
ينزل الرجال على	حكه وان جحدوا
القضاء معضلة	لم يحلها أحد

كلما نقضت لها عقدة بدت عقد
أتعبت معالجها واستراح معتقد

*
*
*

عالم مدبره بالبقاء منفرد
من بلى كوائمه كائناته الجدد
لا تقل به إدد ان حسنه الإدد
تلتقى نقائضه غاية وتحد
الفناء فيه يد للبقاء أو عضد
إئتلافه رشد واختلافه سدد
جاء في عمارته منصف ومضطهد
ذو الغنى خدمته كالفقير محتشد
وهو في أعمته ممن ومنطرد
والحياة حنظلة في حروفها شُهد
هيكل الشقاء له من مدامع عمد
قامت النعوش على جانبيه والوسد
عرسه ومآتمه غايتاهما نقد
(شوقي)

٢

النقد

الموضوع — عزى شوقي صديقه هيكـل فى فقد ابنه ،
وما كان الموضوع جديدا ولكن الموقف أ كسبه جلالا وروعة .
كلاهما يحمل قلبا كبيرا يفيض عاطفة وان كان يخاله الرأى معرضا
عن الدنيا وآلامها .

على أن هذه العاطفة سرعان ما تتحول الى فكرة تسمو بصاحبها
فوق هذا العالم وهمومه ، ولعل هذا منشأ الأعراض البادى على
الرجلين ، ومصدر هذه الابتسامة التى تعالوهما فيحسبها الناظر تهكما
وما هى بالتهكم ، ولكنها ابتسامة مفكر مجترب خبر الأيام وذاق حلوها
ومرها ، ونفثة مصدور .

وقد عرف الشاعر فى هذه القصيدة كيف يعزى صديقه ،
نخاطب منه الناحية «الحساسة» ناحية الفكر ، وعرف بأسلوبه
الفلسفى الرائع كيف يهون على صديقه مصابه فى ولده إزاء مصاب
بنى الدنيا ، ثم سما به على جناح الفكرة الى أعلى سماء .



هذه القصيدة في قصر بحرها واطراد رويها صورة من صور
الحياة العاجلة، وقد أثبت شوقي أنه فنان مبدع أطل أو أوجز فاذا
قال :

بسينفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيا ن تضرب
أو :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء
رأيت أهراما في جلالها وروعها .
واذا قال :

نجما وتمائل ربانها وزف البشائر ركبانها
أو :

حف كأسها الحبيب فهي فضة ذهب
أو :

الضلوع تتقد والدموع تطرد

رايت تماثيل صغرى في جمالها وفتنتها .

وهذه القصيدة الأخيرة آية من آيات أحمد شاعر الجلال
والجمال وناحت القوافي من خير مقطع .

وقد امتاز شوقي في هذه المراثية بوجه خاص ببناء موضوعه بناءً محكما وحسن تقسيمه ، ولم تكن عنايته بالمواد أقل من عنايته بالشكل .

كانت سنة العرب في أغلب الحالات قصر اهتمامهم على المطلع الذى هو باب القصيدة ، وكانوا يبنون قصائدهم بناءً صناعيا مفككا ، يستقل فيه البيت عن البيت ويرتبط فيه المديح بالنسيب ارتباطا ظاهرا فطن اليه الباحث فأهمله :

وثبا كوثب البحترى من النسيب الى المديح

ولكن شوقي يقيم قصيدته كلها على أساس من الوجدان الصادق والفكرة الواسعة العميقة التى تربط الموضوع ربطا محكما فى جزئياته وكيالاته .

قسم شوقي هذه القصيدة الى أربعة أقسام يشد بعضها بعضا :

فى القسم الأول — ويحتوى على أحد عشر بيتا — تعزية

الصديق للصديق :

الضلوع نتقد والدموع تطرد

أيها الشجى أفق من عناء ما تجد

... ..

وفي القسم الثاني تعزية الوالد للوالد :

البنون هم دمننا والحياة والورد
لا تلذ مثلهمو مهجة ولا كبذ

... ..

وفي الثالث تعزية الأديب للأديب أو تعزية الشاعر الحكيم
للكاتب الحكيم :

قل ليكل كلما من ورائها رشد
لم يشب مهذبها باطل ولا فند
قد عجبت من قلم تا كل وينبرد

... ..

ما تقول في قدر بعض سنه الأبد

... ..

وفي الرابع تعزية الانسان للانسان في فناء هذا العالم المتقلب :

عالم مدبره بالبقاء منفرد
من بلى كوائنه كائنااته الجدد

... ..

وقد أظهر الشاعر في أرق ديباجة احساس الصديق والوالد

والحكيم والرجل .



يلاحظ أن شوقي قدّم في البداية العزاء لصديقه (أيها الشجي أفق) ثم سمّت به العاطفة وأدبه العالى فقال :

قل لنا كلين مشى فى قواهما الكمد
لم يعاف قبلكما والد ولا ولد

وكأنى بالشاعر فى هذا الموقف أحس وحشة الموت فى بنى الدنيا، وقد مضت قرون نسائل الموت عنهم فلا يرد جواباً، فصاح جازعاً :

الذين مىل بهم فى سفارهم بعدوا
ما علمتما أشقوا بالرحيل أم سعدوا
ان منزلاً نزلوا لا يرد من يرد

ثم انتبه وذكر أنه فى موقف عزاء فقال :

كانا اليه غداً ليس بالبعيد غد

بهذا البيت يتهمى القسم الأول من قصيدة شوقي، وعنده تهادى النفس كما تهادى فى أعلى الرى .



استطارد شوقي فى القسم الثانى الى ذكر البنين والعاطفة الأبوية التى تحوطهم، ولعل أحسن تصوير لهذه العاطفة قول الأعرابى

وإنما أولادنا بيننا أبكادنا تمشي على الأرض
 إن هبت الريح على واحد امتنعت عيني من الغمض
 ولكن شوقي ، وهو خير والد ، فصل هذه العاطفة تفصيلا
 يصور الحقيقة التي يحسها كل أب فقال :

لا تلذ مثلهمو	مهجة ولا كبـد
فتنة اذا صلحوا	محنة اذا فسدوا
شاغل اذا مرضوا	فاجع اذا فقدوا
جرحهم اذا انتزعوا	لا تلمه الضمد
العزاء ليس له	آسيا ولا الجلد

وقد امتاز شوقي في كثير من مراثيه بتصوير الحقيقة والاشارة
 بلطف الى حالة خاصة تزيد الشعر رونقا وجمالا لأن الشاعر
 يكشف لنا عن ناحية من نواحي الحياة التي ترخي الستور عليها ،
 من ذلك قوله في رثاء صديق له توفي عن بنات كثير ... وقد دعاه
 الموقف الى ذكر فضل النساء :

البايكاتك حين ينقطع البكا والذاكراتك بالعراء النائي

وقوله في المرحوم عبد الحى المغنى وقد ترك أمـا شيخـة كان
 يعولها :

كسرت عصاها اليوم فهي بلا عصا
ومضى فتاتها الأجود المسماح
ويعجبني من شوقي أن ولعه بالحقيقة المعنوية لا يقل أحيانا
عن ولعه بالحقيقة الماثلة أمام أعيننا ، وهل أدل على ذلك من
صراحته اذ يصف الجرح الذي يتركه بفقده الابن الراحل
العزاء ليس له آسيا ولا الخلد
وهذا ولا ريب من خير أنواع التعزية .



أخذ الشاعر الحكيم بعد ذلك يدعو صديقه الكاتب الحكيم
الى التفكير في القضاء الذي لامرء له ، ولكنه مهمل لذلك بالشئ
على شجاعة صديقه الذي لم يحل هول المصائب بينه وبين قلمه :

قد عجبت من قلم ثاكل وينجود
أنت ليث معركة وهو صارم فرد

وصف القلم بالصارم والشجاع بالليث من الأوصاف القديمة
التي تعلق بالشعر الحديث ، وهى من بقايا القديم التي يسميها الأفرنج
(Rémiscence) وقد تأتى عفوا ويصعب التحرر منها ولذلك
تجدها عند أكبر الشعراء المحدثين فى الغرب .

أجاد شوقي في قوله بعد ذلك :

أنت ناقد أرب	والأريب ينتقد
ما تقول في قدر	بعض سنه الأبد
وهو في الحياة على	كل خطوة رصد
يعثر الأنام به	إن سعوا وإن قعدوا
ينزل الرجال على	حكمه وإن جحدوا

ولكن شوقي أبدع في قوله وقد بسط جناحيه واستعرض
معضلة القضاء :

القضاء معضلة	لم يحلها أحد
كلما نقضت لها	عقدة بدت عقد
أتعبت معالجها	واستراح معتقد

صوّر شاعرنا في هذه الأبيات الثلاثة موقف الفلاسفة والشعراء
على اختلاف عقائدهم أمام معضلة القضاء منذ القدم ، ولا ريب
أن لكل شاعر حالتين : حالة شك وحالة يقين ، ومهما بلغ إيمان
الشاعر فإن في الحياة ساعات يتمنى الموت فيها لأن تجارب الحياة
تحتوى المترف في قراراتها .

ويلوح لى أن يقين شوقي يغلب على شكه لأن العقيدة الدينية

متكئة من فؤاده ، وهو في معظم شعره الايمان يجد فيه ظلا
وراحة وسلوى .



يخيل الى أن الشاعر بعد أن خلق في سمائه وقلوب معضلة
القضاء على وجوهها فلم يهتد الى حل لها هبط الأرض ثانية ونظر
في هذا العالم نظرة فيلسوف فقال ، وكأنني أسمع منه صوت أبي العلاء :

عالم مدبره	بالبقاء منفرد
من بلى كوائنه	كائناته الجدد
تلتقي نقائضه	غاية وتحدد

لا ريب أن التناقض الذي يبدو في جميع مظاهر الحياة دقيقة
وجليلها مما يسترعى الذهن

ومن ملبح التصوير قول شوقي في هذا المقام :

الفناء فيه يد للبقاء أو عضد

ومن دقيق التصوير :

الحياة حنظلة في حروفها شهد

وقد انتهى بشاعرنا المطاف الى صورة من صور التناقض

تعرض لنا كل يوم في هذه الحياة الدنيا ويراها الشاعر في "هيكل

الشقاء" :

هيكل الشقاء له من مدامع عمى
قامت النعوش على جانبيه والوسد
عرسه ومأتمه غايتهاهما نقد

بهذه الصورة الملموسة الرائعة التى خلعت الحقيقة عليها جمالها
ختم شوق قصيدته وقد نزلت الحكمة من أبياتها منازل الأقدار
فكانت عزاء ورحمة للثاكليين .

السياسة فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٥

٣

نقد الأمير شكيب

نشرت "كوكب الشرق" الغراء المقال الآتي بتاريخ ٢٧ يناير
سنة ١٩٢٦ لأمر البيان الأمير شكيب أرسلان ننشرها اتماما للفائدة :

*
* *

لا يقال في شعر شوقي "هذا أحسن من هذا" فكله نسج
واحد وكله نسيج وحده ، وما أحرأه بهذا الأثر الشريف - والله المثل
الأعلى - وهو أنه كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره؟ أو هو كماء
المزن لا يقال فيه هذا أصفى من ذاك .

وانما تلهج الألسن بجديد شوقي أكثر من قديمه ، لما في الجديد
من الطلاوة لا غير ، فلهذا ملهج الألسنة اليوم قصيدة شوقي
في توت عنخ آمون التي وان كانت مما لا يخلق جدته المملوان ، تبقى
حديث الأندية وموضوع المسامرات ولا يزال انشادها فاكهة
مجالس الأنس ، ونقلها نقل الندامى اذا دارت الكأس ، الى أن
يأتى شوقي بجديد غيرها ، ولا يحىء إلا ببدع ولا يظهر إلا بفد .

وكذلك تعزيتة لحسين بك هيكل في وحيدة كانت وحيدة
في بابها ، وقد رأيت لها وصفا شائقا في "السياسة" تحت إمضاء

ومحمد صبرى“ ، وفاها فيه حقها من التنبيه الى الرقائق ، والتنويه
بالجلائل من الدقائق ، بحيث لا احتاج أن أضيف الى ذلك شيئا ،
وانما لا يمكننى إلا أن أردد إعجابى بما فيها من الفلسفة العليا لا سيما
عند قوله :

عالم مدبره بالبقاء منفرد
من بلى كوائمه كائناته الجدد

ما رأيت من يجمع التوحيد الى الفلسفة فى شعره مثل شوقى ؟
ولو كان أبو العتاهية حيا لبكى وناح ، أكثر مما له عادة أن ينوح
ويبكى ، على كون شوقى جاء بمثل قوله :

الذين ميل بهم فى سفارهم بعدوا
ما علمتما أشفقوا بالرحيل أم سعدوا
ان متزلا نزلوا لا يرد من يرد

المرحوم أبو العتاهية مع نبوغه فى الوعظ وعبقريته فى ذكر
ما وراء الحياة والبحث ، لم يأت بأحسن من هذا فى زهدياته مع
أنه كان لا يجيد هذه الاجادة المستولية على الأمد إلا فى هذا الباب
وحده ، وشوقى يجيد فى كل باب

وانى لأبى العتاهية أن يقول عن الأولاد :

فتنة اذا صاحوا محنة اذا فسدوا

شاغل اذا مرضوا فاجع اذا فقدوا
جرحهم اذا انتزعوا لا تلمه الضمد
العزاء ليس له آسيا ولا الجلمد

فان فيه فصاحة لغة أبي العتاهية ودرره في العربية ، ويزيد عليه في المنزع العصري والشعر العملي عند قوله :

شاغل اذا مرضوا فاجع اذا فقدوا
لم أعب من هذا البيت إلا ضعف لفظتي ”شاغل“ و”فاجع“
وأنهما صارتا مبتدلتين من كثرة الاستعمال ، ولو أنه قال :
شاده اذا مرضوا محرق اذا فقدوا
أو شيء آخر أقوى من شاغل وفاجع اللذين فلّهما طول
الضراب لمكان أحجى .

وان كل وصف ليقصر دون بلاغة قوله ”اذا انتزعوا“ كأن
فقدهم أشبهه بالاقطعاع ، لا تأخذه المنية من أكماد الآباء إلا
بالكلايب أو المناقيش . وما ألطف قوله بعد ذلك ”لا تلمه
الضمد“ ان هذا هو القول الذي تنقطع دونه الأعناق كما قيل ،
ومثل هذه البلاغة الشافية لما في كل نفس قوله في القدر :

يعثر الأنام به ان سعوا وان قعدوا
ينزل الأنام على حكمه وان جحدوا

والله ان هذا هو الحق ، كما رأينا ممن يكابر في القضاء والقدر ،
 ويزعم أن ليس ثمة إلا خطأ وصواب ، أو نقص وكمال ، وتأتى عليه
 أحداث لا يقدر أن يعلمها إلا بقوة غير منظورة أو غير منتظرة ، فيخر
 أمامها ويعنو صاغرا ، وتضيق عليه وجوه التعليقات الأخرى ،
 ولو نشر المتنبي لثقى هذين البيتين لنفسه وكان بهما نخورا .

وأما الآية الكبرى التي جمعت فأوعت فهي قوله :

القضاء معضلة	لم يحلها أحد
كلها نقضت لها	عقدة بدت عقد
أتعبت معالجها	واستراح معتقد

وهل حل مسألة القضاء أحد ؟ أفليس كلما أتى فريق من
 المتكلمين بوجه رأيت عليه اعتراضا لا تقدر أن تحتقره ؟ أفليس
 الاعتقاد هو الراحة لمن آمن بإيمان العجائز ؟

ولكن شوقي عوذ محاسن هذه القصيدة التي لا تجارى بهفوة
 فقال :

هيكل الشقاء له	من مدا مع عمد
قامت النعوش على	جانيه والوسد
عرسة ومأتمه	غايتهما نفذ

وقد أطنب صبرى فى استطاف هذه الأبيات التى ختم بها
شوقى قصيدته ولكن فات شوقى وصبرى أن جملة "هيكل الشقاء"
غير مناسبة هنا نظرا الى أن القصيدة موجهة الى رجل اسمه
"هيكل" وهو من الأدباء الألباء، ومن الأخلاء لشوقى الأحباء .

وما عدا ذلك فالقصيدة درة فى تاج الشعر والادب .

شكيب أرسلان

برلين فى ١١ يناير

المصري غريب في بلاده

كلما أجلنا النظر في هذا السواد الأعظم اسودّ الظنّ وتسرب
الشك الى اليقين ورأينا شعبا يعامل معاملة الغريب ، يطالب
بحقوقه فلا تردّ اليه ولكن تمنح له ، وتمنح بقدر ، ويحسب حساب
لمصالح الغير قبل مصالحه كأن الدار ليست دار أبيه وجده فهو
غريب الديار .

ومما يزيد هذا الشعور وحشة عند المصري أنه بينما يجد شعوب
الأرض جمعاء بينها وبين بعضها والبعض الآخر صلة مصلحة
أو جوار أو رحم أو حلف أو دين أو عصبية أو عطف نرى شعب
مصريين الشعوب غريبا اذا نهض تألبوا عليه وأوقعوا من يده لواء
النهضة في المشرق .

وأخلق بهذا الشعور أن يشدّ من عزائمنا ويخاق لنا من الاعتماد
على النفس قوّة ، ويطهر نفوسنا من كل درن ، ولكن البلية أن
المصري غريب في بلاده ، لا لأن الأجنبي فيها الأمر الناهي ،
ولكن لأن المصري فيها غريب عن المصري .

وانك لترى بين المصرى والمصرى هوة تتكشف عنها أخلاقنا
رغما مما بيننا من أواصر الذكريات والدين واللغة والجنسية .

وانك لتجد المصرى غريبا حتى عن نفسه كأنما صور من
«طينات» مختلفة، غريب الأطوار، متباين الطباع : وقد تعاشر
الفرنسى أو الانجليزى فتفهم أخلاق الفرنسيين أو الانجليز، وتصل
الى أغوار نفسياتهم ، ولكذك تعاشر المصريين فيستعصى عليك أن
تدرك كنه مصرى واحد .

واذا كان لك صديق عاشرته زمانا ، وظننت أنك استبطنت
أمره ، وعرفت دخيلته ، وامترجت نفسها كما امتراج الماء بالماء
انقلب عليك وقد أمتته ، ووثقت به ، وعشت من أخلاقه
فى ظل ظليل .

ذلك أن المصرى ككلمة أضداد تجمع بين الوفاء والغدر، والشجاعة
والجن، والحرص والكرم، وحب الماديات والتعلق بالخيالات ،
سريع التنقل من النكتة اللطيفة التى تفرج عن النفس الى
التهكم المر الذى ينضح بالحقد ، ميال الى المصافاة ولوع بالنزاع
والتقاضى ، غريب فى أطواره يأتى بالخسيس وقد يأتى بالمعجز
كالبحر ينطوى على الدر وتعلو فيه جيفة .

وإذا كان المصرى غريباً عن نفسه وفى نفسيته فهو غريب
فى أسرته ، لأن الأسرة مفككة يقيم الجهل بين أفرادها حجاً بكثيفاً
فترى الهوة بين الرجل وزوجه ، والأب وبنيه ، لا تربطهم إلا صلة
واحدة ، صلة الرحم .

وبينما نجد الرجل فى الغرب يلوذ ببيته من المجتمع فيجد فيه
راحة وسلوى ، وعزاء من هموم الحياة ومتاعها ، يجد المصرى
مشاكل الأسرة فى بيته تحول ظله لفحات ، وتنغص عليه عيشته ،
فتراه يبسم عن باطن متجهم ، ويتنقل بين المجتمع والبيت كمن
يتنقل بين الرمضاء والنار .

والمصرى غريب فى بيته إذا سار نظروا إليه نظر العدو الى
العدو وسلطوا عليه الألسنة ، وإذا جلس يتحدث الى قوم كالوا له
الثناء بالميكال ، فإذا فارقه ذمواه بالحق وبالباطل .

ولا نكاد نجد هيئة فى مصر إلا وبين كل فرد وآخر هوة ،
وترى الهوة بين الهيئات المختلفة ، وتراها بين الجيل القديم والجيل
الجديد ، وبين المتعلمين وأنصاف المتعلمين ، وبين المتعلمين بعضهم
وبعض .

ولله ما أشقى المتعلم فى مصر ، وما أشقى الحر ! يرى المتعلم بعينه

تعلّى الأسافل وارتفاح "السطحيين" إلى مراتب الكتاب والعلماء
والمؤرخين والفلاسفة والوطنيين والأساتذة وهم يغمرون الحقيقة
بشهرة كالطبل الأجوف .

ويرى الحزب بعينه كيف يعلو الملق والرياء والتلون أحيانا
بأصحابه على كل عامل نزيه يؤدى واجبه فى صمت واحتشام وكيف
تفسد المبادئ وتسترفىها الأغراض .

وقل أن تجد إدارة مصرية أو معهدا مصرية إلا وقد اتسعت
مسافة الخلف بين رؤسائه على حساب المصلحة العامة ، هذا يدس
لذلك ويؤلب عليه حزبا معينا ، أوطائفة معينة ، أو نفرا من مرءوسيه ،
واننا لنجد معظم الموظفين ، الذين صارت مرتباتهم ثقلا على خزانة
الدولة ، يقضون معظم أوقاتهم فى الدس أو القضاء على الدسائس
المحيطة بهم ، بدلا من التفرغ للمصلحة العامة والتفكير فيها .

وقل أن تجد مصرية يثق بمصرى ويعتقد فى كفايته ونبوغه
فاذا أتى يبحث طريف أو فكرة جديدة اتهم فى أدبه ، ولكننا ننحنى
إجلالا أمام "القبعات" ولو كانت الرؤوس التى تحملها خاوية .

ثم تريدون بعد ذلك أن يحترم الأجنبي قوما متخاذلين ، غرباء
عنه وعن أنفسهم ! ثم تريدون أن نحفظ بشخصيتنا وكياننا !

لقد حقت كلمة الأفغانى "اتفق المصريون على أن لا يتفقوا"
ولكننا رغما من ذلك لا نريد أن نستسلم لليأس فان مصر اليوم
فى طور من أدق أطوار الانتقال ، وللانتقال فى كل أمة عيوب
ومساوئ لا بد من تحملها .

إن الانقلاب الحديث تناول جميع مظاهر حياتنا الاجتماعية ،
وإذا كنا الآن نعانى منه ما نعانى فلا بد من وقت يصفو فيه الخلق
المصرى الذى يستند الى أعلى ذكاء ، ولا بد من وقت تأخذ
الكفايات المصرية المنزوية الآن فى كرامتها ، وما أكثرها ، مكانها
فى الصف ، وتهبط الى الدرك القوى الصاخبة التى لا وزن لها

ولكن يجب علينا عاجلا أن ننظر الى موقفنا الدقيق نظرة تحيط
بالحقائق ، وأن نفتش عن عيوبنا وأمراضنا الاجتماعية فنعمل على
مداواتها .

فقد آن أن نهض من غفلتنا حتى لا يأكلنا آكل ، وأن نقصر
مسافة الخلف بيننا ما استطعنا فنحن أمة ، ولا حياة لأمة اذا لم يقيم
بنيانها على أساس من الخلق المتين .

الأهرام فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٢٦

وفاة كازانوف

انتزع الموت من الجامعة المصرية علما من أعلامها فشككت
في شبابها ، وهى أحوج ما تكون الى النصر والتأييد .

وقد رأيت أمس وهو جثة هامدة يعملوها الاصفرار كأنه ورقة
من ورق الخريف المتساقط ، ورأيت الموت ماثلا يرفرف حوله
بجناحيه فعزاني الدهول كأن الموت لم يمل قبله بحى فنام ، وكأن
هذا الرجل لم يكن أول أمس ، وقد كان نور الحقيقة يتلأأ فى عينيه
وفى ثغره فيضىء هذا الشحوب البادى و يملؤه نضرة ونعما .

كان كازانوف على خالق عظيم يعصره كل من عاشه وخبر
طويته ، وكان مصر يحا فى الحق لا يحب فيه مواربة ولا لينا ، وكان
يحمل بين جنبيه قلبا كبيرا مفعما بالحب والاخلاص ، ولكن الأسى
ضرب على أوتاره حين أحس دنو الأجل ، فكان ذلك القلب دليلا
صادقا فى ساعة الموت على إصابة المقدار رغما من تأكيد الطبيب
أن حياته بآمن .

وان مصر ليعز عليها أن يحتجب فى سمائها ذلك الكوكب
اللامع ، وأن تمجد حياة هذا الذى جاء ينفخ فيها الحياة ، وأن تجمد

هذه النسيمة من نسيمات الغرب ، وأن يطوى الموت ناشر الحقيقة
في أرجائها .

ولكننا بنينا على الصبر ، وامتحننا الزمان بأحداثه فامتلات
نفوسنا يقينا ، وإذا كانت الأيام لا تهدأنا صروفها ونوائبها فأننا
لا نهادنها عزما وإقداما ، ولا نياس .

الاهرام في ٢٤ مارس سنة ١٩٢٦

